AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

UNIVERSITY
LIBRARY

تجليد صالح الدقر
تلفون ٢٢٢٩٧٧

[illegible]

136.7
M25A
C.1

منشورات جماعة علم النفس التكاملي
يشرف على إصدارها الدكتور يوسف مراد

تطور الشعور الديني

عند الطفل والمراهق

تأليف

الدكتور عبد المنعم عبد العزيز المليجي

دكتوراه في علم النفس (معهد الطب النفسي بجامعة لندن)
مدرس علم النفس بجامعة عين شمس بالقاهرة

تقديم

الدكتور مصطفى زيور

رئيس قسم الدراسات النفسية بجامعة عين شمس

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر
١٩٥٥

من رسوم هيكل كنيسة دوم
لوبك – ألمانيا (١٤٩١)

للفنان مملنك

الإهداء

إلى أستاذى الدكتور يوسف مراد

اعترافاً بفضله ، وتقديراً لجهوده فى نشر الثقافة السيكولوجية فى ربوع الشرق .

مقدمة

بقلم

الدكتور مصطفى زيور

يتضح من قراءة العرض التاريخي الذى يتضمنه الفصل الأول من هذا الكتاب أن علم نفس الدين (الذى يحاول فهم الشعور الدينى فهماً علمياً) نشأ عندما أقبل بعض علماء النفس فى أواخر القرن الماضى على دراسة مظاهر السلوك الدينى بوسائل المنهج العلمى . وعلى الرغم من الملاحظات القيمة التى جاءت فى بعض كتاباتهم ، فإننا لا نكاد نظفر لديهم بشىء ذى بال فى توضيح مسألة الشعور الدينى . ذلك أنها مسألة ليست مستقلة عن سائر مسائل النفس الإنسانية ، وإنما هى وثيقة الاتصال بمسائل حميمة تكمن عادة فى أعماق النفس . كان على علماء النفس إذن أن يكتشفوا هذه الأعماق لكى يفهموا الشعور الدينى . وبعبارة أخرى ، إن البحث فى الشعور الدينى يفترض البحث فى اللاشعور ، وذلك أمر لم يكن ممكناً قبل نشأة التحليل النفسى .

وجدير بالذكر أن التحليل النفسى لم يعرض للشعور الدينى من تلقاء نفسه ، وإنما فرض الشعورُ الدينى نفسه على التحليل النفسى فرضاً . ذلك أن بعض المرضى الذين يسعون إلى المحللين النفسيين طلباً للشفاء مصابون بوساوس دينية تقض مضاجعهم ، وتسلمهم إلى شقاء مقيم : فهذا مريض يشكو من أن وسواساً خناساً يردد فى أذنيه أثناء الصلاة ألفاظاً نابية منكرة ، تطن طنيناً مزعجاً ، وتملأ نفسه حزناً وأسى . وذاك مريض ينفق يومه دعاء وصلاة لعله يتخلص من شعور بالذنب لا أساس له من الواقع . وفضلا عن ذلك ، فإن

بعض الأعراض الوسواسية القهرية تشبه الطقوس الدينية فى المظهر والمضمون على حد سواء .

كان لابد لأطباء النفس إذن من أن يسلطوا أضواء التحليل النفسى على المشاعر الدينية — يستقصون أصولها ، وعوامل الانحراف التى تطرأ عليها ، فقادهم ذلك الاستقصاء (كما قادهم الاستقصاء لغير المشاعر الدينية) إلى أطوار الطفولة الأولى . ووضح لهم أن الشعور الدينى ينبع من المصادر نفسها التى ينبع منها غير ذلك من أحوال النفس ، وتأكد لديهم أن للشعور الدينى مساراً تكوينياً يمكن أن نعاينه أثناء عملية التحليل النفسى بوصفها إجراء علمياً بالإضافة إلى كونها عملية علاجية .

فإذا نظرنا مثلا فى سلوك المريض بالوسواس القهرى أثناء العلاج بالتحليل النفسى ، نجد أن الألفاظ النابية التى كانت تقتحم أذنيه أثناء الصلاة أخذت تزول شيئاً فشيئاً ، فيرتاح المريض نفساً . ولكن هذه الراحة لا تدوم إذ لا تلبث هذه الألفاظ أن تقتحم أفكاره بصدد طبيبه هذه المرة ، فكأن الطبيب قد حل لديه محل الله . والواقع أن التحليل يدل على أن مشاعر المريض نحو طبيبه تتصف إذ ذاك بصفات التقديس والتبجيل ، وكأنه بالنسبة إليه كائن علوى قادر على كل شىء ، جبار يخشى نقمته . على أن هذا التقديس يمتزج بنوازع العصيان ومشاعر الكراهية . وهذه يجهد المريض فى كتمانها وضبطها ولكنها تنساب آخر الأمر رغماً عنه فى تلك الألفاظ النابية . ومن جهة أخرى ، يقف المريض من طبيبه موقف الطفل الصغير من أبيه (رب الأسرة) ، إذ يستعيد إزاءه الانفعالات التى استشعرها فى طفولته إزاء أبيه ، بما تتضمنه من تقديس ممتزج بالرهبة والكراهية .

لم يعد من شك إذن أن تجربة التحليل النفسى تكشف فى أجلى صورة عن مصادر الشعور الدينى وتاريخه التكوينى : يضفى الطفل على أبيه صفات الجبروت ، والقدرة المطلقة ، والعلم الذى يحيط بما فى السماء وما فى الأرض ؛

ويتراءى له محاطاً بهالة من القدامة والجلال والكمال . وغنى عن البيان أن هذه المشاعر تنشأ من حاجات نفسية خاصة بالطفل فى بعض مراحل تطوره النفسى . ولكن الطفل لا يلبث أن يعانى انفعالات عنيفة بصادد أبيه أثناء الموقف الأوديبى المعروف ، فيبادر إلى كبتها ؛ كما لا يلبث أن يصطدم بالواقع المرير ، إذ ينكشف له قصور أبيه عن صفات الكمال التى توهمها فيه من قبل . حينئذ لا يجد الطفل بدأً من أن يخلع هذه الصفات على كائن آخر ، كائن علوى هو الله الذى يصبح « أباه الذى فى السموات » . وجدير بالذكر أن بعض الديانات القديمة ، وبخاصة ديانة « كونفوشيوس » يتضح فيها هذا الأصل التكوينى ، أعنى التناوب بين عبادة الرب وعبادة الأب ممثلا فى شخصيات الأجداد ، كما يتضح ذلك من دراسة « الطوطمية » التى تتميز بها الديانات البدائية .

من الجلى إذن أن الشعور الدينى بما يحمل من أوامر ونواه يقوم بوظيفة حيوية – أعنى ضبط النزوات وسياستها وفقاً للقيم التى كان الأب يفرضها على طفله ثم اعتنقها الإنسان بعد ذلك وأحالها إلى بعض نفسه ، إلى « الذات العليا » أو « المثل الأعلى للذات » من هذه الناحية يسند الدين وظيفة الضمير ، ويضفى على قيمه جلالا ومهابة وروعة .

ولا يقتصر الشعور الدينى على القيام بوظيفة الضبط والتحكم فى النزوات ، إذ نراه يشبع حاجات أكثر عمقاً – فنحن نعلم أن الطفل يبدأ حياته النفسية بضرب من التأليه لذاته ، كما يعشق نفسه ويتصورها أجمل الكائنات وأقدرها على أى شىء ، مثله فى ذلك مثل « نرجس » فى الأسطورة اليونانية . وعندما تتكشف للطفل حدود الواقع ويضطر إلى التخلى عن هذا الاتجاه « النرجسى » فى الحياة ، يستشعر ضيقاً وعجزاً شديدين . ولكنه يحاول التغلب على هذا الضيق وذلك العجز بأن يخلع على والديه صفاته النرجسية ، ثم يوحّد نفسه بهما ، ويعتنق مبادئهما ، فتنشأ فى نفسه صورة لهما هى « الذات العليا » . فالذات العليا مصدرها إذن نرجسية الطفل الأولى ، والأصل فيها عشق الطفل لذاته .

وقد رأينا أن الشعور الدينى وفكرة الله إنما هما انعكاس فى مستوى ميتافيزيقى للمثل الأعلى للذات . وبعبارة أخرى ، يصدر الإنسان فى عشقه للمثل الأعلى للذات وللكائن الأعلى عن أصول نرجسية، فيرضى ، ويطمئن ، ويستمد من قداسة الدين رفعة لنفسه .

وغنى عن البيان أن الشعور الدينى يشمل معانى نفسية أخرى غير التى ذكرتُ ، بل يكاد يلخص كل أحوال النفس من مراحلها الأولى إلى سن النضج — فنجد مثلا فى معانى البعث والجنة ما يعالج الخوف من الفناء بالعودة إلى حضن الأم والاستمتاع بوارف ظلها .

بقى أن نجيب عن سؤال لا مهرب منه : ما علاقة كل ذلك بالمعتقدات الدينية ؟ وهل فى مكتشفات التحليل النفسى ما يؤيد أو ينفى هذه المعتقدات ؟ لابد أن نقرر تواً أن طبيعة المعتقدات الدينية لا تحتمل النفى أو التأييد بوسائل البحث العلمى . فهناك مستويان لا سبيل إلى الجمع بينهما : المستوى الميتافيزيقى، أعنى مستوى العقيدة ؛ والمستوى التجريبى ، أعنى مستوى البحث العلمى . فالقول مثلا بأن فكرة الإنسان عن الله لا تعدو أن تكون فكرة انحدرت من فكرة الطفل عن أبيه إنما يدل على قصور فى فهم سيكولوجية النمو الانفعالى . فمن المعروف مثلا أن الملك يرمز فى اللاشعور إلى الأب ، وفكرة الإنسان عن الملك أو صاحب السلطان منحدرة هى الأخرى من فكرته عن أبيه وموقفه منه ، ومع ذلك فنحن لا نقول إن فكرة الإنسان عن الملك لايقابلها وجود واقعى ، بل نقول إن الفكرة اللاشعورية التكوينية التقت بوجود واقعى .

• • •

قلت إن عملية التحليل النفسى تحقق كل شروط البحث التجريبى — فنتائجها تتسم بالصحة والصدق شأن كل بحث تجريبى ؛ وكما يحاول التجريب فى الميادين العلمية المختلفة أن يثبت صحة النتائج باختبار ما يترتب عليها ، فإن البحث فى سيكولوجية الشعور الدينى يقتضينا أن نختبر نتائج

التحليل النفسي بدراسة الطفل دراسة مباشرة . وهذا هو الهدف الذى اختاره الدكتور عبد المنعم المليجى لبحثه هذا . ومن هذه الناحية يفيد هذا البحث فائدة عامة ، فهو مساهمة علمية جديدة بثناء كل عالم من حيث كونها إضافة إلى علم نفس الدين . ولكن البحث يمتاز إلى ذلك بأنه مساهمة طيبة فى دراسة الفرد المصرى ، واستقصاء العوامل الخاصة بالبيئة المصرية .

ولا بد أن أقرر أن البحوث التى تستهدف دراسة الفرد المصرى والبيئة المصرية قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة . وذلك لعمرى تقصير خطير ، فلا يمكن أن نرجو فائدة حقيقية من ترجمة الكتب الأجنبية التى تتخذ الطفل الأمريكى أو الإنجليزى موضوعاً للدراسة . وعلى الرغم من أن الدولة لا تبخل بالمال على الجامعات فى مصر ، فإن محصول البحوث السيكولوجية ، حتى الآن ، محصول ضئيل لا غناء فيه .

من أجل ذلك كان صاحب هذا البحث حقيقاً بكل تقدير . ويسعدنى حقاً أن أقدم كتابه إلى قراء العربية ، كما لا يفوتنى أن أقرر أنه قد بلغ درجة النضج العلمى الصحيح . فقد تابعت نمو المليجى منذ نحو خمس عشرة سنة خلت ، عندما كان يجلس منى مجلس التلميذ ، وها هو اليوم يقف معى ويصبح زميلا تسعدنى زمالته كما كان يسعدنى ما امتاز به من صفات الجد والنباهة عندما كان يطلب العلم إلى .

وقد تابعت نمو هذا البحث أكثر من أربعة أعوام فتبينت فى صاحبه صفات الأمانة العلمية وسعة الأفق ، فهو عالم كما يجب أن يكون العالم ، وفيلسوف كما يجب أن يكون الفيلسوف . وقد حرص الدكتور المليجى فى هذا الكتاب على استخدام كل أدوات البحث فى علوم النفس — فقد استخدم الطريقة التكوينية أحسن استخدام ، كما استعان بوسائل البحث الإحصائى ، فجاء كتابه نموذجاً لما يجب أن يكون عليه البحث العلمى .

القاهرة فى ٢٢ يوليو ١٩٥٥ — م . زيور

تصدير

هذا الكتاب خلاصة بحث استغرق زهاء ستة أعوام ، بتوجيه كريم من جانب الأستاذ الدكتور يوسف مراد . وقد أنجزته فى أواخر عام ١٩٥١ ، ونلت عليه من كلية الآداب بجامعة القاهرة درجة الماچستير بامتياز . وقد حفزنى هذا التقدير إلى التفكير فى نشره حينذاك . غير أننى مالبثت أن غادرت مصر لاستكمال دراستى فى بريطانيا . وأعدت قراءة الكتاب بعد اغتراب تجاوز ثلاثة أعوام (وهى فترة لابد أن يكون المرء خلالها قد تطور فكراً ووجداناً) فلم أجده بريئاً من المآخذ . ولكنى ألفيت به خلة تكفى وحدها لتبرير إيمانى بقيمته ونشره — من ثمة — على حاله دون تعديل ، تلك هى أنه يصور تصويراً علمياً نفوس أطفال وشباب فى مجتمعنا هذا ، ويعكس فى جلاء متناقضات ذلك المجتمع فى فترة خطيرة من تاريخ تطوره الإيديولوچى .

فالكتاب لم ينبع من تفكير غيبى ، ولم يصدر عن تأمل ميتافيزيقى ؛ وإنما هو نتيجة المشاهدة المنظمة ، والملاحظة المضبوطة، فضلا عن تجارب المؤلف النفسية . هذه الصفة الموضوعية للكتاب تجعلنى أؤمل أن يزيدنا فهماً لأطفالنا ، وإدراكاً لعنصر الطفولة المطوى فى نفوسنا ؛ وأن يحفز شباب الشرق إلى اعتناق أسلوب العلم — يطبقه فى سعيه لتفهم الإنسان وحل مشكلاته ، ويستعين بموضوعيته وهدوء أحكامه على نوازع التعصب والشقاق العنصرى .

* * *

أما وقد كُتب لهذا البحث أن ينشر ، فلابد أن أذكر فضل الآباء والأمهات الذين تطوعوا بتدوين مشاهداتهم على أطفالهم ، وأحاديث هؤلاء معهم بخصوص مفهومات الدين . وما كان بوسعى أن أقدم ما قدمت عن المراهقة ما لم

أحظ بعون أصدقائى الأساتذة : عثمان فيظ الله، وصبحى كامل، وعدلى سليمان، ومنير المليجى، وجرانت البيلاوى ، وحسين هيبه ،وسامى المليجى ، فى توزيع نسخ استفتاء الشعور الدينى وجمع الإجابات عليه .

وما كان لى غنى عن جهود الآنستين إيزيس حبيب وماري باسيلي ، وإنى لذاكر فضلهما مع كل تقدير . ولابد أن أشكر للأستاذين كمال عفيفى وحلمى المليجى إسهامهما فى إعداد الرسوم البيانية ، وللأستاذ رجائى نجيب تقديمه بعض ما نشرت من رسوم الأطفال .

وإذا كنت قد أفدت من كشوف التحليل النفسى فى تفهم الشعور الدينى عند الأطفال والمراهقين ، فالفضل فى ذلك راجع إلى أستاذى الدكتور مصطفى زيور ، الذى أعتز بالصداقة التى حبانى بها منذ كنت طالباً ، فقد كان لها أبلغ الأثر فى تكوينى العلمى ، وفى اتخاذى البحث السيكولوجى هوايةً وصناعةً .

القاهرة فى ٢٤ سبتمبر ١٩٥٥

عبد المنعم عبد العزيز المليجى

فهرس

صفحة

الإهداء ٥
مقدمة ٧
تصدير ١٣

الباب الأول

علم النفس والظواهر الدينية

الفصل الأول

تطور البحث السيكولوچى فى الدين

تمهيد ٣
رأى لوبا ٥
بحوث ستارباك ٦
بحوث ستانلى هول ٦
نظرية « المادية الطبية » ٧
اعتراضات على دراسة الدين علمياً ٩
رأى وليم چيمس ١٣
فلورنوا وعلم النفس الدينى ١٩
مناقشات مؤتمر چنيف سنة ١٩٠٩ . . . . . ٢٣
بوڤيه وعلم نفس الطفل ٢٥
رأى ثاولس ٢٧
رأى دى سانكتس ٢٩
نظريات مدرسة التحليل النفسى ٣٠
دراسات أخرى (كارلسون ، سميث ، سوزان أيزاكس ، سيلڤيا سيدنى) ٣٥

الفصل الثانى

البحث الجديد ـ مجاله ومنهجه

صفحة

مسلّمات عامة ٣٩
مجال البحث ٤٣
منهج البحث ٤٧

الباب الثانى

الطفولة

تمهيد ٥٥

الفصل الثالث

الأطفال قبل تمثُّل فكرة الله ، حتى سن السادسة

الطفل رقم (١) ٥٧
الطفل رقم (٢) ٥٨
الطفل رقم (٣) ٥٨
الطفل رقم (٤) ٦٠
الطفل رقم (٥) ٦١
الطفل رقم (٦) ٧١

الفصل الرابع

الأطفال بعد سن السادسة

الطفل رقم (٧) ٧٣
الطفل رقم (٨) ٨٠

صفحة

الطفل رقم (٩) ٨٥
الطفل رقم (١٠) ٨٨
الطفل رقم (١١) ٩١
الطفل رقم (١٢) ٩٥
الطفل رقم (١٣) ١٠٢

الفصل الخامس

تتبع التطور الدينى لطفل واحد

(رقم ١٤) من سن ٥ حتى سن ١٠

فى سن الخامسة والنصف ١٠٧
فى سن الثامنة ١١٥
فى سن العاشرة ١٢٨

الفصل السادس

نشأة فكرة الله عند الطفل

الفكرة مركب وظيفى ١٤١
علاقة الطفل بوالديه ١٤٢
تأليه الأب ١٤٦
معارضة الطفل لفكرة الله ١٥٠
تداعى ألوهية الأب ١٥٧

الفصل السابع

أطوار فكرة الله فى الطفولة

الله «الأب الكامل» ١٦٣

صفحة

الله وفكرة العِلّيّة	١٦٧
أثر فكرة الموت فى نشأة التفكير المنطقى	١٦٨
أثر العِلّيّة فى تصور الطفل لله	١٧١
الخلق	١٧٤
الله والروحانية	١٧٧
الله كضرورة أخلاقية	١٧٩
الله والحس الاجتماعى	١٨٣

الفصل الثامن

فكرة الموت عند الطفل

نشأتها وتطورها	١٨٧
معانى الموت :	١٨٨
الموت عقوبة	١٨٨
الموت مرض	١٨٩
الموت حادث طارئ	١٨٩
الموت نوم	١٩٠
مراحل تقبّل فكرة الموت	١٩٠
الموت واللاشعور :	١٩٦
الموت والميلاد	١٩٧
الموت والعدوان	٢٠٢
رغبات الموت ومخاوف الموت	٢٠٥

الباب الثالث

المراهقة

تمهيد	٢١١

صفحة

استفتاء لدراسة الشعور الديني عند المراهقين والبالغين . . ٢١٤

الفصل التاسع
فكرة الله عند المراهقين

صفات الله ٢١٩
ازدواج الشعور الديني ٢٢١
الإيمان والأخلاق :
الله عون أخلاق ٢٢٥
الجنة والنار ٢٢٧
الملائكة والشياطين ٢٣٠
الإيمان والتأمل الفلسفي ٢٣٤

الفصل العاشر
الموت والخلود

تطور فكرة الموت ٢٣٧
تمني الموت ٢٤٥

الفصل الحادي عشر
تصنيف الاتجاهات الدينية

نتائج الاستفتاء ٢٥١
اليقظة الدينية : ٢٦٤
الإيمان التقليدي ٢٦٤
الحماس الديني ٢٦٨
الحماس الإيجابي ٢٧١

صفحة

الحماس الخرافى ٢٧٥
الحماس الدينى والدوافع الغريزية ٢٧٧

الفصل الثانى عشر

تصنيف الاتجاهات الدينية (تابع)

الشك ٢٨٥
الشك والحماس ٢٩٠
العوامل التى تحمى الإيمان ٢٩١
الشك من أجل الجماعة ٢٩٤
الإلحاد ٢٩٨
أثر الثقافة العلمية ٢٩٩
أثر الدافع الجنسى ٣٠٤

نتيجة البحث

أولاً : الدين والتطور العقلى ٣١٣
ثانياً : الدين والتطور الأخلاقى ٣١٦
ثالثاً : الدين والتطور الاجتماعى ٣١٧
رابعاً : خصائص التطور الدينى عند الفرد . . . ٣١٨
خاتمة ٣٢٢

المراجع

المراجع الافرنجية ٣٣٢
المراجع العربية ٣٣٤
كتب للمؤلف ٣٣٥

جداول إحصائية

صفحة

١ — توزيع الاتجاهات الدينية عند المراهقين والمراهقات . . ٢٥٢

٢ — توزيع الاتجاهات الدينية عند المراهقين ، المسلمين والمسيحيين ٢٥٣

٣ — توزيع تفصيلى للاتجاهات الدينية عند البنين والبنات ، مسلمين
ومسيحيين ٢٥٨

٤ — توزيع النسب المئوية للإيمان التقليدى حسب العمر الزمنى . ٢٦٥

٥ — توزيع النسب المئوية للحماس الدينى على الأعمار . . ٢٦٩

٦ — توزيع النسب المئوية للشك على الأعمار ٢٨٦

رسوم تخطيطية

صفحة

١ – رسم تخطيطي يوجز اقترانات فكرتي الموت والميلاد . . ٢٠٣

٢ – رسم تخطيطي يوجز اقترانات فكرة الموت بمشاعر العدوان . . ٢٠٧

أشكال بيانية

(الشكل الأول) يبين توزيع الاتجاه التقليدي في التدين على فئات البنين والبنات من الدينين ٢٦١

(الشكل الثاني) يبين توزيع الحماس الديني على الفئات الأربعة ٢٦١

(الشكل الثالث) يبين توزيع الشك على الفئات الأربعة . ٢٦٢

(الشكل الرابع) يبين توزيع الإلحاد على الفئات الأربعة . . ٢٦٢

(الشكل الخامس) يبين توزيع الاتجاهات الدينية الأربعة . ٢٦٣

(الشكل السادس) منحنى توزيع الإيمان التقليدي بالنسبة للعمر . ٢٦٦

(الشكل السابع) منحنى يبين تطور نسبة المتحمسين مع التقدم في العمر ٢٧٠

(الشكل الثامن) منحنى تطور نسبة الشك بين المراهقين مع التقدم في العمر ٢٨٧

رسوم أطفال ومراهقين للملائكة والشياطين ٣٢٥

الباب الاول

علم النفس والظواهر الدينية

الفصل الأول

تطور البحث السيكولوجى فى الدين

تمهيد

ليس علم النفس أول علم تناول بالبحث الموضوعى ظواهر الدين ، فقد سبقته فى هذا المضمار علوم أخرى ، هى تاريخ الأديان وعلم الاجتماع وعلم الأجناس . وكانت بحوث « فريزر » Frazer و« تايلور » Taylor أول اجتراء علمى على قدس الدين ، فقد بسطت أشكال الأديان البدائية بسطاً نبّه الأوروبيين إلى تشابه مرعب بين أقدس أشكال العبادة المسيحية و بين وساوس الشعوب البدائية. تبين ، مثلا ، أن من الشعوب البدائية شعوباً تحتفل بشىء جد قريب من عيد الميلاد من حيث طقوسه وروحه ، وذلك من قبل ميلاد المسيح بأمد طويل ، وأن الأديان البدائية حافلة بأفكار كان يظن أن المسيحية تنفرد بها ، كأسطورة الفداء vicarious sacrifice ، وفكرة التكفير ، وفكرة البعث ، وغير ذلك من أفكار هى بين الشعوب البدائية أكثر شيوعاً من المسيحية ذاتها .

والفضل الأكبر لتلك البحوث الأولى ، هو أنها شجعت الناس على اعتبار الدين مظهراً لا يختلف عن مظاهر الحياة الإنسانية الأخرى من حيث القابلية للفحص والاستقصاء ، وأثبتت لهم أنه لا يستعصى على البحث العلمى ، وبينت لهم أن العلم لا يفعل كما يفعل الدين إذ يهاجم النظريات التى يشتم فيها مساساً بعقائده ، فهو لا يفيد من مهاجمة الدين — وليس هذا هدفه — وإنما يفيد من دراسته ، ويهدف إلى الوقوف على طبيعة ظواهره .

وقد حاول علم النفس بدوره أن يدرس — من زاويته ووفق مناهجه الخاصة — الظواهر الدينية : فابتدأ بفحص النتائج التى تجمعت من بحوث العلوم السالفة

الذكر، مضافاً إليها ما خلّفه كبار الصوفية وأبطال الدين فى عصورٍ خلت من وثائق ومذكرات. فعلم النفس عند ما غزا ميدان الدين لم يجده خلوا من المادة المدروسة، بل وجد منها قدراً غير أنه لم يكن يكفى لتحقيق أغراضه الخاصة، فضلا عن استحالة تحقيقه بمناهج علم النفس الخاصة. فالوثائق، مثلا، والمذكرات الخاصة بالقديسين — على الرغم من نفاستها وقيمتها العلمية — بيدأنها ليست سوى عناصر فى بنيان العلم، أما هى فى ذاتها فليست بمادة منظمة تنظيما علمياً، ومن ثمة ما كانت لتكفى فى فهم طبيعة الظواهر الدينية عامة. أما تاريخ الأديان فعلى الرغم من كونه بمثابة «الشقيق الأكبر لعلم النفس الدينى»، غير أنه — كما يقول فلورنوا Flournoy — «لا يمكن أن يحل محله، كما لا يمكن لأحدهما أن يحتل مكان الآخر، ولو أن التعاون بينهما متبادل وثيق. فالتاريخ يدرس الدين على نحو موضوعى فى منتجاته الاجتماعية (عبادات، أساطير، عقائد، دساتير كهنوتية، إلخ . . .)، وبذلك يزود علم النفس بالمعلومات التى لا غنى عنها لتصور شكل الحياة الدينية التى سبق أن عاشتها الأجيال البدائية. ومهمة علم النفس أن يكشف أسرار الشعور الفردى المباشر، ويستمد منه التفسير الداخلى والمفتاح الحق لجميع تلك الظواهر التى يتأمل التاريخ تتابعها من خارج . . .»(١)

ولا شك أن البحوث الخاصة بأشكال الدين وبتطور العقائد عبر التاريخ قد زودت علم النفس بالعناصر الأولى التى قام عليها علم النفس الدينى، غير أنها لم تكشف إلا عن الظواهر الخارجية للدين كما يحياها المجتمع بأسره، ولا شأن لها بالكشف عن الدين من حيث هو حياة نفسية يحياها الفرد الواحد، أعنى أنها لم تعرض للدين إلا من حيث مظهره الاجتماعى العام، ذلك المظهر الذى يعتبر فى نظر عالم النفس نتاجاً ثانوياً، فى حين أن النتاج الأصلى هو الدين الفردى.

وهكذا فإن نتائج البحوث الاجتماعية لم تكن تكفى لفهم الحياة الدينية

(1) Flournoy, Archives de Psychologie, Tome II, p. 36. — 1903

الداخلية ، ولا سبيل إلى تفهم هذا الجانب إلا فى نفسية الفرد بالذات . ولا يمكن التعبير عنه إلا بقوانين الحياة النفسية الداخلية . كان لا بد إذن لنشأة علم نفس الدين أن نفرق بادىء ذى بدء بين الجانب الفردى والجانب الجماعى من الدين ، وأن نركز الجهود فى استقصاء الجانب الأول ، وبدلا من أن نهدف (شأن « دوركيم »[١] و « ڤونت » ، ومن لف لفهما من علماء الاجتماع) إلى استقصاء قوانين الظواهر الاجتماعية الخارجية ، نسعى إلى معرفة قوانين الظواهر النفسية الداخلية ، وتفسير نتائج الدين بلغة الشعور الشخصى .

رأى « لوبا »

يعد « لوبا » أول من عرض للدين من الزاوية السيكولوچية ، وقد كان ذا نزعة موضوعية صارمة ، فصمم على أن يكون علم النفس الدينى خلواً من عنصر الاعتقاد ، أعنى من الأحكام الشخصية التى لا تستوحى التجربة أو المنطق . وقد خلّص علم النفس من البحث فى الله بحثاً لاهوتياً أو فلسفياً ، إذ قرر أن ذات الله ليست موضوع دراسة نفسية ؛ وأنه إذا كان فى الإمكان الاهتداء إلى الله « المتعالى » فسبيل ذلك غير سبيل التجريب . ولم يقتصر على تخليص علم نفس الدين من الجدل الفلسفى واللاهوتى فحسب ، بل خلّصه أيضاً من فوضى التعريفات ، إذ ألمّ بالمحاولات السابقة لفهم طبيعة الدين ، فأورد ثمانية وأربعين تعريفاً وضعها السابقون للدين ، وبعد مناقشتها تبين له أن محاولة تعيين ماهية الدين العامة عن طريق الجدل محاولة عقيمة لن تسفر عن جديد ، وتوجه للبحاث بالنصح أن يوفروا الجهد المضيَّع فى الجدل ، لاستغلاله بدلاً من ذلك فى دراسة العمليات السيكوفسيولوچية المحسوسة ، وفى البحث عن أصول الدين واستخلاص قوانينه .[٢]

(1) Durkheim, les Formes Elémentaires de la Vie Religieuse.

(2) Leuba, Introduction to A Psychological Study of Religion, The Monist, vol. XI (January 1901), P. 125.

أمعن « لوبا » Leuba فى الاتجاه الموضوعى ، وتبعه فى ذلك بعض الكتاب فحاولوا تفسير الظواهر الدينية تفسيراً فسيولوجياً ، أى حاولوا استقصاء كافة الشروط العضوية والفسيولوجية لظواهر (مثل رؤية الله مباشرة ، والشطحات الصوفية ، والتحولات الدينية العنيفة ، إلخ ...) وتحديد كافة الظروف التى تكتنف تلك الظواهر (كالعمر ، والجنس ، والعنصر ، والمزاج ، والصحة والمرض ، الخ ...) وما يصاحب كل ذلك من تغيرات مخية . ولكن المحاولات التى من هذا النوع الأخير لم تحرز بطبيعة الحال غير نتائج ضئيلة تافهة ، إذ غالباً ما كانت تتمخض عن مجموعة من الدوائر والخطوط البيانية الرمزية . وقد أولع العلماء الأمريكان على وجه الخصوص بالرسوم البيانية يوضحون بها التفسير المادى الفسيولوچى لعدد من الظواهر الأخلاقية والدينية ، (مثل ظاهرة الأمر المطلق ، والاهتداء conversion بأطواره المتباينة ، وتأثير الديانة الشائعة على سلوك الفرد) ، ومن ذلك رسوم « لوبا »[1] و « ستارباك » .

بحوث « ستارباك » Starbuck

« ستارباك » أحد الثقات من طليعة الذين بدأوا البحث السيكولوچى فى الدين ، وقد كتب مؤلفات عدة فى الموضوع : ففى سنة ١٨٧٩ نشر مقالاً فى مجلة علم النفس الأمريكية موضوعه « Contributions to the Psychologyof Religion » ، وفى سنة ١٨٩٩ عرض لنفس الموضوع بتفصيل أكثر فى كتاب عنوانه « علم نفس الدين ، دراسة تجريبية لنمو الشعور الدينى »[2] وقد كتب مقدمته الفيلسوف الأمريكى « وليم چيمس » .

بحوث ستانلى هول Stanley Hall

وقد سار فى نفس الاتجاه العلمى الممعن فى التفسير المادى للظواهر الدينية

(1) Leuba, Psycho-Physiology of the Moral Imperative, American Journal of Psychology. vol. VIII, P. 531: 545.

(2) "The Psychology of Religion, An Empirical Study of the Growth of Religious Consciousness".

« ستانلى هول » Stanley Hall الذى حاول دراسة الشعور الدينى ، وبخاصة ظاهرة الاهتداء عند المراهقين ، مستخدماً طرق الاستفتاء والإحصاء [1] . وقد لاحظ فى دراسته للمراهقة فى سنة ١٩٠٤ أن ثمة توافقاً بين نمو الدين الفردى وبين نمو عواطف الفرد وانفعالاته تجاه أفراد الجنس الآخر ، «فالسن التى يتفتح فيها القلب للحب هى نفس السن التى تنبثق فيها المشاعر الدينية العنيفة» . كما أنه لاحظ مشابه عدة بين ظاهرة « الاهتداء » وظاهرة « الحب الأول » ، فكلاهما فى نظره تفتُّح للروح الإنسانية ، توجيه إلى الخارج لطاقات روحية كانت قبل المراهقة مركَّزة فى مشاغل أنانية؛ وكلاهما وحى ينتزع الإنسان من ذاته . ويقول كنتيجة لذلك — إن كانت العاطفتان (الحب والتدين) تتحدثان نفس اللغة ، فلا يمكن أن يكون ذلك بمحض الصدفة العابرة . وقد حاول « ستانلى هول » بعد ذلك أن يدرس شخصية المسيح على ضوء علم النفس التكوينى ونظرية «فرويد». [2]

نظرية « المادية الطبية »

من المحاولات المغالية فى التفسير المادى للظواهر النفسية ، وفى التعبير عنها بعبارات الفسيولوچيا ، « نظرية المادية الطبية » Medical Materialism . وهى تعتبر حالات النفس أو الذهن تعبيرات عن الوظائف العضوية ، فتفسر شذوذ القديسين ، وفناءهم العجيب فى الحياة الروحية ، بأنه نتيجة لعلل جسمية ، كاضطراب بعض الغدد أو التسمم الذاتى . ومن ذلك ترى هذه النظرية أن ما لهذه الشخصيات المقدسة من سلطان روحى يتداعى أمام التفسير المادى لحالاتهم النفسية المعتلة : فالقديس « بولس» مثلا ليس إلا شخصية صرعية epileptoid ، و « چورج فوكس » كان مصاباً بانحلال وراثى hereditary degeneration ،

(1) Stanley Hall, Adolescence, vol. II, ch. XIV.
(2) Stanley Hall, Jesus The Christ. 1917.

و « كارليل » كان يعانى من تسمم ذاتى فى جسمه. بل إن « سانجليه » Binet Sanglé يجترىء على ذات المسيح بالتحليل وينتهى إلى اعتباره شخصية ذهانية.(١)

وينتقد الأستاذ « فلورنوا »(٢) هذه المحاولات قائلاً إن العمليات الخاصة بمراكزنا العصبية لا يزال يحوطها الغموض حتى ليستحيل علينا أن نعين ما يعترى مخ قديس فى حالة وَجد أو فناء صوفى فى الله، أو ما يجرى فى المراكز العصبية لفاسق لحظة اهتدائه . ويضيف « فلورنوا » : إن الطمع فى أن تدل فسيولوچيا المخ – حتى إن اكتملت – على الشعور الدينى ، إنما هو طمع فى محال ووهم ساذج ، لسبب بسيط ، هو أن الإلمام بظواهر المخ من حيث هو عضو جسمى لن يقلل بأى حال غموض الظواهر النفسية المقابلة للتغيرات المخية . فالتغير الفسيولوچى يعترى موضعاً تشريحياً مكانياً ، فى حين أن الظاهرة السيكولوچية من طبيعة مغايرة ؛ ومن ثمة لا يمكن رد التغيرات السيكولوچية – أيا كانت – إلى تغيرات تشريحية أو فسيولوچية بعينها ، علماً بأن هذه الأخيرة شرط لا مناص منه لحدوث الأولى ، وبتعبير آخر ، « لا سبيل إلى ترجمة عناصر استبطانية إلى لغة ميكانيكا الأعصاب » .

ونحن نرى أن تلك المحاولات – وإن لم تصل إلى نتائج يعتد بها – مظهر حميد لطموح علمى (يبلغ حد السذاجة) إلى تصوير الأحوال النفسية الدينية الغامضة تصويراً فسيولوچياً تشريحياً محسوساً ، وهى تنم عن بدء تغلغل مشكور للنزعة التجريبية فى البحث السيكولوچى . ومهما يكن الأمر فإن تلك المحاولات – وإن لم تفد نتائج بينة – فهى ، على أقل تقدير ، قد كشفت عن ثغرات تتخلل المعرفة الإنسانية ، ونبهت إلى الاتجاه الذى ينبغى أن تسير فيه البحوث التالية فى موضوع الدين .

---

(1) W. James, Varieties of Religious Experience, Ch. I.

(2) Flournoy. Archives Psychologiques, Tome II, P. 42.

اعتراضات على دراسة الدين علمياً

على أن البحث السيكولوجى للدين لم يسلك طريقاً هينة خالية من العقبات ، فقد كان على عالم النفس إذ يتناول بالبحث العلمى ظواهر الدين أن يبذل قدراً كبيراً من جهده فى تبرير عمله هذا أمام نوعين من الناس :

أولاً : جمهور المتحمسين للنزعة العلمية تحمساً يجعلهم يرون الدين وكل ما يتصل به ترهات ، أو مجموعة من الغيبيات والأحكام المطلقة لا ينبغى أن يضيع العالم وقته فى البحث فيها ، ولا ينبغى لها أن تكون من موضوعات العلم بأى حال .

ثانياً : جمهور المتحمسين للدين تحمساً أعمى يجعلهم يتوجسون خيفة من البحث العلمى ، ويرون فيه تهديداً خطيراً لعقائد الدين ، وزعزعة لمكانته فى القلوب ، ونيلاً من قداسته ومهابته .

أما الاعتراض الأول ، (اعتراض المتحمسين للنزعة التجريبية ، فقد أنكره « فلورنوا » ، واعتبره مجانباً للروح العلمية الأصيلة التى تتطلب من المرء ألا يتصدى لإنكار قضية أو إثباتها إلا بعد فحص تجريبى ، وألا يتجاوز فى أحكامه حدود التجربة التى لا تسمح لنا بإصدار أحكام تقويمية على أية ظاهرة طبيعية . ويرى أن فى القطع سلفا بأن الدين أوهام وترهات من ابتداع الخيال تجاوزا لحدود الدراسة العلمية ، طالما أن ذلك القطع لم يستند إلى تحقيق تجريبى . وهكذا نرى « فلورنوا» ينكر ذلك الاعتراض باسم الروح العلمية النزيهة التى لا يعنيها إنكار أو إثبات لهذه العقيدة أو تلك (١) .

أما عن الاعتراض الثانى (اعتراض المتدينين) ، فيعلق عليه « فلورنوا » بأن أساس الخوف على الدين من علم النفس أن هذا الأخير يهتم بالجانب البيولوجى

(1) Flournoy, Archives Psychologiques, p. 51.

من الدين مغفلاً الجانب اللاهوتى أو المتعالى transcendental ، ويرى أنه إن كانت الظواهر الدينية ظواهر بيولوجية (أى قائمة بحكم الطبيعة البشرية) فلن يكون القضاء عليها بسبب الدراسة العلمية لها ، كما أن العلم بقوانين الهضم لا يترتب عليه بأى حال استغناء عالم الفسيولوجيا عن عملية الهضم ،وإنما هو برغم دراسته لهذه العملية لايختلف — فى عملية الهضم —عمن يجهلها[١] . ولكن فلورنوا لا ينكر أن الغلو فى البحث السيكولوجى مع الاستبعاد التام للنظرة الفلسفية (التى من شأنها أن تخفف جفاف العلم ، وتقلل ضيق حدوده) كفيل بأن يؤثر فى حياة الباحث الدينية الخاصة ، مثل ذلك مثل الفسيولوجى الذى يغرق فى دراسة ظاهرة النوم حتى يفقد القابلية له ، أو الذى يبذل كل طاقته فى بحث وظائف المعدة حتى تختل عنده وظيفة الهضم .

ويضيف « فلورنوا » فى دفاعه عن براءة العلم من إضمار نية القضاء على الدين قوله إنه حتى لو فرضنا أن علم النفس يهدد الدين فلا يبرر ذلك أن يتوقف عن دراسته ، فليس ذلك شأنه وحده إذ أن العلوم الطبيعية من قبله والفلسفة منذ أمد بعيد ، كلاهما كان له نفس الأثر الذى تخشى أن يحدثه علم النفس فى الدين .

ويقول « كولفين » Colvin فى ذلك : « إن الدين من حيث هو شعور بتبعية مطلقة ، لا سبيل إلى التجاوز عنه أو استئصاله إلا على شريطة أن يزول كل غموض ، بأن يصير العقل كاملاً والمعرفة مطلقة ، وأن يتلاشى من الدنيا الألم والموت والخطيئة . »[٢]

ويخلص « فلورنوا » إلى أنه ما دام من المحتم على الإنسانية أن تبذل دون توقف قدراً من نشاطها فى عمل عقلى خالص إلى جانب ما تبذله من نشاط انفعالى ، فخير لها أن تبذل بعض هذا القدر فى الدراسة العلمية لظواهر الدين بدلاً من أن تبدده — كما كان الحال دائماً — فى نقاش لاهوتى أو جدل فلسفى . فكلاهما عمل عقيم لا يجدى .

---

(1) Flouroy, Archives Psychologiques,

(2) Ibid

ويرد « وليم چيمس » على نفس الاعتراض ، فيتهمه بالاستناد إلى خطإ منطقى جسيم ، هو الخلط بين ميدانين مختلفين تماماً من ميادين الحكم المنطقى ، أحدهما ميدان الأحكام الوجودية التى تقرر ما هو كائن فى الظاهرة من حالات وصفات ، وثانيهما ميدان الأحكام المعيارية (التقويمية) التى تعرض للظاهرة بالحكم على قيمتها . فدراستنا لظواهر الدين دراسةً وصفيةً تقريرية (أى الحكم عليها حكماً وجودياً) لا تستلزم ضرورة الحكم على قيمتها . فلو فهم إمرؤ ما من دراستنا لظاهرة دينية معينة أن فى هذه الدراسة غضاً من قيمة الظاهرة الدينية فالذنب ذنبه ، وحتى لو قررنا أن هذا العمل الرائع أو ذاك أنتجه رجل يعوزه الاتزان النفسى فليس يتضمن ذلك غضاً من روعة العمل بأى حال من الأحوال .

ويفسر « چيمس » ضيق بعض الناس بالبحث العلمى لمقدساتهم تفسيراً سيكولوچياً ، فيقول إننا بطبيعتنا إن تحمسنا لموضوع معين ، وارتبطنا به ارتباطاً عاطفياً ، لا نعود نستسيغ أن يعالجه العقل كما يعالج سائر الموضوعات التى لا يربطنا بها سبب عاطفى قريب . ذلك أن أول إجراء يتخذه العقل إزاء موضوع ما هو أن يسلكه فى عداد غيره من الموضوعات ، فى حين أن موضوعاً نحس أن أهميته لنا أهمية فائقة ، وأن صلتنا به صلة الولاء والحب والتقديس ، لا يسعنا إلا أن نراه فريداً أصيلا ، ونحكم عليه بأنه نسيج وحده .

ويضرب « چيمس » لذلك مثلاً من مملكة الحيوان ، مثلاً لا يخلو من سخرية طريفة ، فيقول : « ومن يدرى لعلَّ مما يثير حفيظة أبو جلمبو ، أن يفطن إلى أننا نسلكه فى عداد الحيوانات المفصلية crustacean دون استحياء ، ولعله لو سمعنا نقرر ذلك يصيح بنا ، إننى لست هكذا ، إننى أنا ، أنا فحسب »[1] .

وعليه فإن علم النفس عندما شرع يدرس الظواهر الدينية — على الرغم مما عاناه من ارتياب الجماهير — ترك منذ البداية حقيقة الدين للفلسفة أو للتقدير الشخصى لكل فرد . وإن العلم — فيما يرى « چيمس » و « فلورنوا » — هو

(1) W. James, Varieties of Religious Experience, p. 10.

على خلاف ما يظن أولئك المتحمسون تحمساً ساذجاً لحمى التفسيرات الفسيولوجية (كرد الظواهر النفسية فى النهاية إلى حركات فى ذرات المادة ، وكمحاولة التعبير عنها بالخطوط الرمزية والمعادلات الرياضية) ليس له شأن ، ولن يكون له شأن بالعلل البعيدة للظواهر . وإن ما يعنيه هو العلل المباشرة الطبيعية ، إذ هى وحدها يمكن أن تخضع للتحقيق العلمى ، وسيبقى سر الكون دائماً مغلقاً أمام العلم. وما يصدق على العلم بوجه عام، يصدق بدوره على علم النفس الدينى ، ذلك الذى لا مطمع له فى الكشف عن سر الدين ، وإنما كل مراده أن يخلع على ظواهره نظاماً يتفق والعقل الإنسانى ، أو كما يقول « ستارباك » :

« إن العلم لا يأتى فى الحقيقة بتفسير نهائى لأى شىء . . . وما غاية دراستنا أن نحل لغز ظواهر الدين ، بل أن نلم شعث قدر كاف منها فى انتظام حتى تروق وقائعه لأفهامنا » (١) .

ويخلص « فلورنوا » إلى نتيجة مماثلة كما يبدو من قوله :

« لنكن على يقين من أن علم النفس – أيا كانت درجة الكمال التى بلغها – سيبقى عاجزاً عن حل الألغاز المحيرة التى يلقيها الكون والحياة علينا ، ولن ينتهك فى يوم ما حق النفوس الدينية فى أن تصوغ – طبقاً لخبراتها وحاجاتها وعلى مسئوليتها الخاصة – عقائدها السامية بشأن القول الفصل فى الحقيقة والمصير . وإن من حق العلم بدوره أن يتناول – فى حدوده – أية ظاهرة من الظواهر بالبحث الموضوعى ، غير ملتزم سوى مسلماته وطرائقه الخاصة ، وأن ينظر إلى الظواهر الطبيعية جميعاً أيا كان مصدرها نظرة المساواة . » (٢)

وكان على علم النفس فضلا عن تبرير الدراسة السيكولوجية للدين ، أن يبذل جهداً مماثلا فى تحديد منهج العلم وتعيين حدوده ، وأن يسير فى حذر

(1) Archives, p. 53
(2) Archives, p. 53

متلمساً خطاه بين الفلسفة والعلم ، فلم تكن السبيل أمامه ، من ثمة — مُيسَّرة للإنتاج الصرف والاكتشاف المباشر . وذلك ما جعل البحوث فى موضوع الدين فضلا عن ضآلتها تسير على نحو متعثر مبعثر ، بحيث لا يحق لنا أن ندعى أنه كان ثمة فى ذلك الحين فرع لعلم النفس خاص بالظواهر الدينية .

وإن أهم كتب علم النفس العام لم تكن تشير إلى الدين إلا لماماً ، بل إن بعضها كان يغفل الإشارة إليه إغفالا تاماً . فهذا كتاب « بولدوين Baldwin » Handbook of Psychology (١) وكتاب « چيمس James » Principles of Psychology (٢) وكتاب « ستاوت Stout » A Manual of Psychology (٣) وكتاب « تتشنر Titchner » An Outline of Psychology (٤) ، جميع هذه الكتب التى قادت علم النفس فى نهاية القرن الماضى ومطالع القرن الحالى برغم أهميتها ، أغفلت الشعور الدينى حتى ليشك القارئ فى وجود شىء لدى الإنسان إسمه « ظواهر دينية » ؛ بل إن بعض البحوث التى تحمل اسم علم النفس كانت أدخل فى باب الفلسفة أو اللاهوت منها فى باب علم النفس من حيث هو علم موضوعى .

رأى وليم چيمس

وفى سنة ١٩٠١ — ١٩٠٢ ألقى « وليم چيمس » بجامعة « إدنبرة » عشرين محاضرة عن الدين الطبيعى ، تختص بناحية واحدة من الدين ، هى التكوين

---

(١) مجلدان ، لندن ١٨٩٠ — ١٨٩١ .
(٢) مجلدان ، ١٨٩٠ .
(٣) لندن ، ١٨٩٩ .
(٤) نيويورك ١٨٩٧ .

الدينى للفرد . وقد جمع هذه المحاضرات ونشرها كتاباً واحداً (١) عام ١٩٠٥ . وفى هذا الكتاب يبين « چيمس » أن بوسع العالم أن يدرس النزعات الدينية كما يدرس أية ظاهرة أخرى من الظواهر الداخلة ضمن تكوينه النفسى . ولكنه يكتفى بعرض هذه النزعات عرضاً وصفياً ، يعرض المشاعر والدوافع الدينية مقتصراً على « ما تمده به سجلات ذلك النفر الواعى من الكتّاب الذين كتبوا عن التقوى ، وأرّخوا سيرتهم الخاصة فى وضوح تام » . واستند فى بحثه كذلك إلى وثائق خلّفها أولئك الذين انغمسوا فى حياة دينية وكانوا أقدر من يقدم بياناً واعياً عن أفكارهم ودوافعهم ، أولئك إما قدامى حدثنا عنهم التاريخ وإما محدثون . ويقول چيمس « إن الوثائق التى نستند إليها لا يلزم أن تكون من ذلك الصنف المتصف بالتضلع فى العلم ، بل ما يهمنا ويفيدنا هى الوثائق العادية التى تصدر عن مشاعر طبيعية لا أثر فيها للصنعة » (٢)

يفرق چيمس بين الدين النظامى (الجمعى) Institutional وبين الدين الشخصى . فالأول يشمل أشكال العبادة والتضحية واللاهوت والطقوس والنظام الكهنوتى ، أو كما يقول : « والدين بهذا المعنى فن خارجى ، فن اكتساب حظوة الآلهة . أما الدين الشخصى فهو على العكس من ذلك ، النزعات الداخلية فى الفرد نفسه ، وعلى الرغم من أن حظوة الله هنا — سواء كسبها المرء أم فقدها — هى بمثابة سمة رئيسية ، وبالرغم من أن اللاهوت يلعب دوراً حيوياً فى الدين الشخصى ، فإن الأفعال التى تصدر عن ذلك الدين الشخصى أفعال شخصية لا طقوسية . الفرد هنا يؤدى الأعمال الدينية منفرداً ، ويهبط التنظيم الكهنوتى بأسراره المقدسة وسدنته إلى المرتبة الثانية . العلاقة هنا تصل قلباً بقلب دون واسطة ، علاقة بين روح وروح ، بين الإنسان وخالقه »(٣) .

(1) Varieties of Religious Experience,
(2) Varieties of Religious Experience, the introduction.
(3) Varieties of Religious Experience, Ch. 2.

يستبعد چيمس من علم النفس الدينى ظواهر الدين العام ، بل يقرر أن أهم جانبي الدين الجانب الشخصى ،لأن الكنائس (المنظّمات الدينية) تزاول من الدين ما انتقل إليها مع التقاليد المتوارثة ، أى أنها تزاول ديناً « مستعملا » (Second-hand) ؛ فى حين أن الدين الخالص التى هو الدين الذى عاشه مؤسسو الأديان جميعاً . أولئك الذين لم يقلدوا ، وأولئك الذين يدينون بقوتهم لاتحادهم الشخصى بما هو إلهى . ويستبعد كذلك الخوض فى الجدل الفلسفى بخصوص طبيعة الدين ، أو فى التعريفات المنطقية للدين . ولكن ذلك لم يمنعه — وما ينبغى أن يمنع علماء النفس — من تحديد مجال البحث ، الأمر الذى يتطلب الاتفاق على مفهوم مبدئى للدين. وهو يرى أن للدين مفهوماً مركباً وأوجها عدة لا يستوفيها تعريف — ويورد التعريف التالى بقصد تحديد مجال البحث فحسب ، وليس باعتباره المعنى النهائى الذى يطابق طبيعة الدين :

« الدين مشاعر وخبرات بنى الإنسان منفردين ، ما اعتبروا أنفسهم فى علاقة مع ما قد يرون أنه إلهى »[١] .

من ذلك التعريف يتبين أن « چيمس » لم يقصر الدين الشخصى على الإيمان بالأديان السماوية . وذلك ماحدا به إلى توضيح مقصده من كلمة « إلهى » (Divine) ، فيرى أن من التفكير ماهو دينى دون أن يفترض وجود إله شخصى : فالبوذية مذهب إلحادى (ولو أن بوذا فى نظر أتباعه بمثابة إله) ، وفلسفة « إمرسون » Emerson دين الله فيها مثل أعلى مجرد ، وبالمثل الفلسفة المثالية الحديثة . لا وجود فى هذه الأديان لذات إلهية معينة ، ذاتٍ مشخصة أسمى من البشر ؛ ولكن الله منبثٌ فى الأشياء ، أو هو تركيب روحى للعالم (القوانين المجردة التى قال عنها « إمرسون » إنها خارج الزمان والمكان ، وغير مرتهنة بظرف من الظروف .)[٢] فلتشاؤم « بوذا » أو تفاؤل « إمرسون » أثره فى نفس الفرد

(1) Varieties of Religious Experience, p. 31-32.
(2) Ibid. p. 32.

وصداه فى استجابته ، ويستحيل – فى نظر چيمس – أن نميز بين أثر هذه الفلسفة أو تلك فى نفس الفرد وبين أثر المسيحية فيه ، أو بين استجابات الفرد لها وبين استجاباته للمسيحية . وعلى ذلك الأساس ، حين يتحدث چيمس عن الدين من حيث هو رابطة بين الفرد وبين مايعتبره «إلهياً» Divine ، يجب أن نأخذ كلمة « إلهى » بمعناها الواسع الذى قصد إليه چيمس ، أى باعتبارها كلمة تدل على ما هو شبيه بالله ، سواء أكان ذاتاً إلهية محددة أو لم يكن كذلك .[١] وكل ما هو إلهى يتصور الناس أنه أسبق الأشياء وجوداً وأعظمها قدرة ، وأنه يحوى العالم ويحيط به ، وأنه الحق الذى لا مراء فيه . ومن ثمة فالدين موقف يتخذه الفرد – على أى نحو كان – مما يعتقد أنه الحقيقة الأولى الأزلية ، هو اتجاه نفسى عام يتخذه الإنسان حيال الوجود بالإجمال ؛ بيد أن هذا الموقف الشامل يختلف عن الاستجابات العارضة العادية ، فى كونه ينبع من إحساس بأن وراء العوالم المحسوسة مبدأ شاملا دائم الوجود .

ولا يلزم أن يكون ذلك المبدأ إلهيا أو عقيدة بعينها ، بل يكفى أن يكون شعوراً خفياً بأن ثمة شيئاً ما غير حياتنا هذه الفانية ، يبرر كفاحنا وبقاءنا ، فهذا الشعور كفيل بأن يبث فى نفس المرء روحاً لا تختلف من الناحية السيكولوچية عن الحمية الدينية . والروح الدينية بهذا المعنى العام تبدو فى موقف « ڤولتير » النفسى من الحياة ، ذلك الموقف الذى نتمثله فى جلاء فى خطاب كتبه فى سن الثالثة والسبعين إلى أحد أصدقائه :

« أما أنا وقد نال منى الضعف كل منال ، فسوف أواصل كفاحى إلى النهاية ، أتلقى مائة طعنة كى أردها مائتين ، ضاحكاً . أرى چنيڤ على مقربة من بابى وقد استعرت النيران فيها من أجل لا شىء ، ثم أضحك مرة أخرى . وأحمد الله إذ بوسعى أن أعتبر العالم أضحوكة ولو أضحى – شأنه أحياناً – مأساة . كل شىء بانتهاء اليوم ينجلى ، وينجلى كل شىء أكثر وأكثر بانتهاء الأيام جميعاً » .

---

(١) Varieties of Religious Experience, P. 34

والاتجاه النفسى العام الذى نعبر عنه بكلمة دين ، يتميز فى أذهان عامة الناس عن الاستجابات الأخرى بصفة الجد والعبوس وخطورة الشأن — إذ لا أثر فيه للأقوال الساخرة المازحة التى نصادفها لدى بعض الكتاب ، أو لعدم الاكتراث والاستخفاف ، أو للقيل والقال والنكتة اللاذعة . وإذا كان الاتجاه الدينى يتعارض مع روح السخرية الخفيفة ، فهو كذلك عدو لروح التزمت والتذمر . وإذا كانت روح المأساة تتجلى فى بعض الأديان ، فإلى جوارها يوجد طريق الخلاص ، وهذا ما يحدو المؤمن إلى ارتضاء المأساة دون تذمر أو شكاية . كل اتجاه دينى إذن مبرأ عن الاستخفاف والهزؤ والتذمر : فإن كان ابتهاجاً أو غبطة دينية فبدون ابتسام مغتصب أو محاولة كتم الضحك ، وإن كان حزناً فبدون صراخ أو عويل ؛ وإنما الخبرة الدينية غبطة كانت أو حزناً ، أو محبة أو بغضاً ، خبرة تنطوى على الجد والمهابة والحنو . وهنا نبلغ تعريف « جيمس » لما هو « إلهى » :

« هو الحقيقة الأولى ، التى يحس الفرد نفسه مدفوعاً إلى الاستجابة لها استجابة تتصف بالمهابة والجد ، دون أى تذمر أو استهزاء . »[1]

وقد انتقد جيمس علماء النفس وفلاسفة الأديان الذين يتحدثون عن « العاطفة الدينية » باعتبارها حقيقة نفسية ذات كيان مفرد ، ويحاولون تخصيصها — هذا يربطها بالشعور بالتبعية ، وذاك يعتبرها من مشتقات الخوف . وثالث يعتبرها الشعور باللامتناهى . ورابع يردها إلى الحياة الجنسية ... فكان له فضل كبير فى إثبات أن الدين فى حياة الفرد ليس غريزة قائمة بذاتها ، أو انفعالا خاصاً ، أو عاطفة بالذات تقوم إلى جانب غيرها من العواطف ، وإنما الدين كلمة تطلق على الانفعالات والعواطف العادية إذ تتبلور حول موضوعات الدين . فالحب الدينى ، والخوف الدينى ، والرهبة الدينية ، والطرب الدينى ، هذه جميعاً

(1) Varieties of Religious Experience, Ch. II.

انفعالات نفسية عادية ، بيد أن موضوعاتها موضوعات دينية . فالحب الدينى ليس إلا الحب العادى موجهاً إلى موضوع دينى هو الله ، أو كل ما يعتبره الشخص العادى أعلى من البشر ، والخوف الدينى ليس سوى الخوف الطبيعى بجميع مظاهره الخارجية ، وكل ما هنالك أن ما يثيره ليس موضوعاً طبيعياً كذلك الشخص الرهيب أو ذاك الحيوان المفترس . . . إنما يثيره العقاب الإلهى ؛ والرجفة الدينية لا تختلف فى شىء عن الرجفة العادية التى تعرونا إذ نضل الطريق فى غابة موحشة ، بيد أنها رجفة نتجت عن التفكير فى علاقتنا بما هو « إلهى ». وما يقال عن الانفعالات الدينية يقال كذلك عن الموضوع الدينى والفعل الدينى .

وقد برزت بدايات الفهم الدينامى للدين لدى چيمس حين نبه إلى انطواء الشعور الدينى على التناقض . فهو لم يقنع ببيان أنه شعور معقد تكوّن نتيجة التفاعل بين مختلف الانفعالات ، بل أوضح فضلا عن ذلك أنه مزيج من انفعالات متضاربة يزداد تضاربها عنفاً فى المستويات القصوى من الشعور الدينى ، أى لدى الصوفية والمتهوسين . ففى دين هؤلاء حب جارف طالما أنطقهم بأشعار الوجد والهيام التى لا تقل حرارة عن أشعار الحب والغرام ، فيه الأمن والرهبة ، فيه التشاؤم والحزن ، مع إحساس بالسعادة والاستسلام المريح .

• • •

لقد كان لوليم چيمس فضل كبير فى تحديد مجال علم نفس الظاهرات الدينية ، ولكننا نأخذ عليه أن قصر دراسته على الحياة الدينية لمؤسسى الأديان أو « عباقرة » الدين بوجه عام. فعلى الرغم لما لدراسته تلك من قيمة موضوعية ، فلو نظرنا إليها بمنظار العالم الذى يصبو إلى الكشف عن قوانين الحياة النفسية لوجدناها جد محدودة . فالعامة من المتدينين تنطوى نفوسهم على نفس الأصول التى نبعت منها الحياة الدينية لدى عباقرة الدين . فليست دراسة الحياة الدينية لدى عامة المتدينين أو لدى الأطفال بأقل أهمية للعلم من دراسة حياة

أولئك العباقرة . ولكن ينبغى ألا ننسى أن چيمس كان يخوض ميداناً لم يكن فيه مادة للتحليل العلمى غير مخلفات مؤسسى الأديان وسيرهم ، ومذكرات بعض مشاهير الدين . ولا يمكن أن ننسى لجيمس تحريره البحث فى الظواهر الدينية من الجدل الفلسفى ، وتحريمه التعرض لغير القيمة الموضوعية للدين ، وتجنبه الخوض فى مناقشة التعريفات ، الأمر الذى كان يسيء أبلغ إساءة للعلم الموضوعى ، إذ يعرقل جهوده ، ويعطل فتوحه بجدل ممضٍ لا طائل من ورائه .

فلورنوا وعلم النفس الدينى

نعود إلى التطور التاريخى للبحوث السيكولوچية فى الدين ، فنقول إنها حتى السنوات الأولى من القرن الحالى لم تبلغ من الكمية أو التنظيم أو الفراغ للبحث دون الجدل حداً يكفل لها التبلور فى فرع بذاته من فروع علم النفس ، حتى شرع الأستاذ « فلورنوا » سنة ١٩٠١ يحصى البحوث التى تمت فى الموضوع ، ويستخلص من نموها المناهج التى ينبغى اتباعها فى دراسة هذا النوع من الظواهر . وأطلق على هذا النوع من البحوث إسم « علم النفس الدينى » مشيراً بذلك إلى أنه كفء للاندماج فى علم النفس العام كفرع من فروعه . ولم يكن يقصد من تلك التسمية أنه يتضمن أية صفة دينية ، أو أية صفة مضادة للدين ، إنما أراد بها تعبيراً موجزاً عن الدراسة السيكولوچية للظواهر الدينية عند الفرد . هذا وقد ضمّن فلورنوا دروسه عن علم النفس التجريبى بكلية العلوم (١٩٠١ — ١٩٠٢) بجامعة چنيف أربع عشرة محاضرة عن علم النفس الدينى . وذلك أمر له مغزاه ، إذ يدل على المنهج الذى استخدمه فى بحوثه ، ذلك المنهج الذى لم يشأ أن يضع خطوطه سلفاً ، بل مضى مع السير الطبيعى للأمور ،

وآثر أن يستخلصه من تطور الدراسات نفسها فى الموضوع ، مستلهماً طبيعة علم النفس ذاته من حيث هو علم موضوعى مقرراً بذلك مبدأ منهجياً سليما ، هو أن المبادئ الموجهة فى أى علم من العلوم ، ينبغى أن تُشتَق من المادة العلمية القائمة ، فذلك خير من أن نضعها سلفاً على نحو تجريدى دون سند من الواقع .[١]

أما المبادئ التى اشتقها من البحوث السالفة فهى :

أولا : مبدأ استبعاد البحث فى المتعالى

إن البحوث التى تعتبر بحق بحوثا سيكولوچية ، تغفل إغفالا مطلقاً مسألة القيمة الموضوعية للدين ، أى لا شأن لها بالتساؤل إن كانت الخبرات الدينية تقابلها موضوعات خارجية ذات وجود فعلى ، أم أنها مجرد حالات نفسية لا يقابلها وجود موضوعى ؛ إنما مهمة تلك البحوث السيكولوچية مقصورة على تحليل حالات النفس الدينية المباشرة التى يحياها الفرد أو تحياها الجاعة . وذلك المبدأ يطلق عليه مبدأ استبعاد التعالى (Principe d'Exclusion de la Transcendance). على أن هذا الاستبعاد لا يتضمن إنكاراً للوجود المتعالى ، بل يتضمن أن الوجود المتعالى من حيث هو كذلك يتجاوز حدود العلم ولا تبلغه وسائله الخاصة ، أى أن الاستبعاد إجراء منهجى فحسب .

هذا المبدأ يقره — عملا — كل من بحث فى الدين من علماء النفس ، سواء من جاء منهم قبل «فلورنوا» (أمثال «لوبا» و«چيمس» ، و «ستاربال») ، أم بعده (مثل «ثاولس» Thouless أو «بوڤيه» Bovet) . لقد كان هدف جميع هؤلاء مقصوراً على الوقوف على طبيعة الظواهر النفسية الدينية ، وتفسيرها تفسيراً طبيعياً بمقتضى

(1) Les Principes de la Psychologie Religieuse, M. Th. Flournoy, Archives de Psychologie, Tome II, p. 33. 1903,.

العلل والمعلولات الداخلية . ويتضمن المبدأ الإعراض عن الخوض فى التعريف . يقول « فلورنوا » إنه يكفى أن يعرف القراء المقصود من الدين ، وهو « جماع حالات انفعالية وعواطف ورغبات لها أصالتها الخاصة » .

ثانياً : مبدأ الدراسة التكوينية

علم النفس الدينى يدرس الظواهر الدينية على نحو تكوينى (تطورى) . وإن تطبيق هذا المبدأ ليعتبر خطوة متقدمة فى دراسة الظواهر الدينية . وقد حاول بعض علماء النفس — فى حدود المادة المتجمعة لديهم — أن يدرسوا الحياة الدينية من حيث تطورها ، ومن حيث توقفها على جميع العوامل الداخلية والخارجية .

ثالثاً : مبدأ المقارنة

أعنى أن يشمل البحث استقصاء أكبر عدد ممكن من الأفراد من مختلف البيئات والظروف ، وتلمس أوجه الشبه ونواحى الاختلاف فى خبراتهم . وقد أشار « ستارباك » فى بحوثه إلى وجود نمو دينى مع اهتداء conversion ، وآخر لا اهتداء فيه . وعلى الرغم من وجود النوعين فى البيئة نفسها ، أو فى بيئتين متماثلتين ، فقد يؤديان إلى النتيجة عينها ، أعنى إلى حياة مسيحية مفعمة بالثمرات الداخلية والخارجية . ونحن نرى « وليم چيمس » فى دراسته للاهتداء يجمع بين القديس « أوغسطين » و « الإمام الغزالى » ، ويعرض لاهتداء « تولستوى » واهتداء القديسة « تريزا » ، ويحلل مزاج البوذى ومزاج الأبيقوري ، ويتناول المزاج الدينى السوى والمزاج الدينى المرضى ، محاولا قدر الطاقة الإلمام بأكبر عدد ممكن من الأمثلة التى تكشف عن تنوع الخبرات الدينية وتباين أشكال الشعور الدينى .

رابعاً : مبدأ الدراسة الدينامية

لا يكتفى علم النفس الدينى بوصف مضمون العاطفة الدينية باعتبار أنه شىء واحد ساكن لا يعتريه تغير ، إنما يتعين عليه أن يدرس الدين الفردى على اعتبار أنه عملية فى غاية التعقيد ، عملية دائبة التحول ، وتتداخل فيها عوامل عدة متنافرة ، وتنطوى على تفاعل قوى حية تحتية . وقد حاول « لوبا » اتباع هذا المبدأ فى بحوثه ، وفى دراسته للاهتداء يبين الأطوار التى يمر بها (طور الصراع والاضطراب ، طور الأزمة المركزية والتحول الحاسم ، عواقب الأزمة الدائمة أو المؤقتة . . .). ويتضح المبدأ أكثر من ذلك فى محاولة « ستاربالك » عرض النمو الدينى فى حياة الفرد ، وربطه بالنمو العام لجميع الوظائف السيكولوچية والفسيولوچية ، والكشف عن القوى والميول الحيوية التى تؤثر فى عملية النمو الدينى .

تلك هى المبادئ التى يرى « فلورنوا » ضرورة تطبيقها فى دراسة الظواهر الدينية لدى الفرد ، إن أردنا لدراستنا تلك أن تكون سيكولوچية بحق . وجميع هذه المبادئ يمكن أن تندمج فى مبدإ واحد ، هو تفسير الظواهر الدينية تفسيراً طبيعياً (أعنى اعتبار الدين وظيفة حيوية) ، وتحديد أطوار نموه وأنماطه تبيرة تبعاً لتغير الظروف والأحوال ، وتسجيل ما يطرأ عليه من تعديلات ، سوية كانت أو مرضية ، واستكناه آثاره فى الوظائف الأخرى ، وأهميته فى حياة الفرد من حيث هو كائن حى وشخصية نفسية معاً .

وإذا كان « فلورنوا » قد استخلص تلك المبادئ من دراسات السابقين عليه ، فليس معنى ذلك أنهم جميعاً قد التزموها التزاماً دقيقاً ، وإنما كانت بمثابة القواعد التى اهتدوا بها — صراحة أو ضمناً — فى محاولتهم السير بسيكولوچيا الدين فى طريق الموضوعية العلمية . فمن الطبيعى أن نجد بعض الباحثين ، فى

ميدان بكر هذا شأنه ، يحيد عن هذه القاعدة أو تلك فيتورط فى جدل فلسفى مثلا أو يتعرض لقيمة الدين ، أو يندفع إلى تعميمات معينة مغفلا هذا الشرط أو ذاك من شروط الاستقراء العلمى، وهكذا . . . وليس معنى صياغة « فلورنوا » هذه المبادئ الأربعة أنه يدعى وجود علم نفس قائم بذاته هو « علم النفس الدينى » ، وإنما قصارى مقصوده أن يجد للظواهر الدينية مكاناً فى مجال علم النفس العام، وأن يبرز الاتجاهات المنهجية المنبثة فى بحوث السابقين، أن يبلورها فى مبادئ محددة تتيح للباحثين أن يتبينوا طريقهم على نحو أوضح أسلم من ذى قبل .

مناقشات مؤتمر جنيف سنة ١٩٠٩

وما جاء عام ١٩٠٩ ، حين انعقد فى جنيف المؤتمر الدولى السادس لعلم النفس [١] حتى كان ثمة تراث واضح فى علم نفس الدين . وقد أجمع المؤتمرون على أن الدراسة السيكولوجية للظواهر الدينية عمل مشروع ، بل أمر واجب؛ وعلى أن ذلك لا ينال من هيبة الدين وجلاله ، من حيث إن أية ظاهرة لا تفقد مالها من قيمة من جراء بحثها بحثاً علمياً ؛ واتفق المؤتمرون كذلك على وضع الخطوط العامة لحدود سيكولوجيا الدين ومناهج البحث فيه.

وبوسعنا أن نقرر أن هذا المؤتمر كان بمثابة نقطة تطور حاسمة فى علم نفس الظواهر الدينية الفردية ، فهو علامة تاريخية على أن دور الجدل فى نشأة ذلك الفرع الجديد قد انتهى ، وأن دور المقدمات الفلسفية ومناقشة المبادئ المنهجية قد كاد يبلغ نهايته ، ولم يبق غير تصحيح أخطاء المحاولات الأولى، والإفادة منها فى التقدم إلى نتائج أكثر إيجابية وتحديداً . ولكنا نجد حتى هذه

(1) Rapports et Communications, Geneva, 1910, ed. E. Claparède, Tome IV (International Congress of Psychol., Generva, 1909).

السنة ١٩٠٩ (بل بعد ذلك بأمد غير قصير) ، أن أغلب البحوث فى الدين تنصب إما على الظاهرات الدينية الاجتماعية لدى الشعوب (البدائية على وجه الخصوص) ، وإما على العرض الوصفى للظاهرات الدينية لدى الفرد كما هو الحال فى محاضرات چيمس وغيرها من كتب تعرض لظواهر نفسية شائعة لدى الكبار الناضجين ، بل لدى فئة خاصة من أبطال الدين ، من أنبياء وقديسين وقساوسة ، أو من الشواذ المتنسكين والمتهوسين .

وإن معظم البحوث وإن كانت تلتزم قواعد البحث العلمى فقد كانت تبدأ من نقطة لا تكفل تحقيق الغاية النهائية للعلم ، أعنى التفسير والقانون — فهى تتحدث عن أمور عامة هى أحرى أن تكون عناوين فى كتب اللاهوت (وإن كانت تدرسها من وجهة نظر غير لاهوتية) ، كالخلاص ، والوحى ، ومشاهدة الله عياناً ، والاتحاد بالربوبية ، والحب الإلهى ، الخ ... تبدأ بموضوعات مفهومة سلفاً ثم تفتش عنها فى الأفراد . حقاً لقد كانت تلك البحوث تورد أحياناً أمثلة من أشخاص تبدت فيهم هذه الظواهر (وذلك ما فعله چيمس) ، بيد أنها كانت تبدأ من المفهومات الشائعة لهذه الظواهر ثم تبحث عمن يمثلها من أشخاص فتدرسه ، أى كانت تبدأ بالعموميات وتنتهى منها إلى الأمثلة الفردية ، فى حين أن البحث العلمى السليم يحتم علينا أن نسير فى الاتجاه العكسى فنتخذ الفرد الحى نقطة للبداية ، ونتقصى لديه ولدى غيره أطوار النمو الدينى .

ولم يكن ذلك شأن علم نفس الظواهر الدينية وحده ، بل كان شأن علم النفس برمته الذى كان لا يزال فى مرحلة بدائية من تطوره — كان مجرد علم نفس عام يكلف بالصفات والخصائص العامة التى يشترك فيها أوساط الناس أكثر من كلفه بالصفات والخصائص المتحققة فى الأفراد وما بينهم من الفروق الفردية . وكان طابع العرض الوصفى غالباً على العرض التفسيرى ، والفهم المستعرض أبرز من الفهم الطولى (التكوينى) . ولم يكن علم النفس قد بلغ بعد إلى الأعماق اللاشعورية وما يكمن فيها من أسرار السلوك السوى والشاذ على حد سواء ، وكان يفتش

فحسب على قوانين الحياة الشعورية . ومن هنا كان حتما على علم نفس الدين أن يبقى أمداً علماً ستاتياً لا ديناميا ، — فلم تسفر البحوث السالفة الذكر عن فهم نشأة الدين فى حياة الفرد ، أو عن معرفة أطوار نمو فكرة الله فى الطفولة والمراهقة ، أو عن اكتشاف العلاقات الدينامية بين أفكار الله ، والخلق ، والميلاد ، والموت ، وعقائد الحياة الأخرى ، والخلود ، إلخ . . .

بوفيه وعلم نفس الطفل

فى مطالع هذا القرن ، طرأ على علم النفس تطور هام — فلم يعد يقصر اهتمامه على استخلاص القوانين النفسية العامة للظواهر النفسية المشتركة لدى الكبار الأسوياء من الناس ، وبدأ يهتم بنشأة هذه الظواهر وتطورها لدى الأفراد . فى سياق هذا التطور (الذى تمخض عن نشأة علم نفس الطفل) بدأ المهتمون بدراسة الظواهر الدينية يبحثون فى نشأتها وفى تطورها عند الأطفال . ففى سنة ١٩١٨ اقترح بعض طلبة معهد « جان جاك روسو » على مدير المعهد ، الأستاذ «بوفيه» Bovet ، أن يدرس لهم من وجهتى النظر السيكولوجية والتربوية الذكريات التى تخلفت عن تربيتهم الدينية الأولى . فكان أن عكف الأستاذ « بوفيه » على الوثائق الواقعية التى تجمعت لديه ، وخرج منها بدروس نشرها كتاباً هو ، « العاطفة الدينية وعلم نفس الطفل » (١) .

لاحظ « بوفيه » أن الخبرات الدينية ، سواء فى تاريخ الشعوب أو فى حياة الأفراد ، تنطوى على تنوع كبير ، حتى ليهيأ لنا أن ما ندعوه « ديناً » إنما يُستقى من مصادر عدة جد متمايزة ، وأن الله نفسه ذو وظائف متعددة ، فشرع يلتمس تلك الخبرات المتنوعة فى الوثائق الخاصة بالسن الباكرة وجمعها تحت الأقسام الآتية :

(1) Pierre Bovet, le Sentiment Religieux et la psychologie de l'Enfant.

١ ــ الطفل والطبيعة أو « الشعور الكونى » cosmic ــ ويتضمن خبرة وحدة الوجود ، وفكرة الله الكل أو المطلق .

٢ ــ الطفل وأصول الأشياء ــ ويتصمن المشكلات العقلية ، وفكرة الخالق، والطفل فى مواجهة سائر الكائنات ، وفكرة الله باعتباره « الصديق الأعلى » .

٣ ــ الطفل وغاية الأشياء ــ الطفل وغاية الحياة ، الطفل وفكرة « الله من حيث هو مثل أعلى » .

٤ ــ الطفل والوعى الأخلاقى ــ الإحساس بالإثم ، الاهتداء ، وفكرة « الله القاضى » .

٥ ــ الطفل والتقاليد الدينية .

وقد استخلص بوڤيه من دراسته يقيناً بأن « دين الطفل لا يختلف عن دين الراشد [١] ــ فالتعدد والتنوع فى خبرات الراشد نلقاهما كذلك لدى الطفل، على عكس ما كنا نعرف من علم النفس الذى لم يكلَّف بالطفل إلا منذ عهد قريب» . بل يمعن بوڤيه فيقول : « إننا قد نجد لدى الأطفال ما وجدناه لدى بعض الكبار من خبرات نادرة ، كالإحساس بالسامى أمام عظمة مشاهد الطبيعة ، وكالحدس الصوفى بوجود خيِّر غير مرئى ، والاعتقاد فى الخطيئة ، وإن بعض تلك الخبرات هى وقائع أصيلة لا يلعب فيها تقليد البيئة أى دور »[٢] .

(1) Ibid. p.6.
(2) Ibid. p. 14.

رأى « ثاولس » Thouless

وفى سنة ١٩٢٢ بعث « ثاولس » من جديد بحث الأسس المنهجية والفلسفية لعلم النفس الدينى ، ونشر كتاباً[١] يبرر فيه تناول الدين بالدراسة السيكولوچية . ويرد فى هذا الكتاب على أولئك الذين يحرمون أى بحث فى الدين خوفاً على الإيمان الدينى ، فينفى أن بوسع أى تحليل علمى للدين أن يثبت — بوسائله الخاصة — أن الدين خرافة نسجها العقل الإنسانى مادام أن الدين ليس كذلك ، ويقرر أن بوسع التحليل العلمى — على العكس من ذلك — أن يكون سنداً حقاً للدين . ذلك أن قيمة العلم الحقة هى فى تحررنا — أثناء البحث — من معتقداتنا وأحكامنا الخاصة . فإن قُدِّر لعلم النفس أن يصل فى دراسته للظواهر النفسية الدينية إلى ما يؤيد الدين ، كان سنداً علمياً حقاً ، فى حين أننا لو قصرنا بحثنا على الشواهد التى نعرف سلفاً أنها تؤيد الدين ، وأغفلنا ما عداها ، فلن تكون لنتائج البحث أية قيمة علمية ، ومن ثمة لن تصلح كى تكون سنداً للدين من حيث قصدنا أن تكون كذلك . فإن كان يمكن لبحثٍ أن يؤيد الدين ، فلن يكون ذلك غير البحث الذى ينهج نهجاً علمياً سليماً . ويهاجم « ثاولس » الكتّاب الذين دأبوا على الطعن فى البحوث العلمية فى الظواهر الدينية قائلا ، إن من حقهم أن يمتنعوا عن تلك البحوث ، ولهم الخيرة إن وقع فى أيديهم كتاب ينحو ذلك المنحى فى أن يطوونه ، ولكن ليس من حقهم أن يمنعوا غيرهم من مزاولة حق مشروع ، أعنى حق دراسة ظواهر الدين دراسة علمية ، أو حق الاطلاع على نتائج دراساتٍ هذا شأنها [٢] .

أما أن القول بأن الدراسة السيكولوچية للدين كفيلة بإزالة الإيمان الدينى

(1) Thouless, An Introduction to the Psychol. of Religion, 1936

(2) Ibid.

فهو – فى رأى « ثاولس » – غلو ومبالغة . وحجته فى ذلك أن عالم النفس إذ يصف ما يعتقد أنه يجرى طبقاً لقانون نفسى ، فهو لا يستبعد من الحسبان إمكان تفسيره فى نهاية الأمر تفسيراً دينياً . مثال ذلك أنه لو كان عالم النفس يتناول ظاهرة « الاهتداء » بالتفسير الطبيعى ، فلا يتضمن ذلك أنه ينكر إمكان تفسير الاهتداء بأنه نتيجة وحى هبط إلى النفس من الله ، وكل ما هنالك أن علم النفس لا شأن له بذلك التفسير العقائدى .

ويعرض « ثاولس » لتعريف الدين فيتخذ من التعريفات الثمانية والأربعين التى جمعها « لوبا » ثلاثة تعريفات يرى كلا منها متضمناً لجانب من جوانب الدين الفردى – أولها تعريف « فريزر » Frazer : « أفهم من الدين أنه استرضاء أو كسب قوى أسمى من الإنسان ، قوى يعتقد المرء أنها توجِّه وتضبط مجرى الطبيعة والحياة الإنسانية » ؛ وثانيها تعريف «مارتنو» James Martineau : « الدين هو الإيمان بإله يعيش أبداً ، أى بعقل وإرادة إلهيين ، يحكمان الكون ويقوِّمان العلاقات الأخلاقية بين البشر » ؛ والتعريف الثالث أورده الدكتور « متجارت » Mettagart : « الدين حالة من حالات النفس . . . يبدو لى أن أحسن وصف لها هو أنها إنفعال يقوم على الإيمان بالانسجام بين أنفسنا وبين الكون عموماً . »

يرى « ثاولس » هذه التعريفات الثلاثة فى ضوء علم النفس العام حين كان الشعور يقسم إلى إدراك ووجدان ونزوع . وهو يتخيرها لالشىء إلا لأنها تمثل معاً هذه الجوانب الثلاثة : فالأول يصف أسلوباً سلوكياً ، والثانى عقيدة أو رأياً عقلياً ، والثالث جهازاً من المشاعر والانفعالات . ويلح على وجوب تضمن أى تعريف للدين لهذه الجوانب مجتمعة ، ويرى أن أنسب تعريف للدين هو أنه « علاقة عملية يشعر بها المرء نحو من يعتقد أنه كائن أو كائنات أسمى من البشر »[1] .

---

(1) Thouless, An Introduction to the Psychology of Religion, pp. 8-9.

وإن تقيُّد « ثاولس » بالمسلَّمات التقليدية لعم النفس العام ، وعودته إلى الجدل الفلسفى فى منهج علم النفس الدينى ، وإثارته مشكلة التعريفات ، كل ذلك يبين لنا أن دراسته كانت أقرب إلى العرض التاريخى للبحوث السابقة منها إلى الكشف الجديد أو حتى إلى فتح أبواب لم تفتح من قبل .

رأى « دى سانكتس »

على أن أستاذ علم النفس بجامعة روما يجمع بين القديم والحديث ، فيلخص البحوث والمناقشات السابقة . ولكنه يتخذ كل ذلك نقطة لبدء بحث جديد — بالنسبة لزمنه (سنة ١٩٢٧) — فى ظاهرة واحدة من ظواهر الدين الفردى ، هى ظاهرة « الاهتداء »[١] . وذلك موضوع قديم لا يخلو منه أى كتاب من الكتب القديمة فى علم النفس الدينى . ولكن المؤلف يلتزم التزاماً دقيقاً المبادىء التى وضعها الأستاذ « فلورنوا »، فلا يتعرض للاهتداء الجماعى ، اهتداء شعوب بأسرها لدينٍ ما زرافات ، لأن ذلك ظاهرة اجتماعية ذات أصول معقدة ليس بوسع علم النفس استقصاؤها وحده ، ولا يتعرض لاهتداء المبرِّزين من مؤسسى الأديان أو أبطاله وقديسيه ، فيعالج بذلك نقص البحث الذى قدمه لنا « چيمس » فى مطلع ذلك القرن . وإنما يجعل أساس بحثه تحليلا لحالات أشخاص مروا بتجربة الاهتداء وكان على صلة شخصية بهم ، وهم أربعة أشخاص : أولهم شاب أنجليكانى ، والثانى والثالث ملحدان أو عقليان rationalists ، والحالة الرابعة سيدة يهودية اعتنقت الكاثوليكية . وقد كان تحليله لهذه الحالات تحليلا تكوينياً ديناميًا .

كان « سانكتس » — برغم تناوله موضوعاً قديما — مجدداً بحق ، بل مهاجماً أيضاً

(1) Sante De Sanctis, Religious Conversion, translated by Helen Augur, London, 1927.

للنظريات التقليدية التى لاتستند إلى أساس تجريبى . فقد هاجم ، مثلا ، المدرسة التى تفسر كل ظاهرة دينية بردها إلى ملكة نفسية تستحدثها ، والتى عندما عرضت للشعور الدينى لم تتوان عن افتراض وجود ملكة جديدة أطلقت عليها اسما دينياً هو « الشعور المتعالى » ، واتهمها بالعجز عن تفسير أية ظاهرة وبابتداع ملكات ليست غير أسماء أخرى لنفس الظواهر التى يراد تفسيرها .

ويقرر الأستاذ إن علم نفس الدين إنما هو محاولة لفهم السلوك الدينى فى ضوء العمليات النفسية التى ألفناها فى علم النفس العام . أى أنه يفترض سلفاً أن نفس الإنسان تعمل فى الدين على نحو ما تعمل فى سائر نواحى النشاط النفسى الأخرى ، وأنه مهما يكن الأصل الأول للحالات النفسية الدينية فهى حالات تدور فى نفس الفرد — ومن ثمة — فهى خاضعة للقوانين النفسية العادية ، وليس ما يمنع من تناولها بالبحث طبقاً لمناهج علم النفس العام .

نظريات مدرسة التحليل النفسى

تمتاز مدرسة التحليل النفسى باصطناعها منذ البداية منهجاً تكوينياً ديناميا ، وبتعمقها فى الحياة النفسية إلى ما تحت المستوى الشعورى . وبفضل ذلك الاتجاه قدّر لها أن تكتشف مجاهل ما كان لعلم النفس بمناهجه التقليدية أن يكتشفها . ولذلك كان للنتائج السيكولوجية التى توصل إليها التحليل النفسى فائدة كبرى فى معرفة أصول الدين عند الفرد ، حتى أن رجال التحليل النفسى لم تلبث بحوثهم أن امتدت وتوسعت حتى اشتملت الدين والأساطير والفنون . على أنهم — شأن كثيرين ممن درسوا الظواهر النفسية الدينية — لم يبدأوا بدراسة تطور الدين لدى الفرد السوى ، بل بدأوا بحالات التطرف فى النشاط

الدينى . قام « برجر » Berguer — مثلا — بتحليل نفسى لشخصية المسيح ، أما « موريل » Morel فقد فعل نفس الشىء ببعض متصوفة المسيحية ، وقد اكتشف أن الحقيقة النفسية الأساسية التى تفسر مختلف ظواهر التصوف هى عملية « الإساغة » introjection، التى تعتبر بمثابة الخطوة الأولى فى نشأة الأعراض الصوفية .

وقد استعان كل من « رايك» Reik و « رانك » Rank بالوثائق التاريخية، وقاما ببحوث فى علم الأجناس توسلا فيها بمنهج التحليل النفسى إلى اكتشاف الأساس النفسى لأصول الأديان . ومن أهم بحوث « رايك » كتاب « مشكلة سيكولوچيا الدين »(١) الذى قدم له « فرويد » Freud نفسه . ويرى « فرويد » فى هذه المقدمة أن « الأنا » ego عاجز عن استئصال (أو إعدام) القوى النفسية المعارضة لما اكتسبه من أفكار ثقافية ، وإنما يعمد إلى تنحيتها جانباً (مادامت تشذ عن وحدته النفسية ولا تندمج فيها أو تنسجم معها) . ومن ثمة فإن الأنا يترك هذه القوى وما يتصل بها من تصورات فى المستوى البدائى ، ويتخذ الأهبة لحماية نفسه من هجماتها، باذلا فى ذلك أنشط الجهود النفسية دفاعية وهجومية، وإلا فإنه يحاول أن يكيف نفسه لهذه القوى ، فينجم عن ذلك تولد الأحلام أو نشأة العصاب .

الدين وعقدة أوديب :

كان اهتمام « فرويد » منصباً فى أغلبه على الظواهر الدينية الاجتماعية . ففى « الطوطم والتابو » Totem and Taboo عقد مقارنات بين تصرفات

(1) Reik, Probleme der Religionspsychologie, Leipzig, 1919.

العصابيين وبين منتَجات الشعوب البدائية، فتجلت له وثاقة الصلة بين عقدة أوديب وبين الدين بمختلف طقوسه.

وقد لاحظ أن الاتصال بالمحارم أبرز لدى الأجناس البدائية منه لدى المتمدينة، وأن ذلك قد حدا بالبدائيين إلى اتخاذ إجراءات خاصة تقيهم الوقوع فى خطيئة الاتصال الجنسى بالمحارم. ثم فحص «فرويد» الصلة بين نواهى «التابو» (أقدم صورة للالتزامات الأخلاقية) وبين «الازدواج العاطفى» ambivalence، فاكتشف فى التصور البدائى للكون، ذلك الذى ينسب الإرادة والحياة للجمادات، مبدأ عقلياً يخضع له التفكير البدائى، ذلك هو مبدأ «قدرة الأفكار المطلقة» omnipotence of thought، أى الاعتقاد بأن فى الفكرة أو الرغبة من القوة الذاتية ما يكفل تحقيقها، وذلك المبدأ هو أساس السحر.

ولكن أكثر ما اجتذب انتباه «فرويد» هو «الطوطمية»، أول أساليب التنظيم الاجتماعى فى الحياة البدائية، وقد تبين له أنها ظاهرة اجتماعية اتحدت فيها بدايات النظام الاجتماعى بدين ساذج يسيطر فيه عدد ضئيل من نواهى التابو سيطرة صارمة. والكائن المقدس فى ذلك النظام هو دائماً حيوان، تدّعى القبيلة أنها انحدرت منه. وقد لاحظ أن أهم أمرين حرّمتهما الطوطمية (أى قتل الطوطم أو الاتصال الجنسى بأية امرأة من نفس عشيرة الطوطم) يتصلان بعنصرىْ عقدة أوديب (رغبة قتل الأب، واتخاذ الأم زوجة)؛ ومن هنا كانت نظريته فى أن الطوطمية (ذلك الشكل البدائى للدين) إنما هى إجراء دفاعى ضد الدوافع الجنسية والعدوانية التى تتضمنها عقدة أوديب، وبخاصة أن الشعوب البدائية ذاتها تفعل ذلك صراحة فتقدس الطوطم بوصفه الأب الأول للعشيرة وأن تحليل مخاوف الأطفال من الحيوانات تبين أن الحيوان بديل من الأب، بديل حُوِّل إليه الخوف من الأب، ذلك الخوف الذى تتضمنه عقدة أوديب. ومما أكد لدى «فرويد» صلة الطوطمية بعقدة أوديب «وليمة الطوطم»، وهى جزء رئيسى فى الديانة الطوطمية. ذلك أن الحيوان الطوطم الذى تقدسه القبيلة يُقتَل مرة فى

كل عام فى احتفال ذى مراسم خاصة ، يشهده جميع أعضاء العشيرة ، وبعد قتله يلتهمون لحمه، ثم ينوحون عليه ، ويعقب النواح احتفال كبير .

وقد خطر لفرويد بعد تأمله تلك العناصر السالفة ، فضلا عن نظرية دارون القائلة بأن الناس عاشوا زمناً قبائل متفرقة كل منها تحت سيطرة رجل واحد قوى عنيف غيور ، خطر له الفرض التالى — حيث إن أب القبيلة الأولى كان طاغية لاحدّ لسلطانه ، فقد استولى لنفسه على جميع النساء ، وحيث إن أولاده كانوا منافسين وخطراً عليه ، فقد قتلهم أو نفاهم كى يخلو له الجو . بيد أن الأبناء تجمعوا ذات يوم وائتمروا على أبيهم فاغتالوه ثم افترسوه ، اغتالوا أباهم الذى كان فى نظرهم عدوا ومثلا أعلى فى وقت واحد ، وبعد أن تم لهم ما أرادوا دب بينهم الخلاف، فعجزوا عن الاضطلاع بما ورثوا . ولكنهم استطاعوا تحت تأثير الإخفاق والندم أن يصلحوا ذات بينهم ، وينتظموا فى قبيلة من الإخوة ملتزمين قوانين تضمن لهم التماسك والتعاون ، تلك هى قوانين الطوطمية التى تهدف إلى تجنب تكرر فعلة القتل بسبب النساء ، وأجمعوا أمرهم على تحريم تملك النساء اللائى من أجلهن اغتيل الأب (تحريم الزواج من نساء العشيرة) ولهم بعدئذ أن يلتمسوا نساء غريبات ، وذلك هو الأصل فى الزواج الخارجى exogamy فى الديانة الطوطمية .

أما وليمة الطوطم ، فما هى غير إحياء لذكرى الفعلة الرهيبة التى نبع منها شعور الإنسان بالذنب « أو الخطيئة الأولى » ، وكانت مبدأ التنظيم الاجتماعى ، والديانة ، والالتزامات الأخلاقية فى آن واحد (١) .

فرويد إذن بهذه النظرية إنما يُدخل نشأة الدين ضمن عقدة الأب ، ويقيم الشعور الدينى على أساس الازدواج العاطفى الذى تتميز به تلك العقدة .

ولكن مع التطور لم يعد الحيوان الطوطم يقوم مقام الأب الأول ، فأصبح

---

(١) فرويد — سياق والتحليل النفسى ، الفصل السادس ، الترجمة العربية للدكتور عبد المنعم المليجى . (تحت الطبع)

ذلك الأب (الذى هو موضع الخوف والبغض والتقديس والغيرة فى آن واحد) نموذجاً للإله ذاته . وقام فى نفس الابن صراع بين التمرد على أبيه وبين محبته له خلال محاولات متتالية للتوفيق بينهما ، بغية التكفير عن فعلة اغتيال الأب من ناحية ، وتثبيت ما أنتجت من منافع من ناحية أخرى . وقد رأى فرويد وأتباعه أن هذه النظرة لنشأة الديانة تلقى ضوءاً قوياً على الأساس السيكولوجى للديانة المسيحية التى لا تزال « وليمة الطوطم » توجد فيها مع شىء من التحريف فى فكرة « التناول » . .

وقد واصل « تيودور رانك » و« روهيم » البحث فى ذلك الاتجاه، وقاما فى سلسلة من المؤلفات الهامة بتنميته وتوسيعه أو تصحيحه، وأمعن فرويد بعد ذلك فى بيان الصلة بين الإحساس اللاشعورى بالذنب (الذى يلعب دوراً هاماً فى العصاب مع دوافع أخرى غيره) ، وأسفرت تلك البحوث عن توثيق الصلة بين علم النفس الاجتماعى وعلم نفس الفرد[1] .

الدين والعُصاب :

لاحظ فرويد تشابهاً بيناً بين أفعال الوسوسة وبين الطقوس والشعائر الدينية . فالعصابى المصاب بالوسوسة مدفوع قسراً إلى تكرار سلسلة من الأفعال أو الكلمات التى لا قيمة لها ، برغم أنه ينكر بمنطقه الشعورى تلك التصرفات .

وتبين من التحليل أن هذه التصرفات تؤدى وظيفة نفسية ، هى التخفيف من إحساسٍ لاشعوريٍ بالذنب مصاحبٍ لرغبة أو تجربة نفسية مكبوتة ذات طابع جنسى ، وأن الطقوس التى تبدو تصرفات تافهة لا معنى لها إنما تؤدى وظيفة بدورها هى التكفير عن الذنب المزعوم ، والتخفيف من حدة الألم الداخلى الذى يوقّعه الأنا الأعلى. واستخلص فرويد من ذلك (١٩٠٧) أن « عصاب

(١) The Ego & the Id — Group Psychology. & The Analysis of the Ego.

الوسوسة دين خاص مشوه، والدين عصاب وسواسى عام »(١) .

نستطيع أن نلخص نظرية التحليل النفسى فى الدين فى العناصر التالية :

١ – إن العقائد الدينية ، كعقيدة الخلود والجنة والنار ، إنما هى نتيجة تفكير فى مستوى طفلى ، تفكير بمقتضى مبدء اللذة الذى يستند إلى الاعتقاد بالقدرة المطلقة للأفكار .

٢ – إن موقف المرء من الله هو « تحويل » لموقفه من الأب ، ذلك الموقف الأوديبى الذى ينطوى على الخوف والحاجة إلى العطف فى نفس الوقت .

٣ – إن الصلاة وغير ذلك من « مهدئات دينية » هى وسائل لا شعورية « وسواسية » للتخفيف من الشعور بالذنب ذلك الشعور الذى كُبِت نتيجة خبرات جنسية ترجع إلى مرحلة نشأة عقيدة أوديب .

وخلاصة هذه العناصر أن الدين هذاء ونوع من التراجع للحياة وفقاً «لمبدأ اللذة».

دراسات أخرى

وقد تابع بعض علماء النفس الأمريكيين دراسة الظواهر الدينية ، ولكن مستخدمين وسائل فنية أوفر . اتخذ « كارلسون » Carlson جماعة من الطلبة دون تخير ، وأجرى عليهم اختباراً يبين موقف كل منهم من الدين ، وقاس ذكاء كل منهم ، فجاء معامل الارتباط بين العقيدة الدينية والذكاء – ١٩,٠ مما يبين أن غير الذكى أميل إلى التمسك بالإيمان الدينى من الذكى . ومن النتائج التى توصل إليها أن الإيمان الدينى الحرفى يصحب النظرة المحافظة ، ويقترن إلى حد ما بالذكاء المنخفض والتعليم الضئيل . (٢)

---

(١) «حياتى والتحليل النفسى» تأليف فرويد وترجمة عبد المنعم المليجى .

(٢) R. Cattell, Psychology and The Religious Quest, p. 46.

وفى كتاب « إليزابث هرلوك » E. Hurlock[١] عن النمو النفسى فصل خاص بالدين عند الطفل والمراهق . ولكن هذه البحوث التجريبية التى قام بها الأمريكان كانت على نطاق جد ضيق إن قيست ببحوث فى موضوعات غير الظواهر الدينية .

وثم أناس درسوا الدين من وجهة النظر التكوينية ، ولكنهم كانوا يهدفون إلى تأييد الدين عن طريق العلم . وإن بحثاً ليس هدفه الحقيقة العلمية المجردة وإنما تأييد فكرة دينية خاصة ، ليغفل حتما عن أية ظاهرة يشتم منها مناقضته لهذه الفكرة ، ويقصر همه على تصيد الشواهد التى تؤيد الغرض . وقد كان الجهد الذى قام به هؤلاء كفيلا بالوصول إلى نتائج قيمة لولا اتجاهه تلك الوجهة .

فهذا مثلا «سميث» Smith يكتب كتاباً عنوانه «علم النفس الدينى فى الطفولة الأولى»[٢] ، وعلى الرغم مما قد يوحى به عنوان الكتاب إلا أنه ليس إلا محاولة لتسخير المبادىء المتعارف عليها فى علم النفس لتأييد حقائق الدين . وياليته قصد بالدين معنى عاماً ، بل قصره على الفكرة المسيحية دون غيرها . فهو يقرر — دونما مبرر تجريبى أو منطق — أن شخصية المرء تكون متكاملة (بالمعنى السيكولوجى لكلمة تكامل) إن كانت ذات تجاه دينى مسيحى. ويعترض على النظرية التى تُرجع الدين إلى الخوف والحاجة إلى الأمن اعتراضاً متعسفاً ، إذ يحكم بأنه حتى الاتجاه الدينى المسيحى لدى الفرد إن كان مشوباً بالخوف فهو تدين عصابى . وهكذا يمضى المؤلف واصفاً بالمرض والشذوذ أية صفة فى تدين الشخص لا تتفق والمثل الأعلى الدينى المسيحى كيفما يتراءى له هو . فهو يقر من آراء «فرويد» ما يؤيد اعتقاده ، وينبذ منها ما يتعارض وذلك الاعتقاد . مثال ذلك ، أنه لا يقر « فرويد » على أن الدين هروب من الواقع ويراه على العكس من ذلك خضوعاً للواقع وتحرراً من « الانحصار الذاتى » Self-centredness.

(1) E. Hurlock, Child Development.
(2) J W.D. Smith, Psychology & Religion in early Childhood.

وتأتى بعد ذلك بحوث أخرى لا تمس موضوع الدين مساً مباشراً ، ولكنها تلقى ضوءاً على نشأة الشعور الدينى ، وتفيد فى تفسير التغيرات التى تعتريه . من تلك ، بحوث « بياچيه » فى الحكم الخلقى وتصور الطفل للكون وللعلّيّة ، وبحوث « سوزان أيزاكس » S. Isaacs عن تطور الحياة الاجتماعية عند الطفل وتطور التفكير عنده ، وبحث « سيلڤيا سيدنى » Sylvia Sydney عن اكتشاف الطفل للموت ، وبحوث التحليل النفسى فى اللاشعور والرمزية .

ويستحيل على أى باحث ، يريد أن يفهم الظواهر الدينية لدى الفرد فى ضوء شخصيته المتكاملة وفى صلتها بالحياة النفسية عموماً ، أن يستغنى عن تلك البحوث . وهكذا كان التقدم فى البحوث السيكولوچية فى مختلف جوانب الحياة النفسية عموماً يتضمن تقدماً ضرورياً فى فهم الجوانب الدينية منها . وذلك يفرض علينا واجباً علمياً ذو شقين : الإلمام بالنتائج النهائية لعلم النفس الحديث (خاصة علم نفس الطفل) ، والاعتماد على أنفسنا فى دراسة الشعور الدينى عند الفرد (أعنى الطفل والمراهق) على نحو موضوعى صرف . وذلك الواجب هو ما حاولت تأديته متبعاً المنهج الذى أعرضه فى الفصل التالى .

الفصل الثانى

البحث الجديد : مجاله ومنهجه

مسلّمات عامة

يحق لى أن أضع فى نهاية تطور البحث السيكولوجى فى الدين ، بحثنا الراهن الذى يعد – فى حقيقة الأمر – نتيجة طبيعية لتطور علم نفس الطفل . ومن هنا كانت ميزته بالنسبة للبحوث السابقة التى كانت لا تزال تتخبط فى ظلام الحياة النفسية ، فتتناول عدداً محدوداً من ظواهر النفس الدينية وقد خفى عنها جوانب النفس الأخرى . ولما كانت الشخصية كلا واحداً لا يتجزأ ، حتى لا يستحيل فهم ظاهرة فيها إلا بالإضافة إلى غيرها من الظواهر وإلا فى ضوء الشخصية عموماً ، كان من الطبيعى أن يكون محصول البحوث السابقة من النتائج النهائية محصولا ضئيلا. وقبل أن أعرض خطوات بحثنا ونتائجه ينبغى أن أشير إلى مسلّمات عامة استند إليها البحث ، مسلّمات رسخت فى ذهنى نتيجة ما توصل إليه العلم من قوانين تنظم الحياة النفسية .

أولا : لا علم نفس خاص للدين

لسنا نؤمن بأن ثمة علماً خاصاً بالظواهر الدينية (ولا نحبذ نشأة مثل ذلك العلم) ، بل لا وجود لغير علم واحد يدرس الظواهر النفسية عموماً ، تفاعلاتها وارتباطاتها العلّية ، ويهدف إلى الكشف المستمر عن قوانين الحياة النفسية . وحيث إننا سلمنا بأن الظواهر الدينية إنما هى – بصرف النظر عن مصدرها الخارجى – ظواهر نفسية طبيعية ، تخضع لنفس القوانين التى تخضع لها الظواهر النفسية الأخرى ، وتحتاج فى الكشف عنها لنفس المناهج العلمية التى

تستخدم فى الكشف عن سائر الظواهر ، فلا يجوز أن نفرد لبحثها علماً خاصاً . إن أى اكتشاف علمى لجانب من جوانب النفس إنما هو ضوء يسطع فيتيح لنا فهم جوانب أخرى ، وارتياد مسالك فى النفس كانت مغلقة خافية . فتقدم العلم بالظواهر الدينية أو غيرها ، رهن بالنظر إلى الشخصية نظرة موحّدة ، شعارها الفهم الشامل والمساواة بين الظواهر .

وإذا كنا نعزل ظاهرة من الظواهر النفسية ، لنضعها تحت ميكروسكوب التحليل ، فما ذلك غير إجراء مؤقت لابد أن يعقبه وضع هذه الظاهرة فى موضعها من البناء العام ؛ بل إن تحليلها أو تشريحها يتم على هدى فهم سابق للكل الذى هى جزء وظيفى فيه . فالعزل أو التحليل لا يبرر لنا تخصيص علم لظواهر من نوع معين. وذلك يُبرز المبدأ الرئيسى الذى أهتدى به فى تحليلى للشعور الدينى ، أعنى أن أتخذ الشعور الدينى مجلى للشخصية برمتها ، أو نقطة تتلاقى عندها مختلف نواحى النشاط النفسى ، ومن ثمة فإن إضاءة هذه النقطة كفيل بإضاءة نقط أخرى . بل إنى أطمع فى أن أحقق عن طريق الدراسة السيكولوجية للدين ما أعتبره «مهمة اليوم» بالنسبة لعلم النفس الحديث ، أعنى الربط الدينامى بين النشاط الانفعالى والنشاط العقلى .

ثانياً: لا شأن لنا بالقيمة الموضوعية للدين

إننا نعتقد أن وجود الله وغير ذلك من عقائد الدين فوق البحث السيكولوجى . فلا حق لنا أن نتعرض للحكم على صحة هذه العقيدة أو تلك ، أو أن نقارن بين دين ودين . فنحن نحترم العقائد والأديان جميعاً ، ولا يجوز لنا ، فى هذا المقام ، أن نبحث غير ما يدخل فى نطاق الظاهرات النفسية ، دون الحكم على ما قد يقابلها من وجود فى الخارج. ولا ينطوى ذلك على إنكار لقيمة الفلسفة ، فنحن نقدر الفلسفة ، بل نعتبرها مطمح كل من يبغى أن يستفيد من نتائج العلوم فى الوصول إلى مذهب شامل يفسر الكون فى مجموعه . إنما نحن نرى أن

استبعاد الجدل الفلسفى ، والحكم على قيمة الدين الموضوعية ، إجراء منهجى لا مناص من اتخاذه فى بحثنا هذا ، لصالح العلم نفسه الذى لا سبيل إلى تقدمه دون تحديد لميدانه .

ونحن ندرس الظاهرات النفسية كما تحدث ، ونحاول استخلاص النظام الذى تخضع له فى نشأتها وتطورها . وهذه الظاهرات فى ذاتها ، لا تنطوى على أى حكم تقويمى . وعليه فهى جميعاً فى نظر عالم النفس وقائع طبيعية يتعين عليه أن يحترمها إن أراد فهمها - إيماناً كانت أو شكاً أو إلحاداً ، أفكاراً ناضجة أو تصورات طفلية ساذجة .

ثالثاً : نفسية الفرد نقطة البدء

نقطة البدء فى أى بحث سيكولوجى هى نفسية الفرد ، فالشخصية هى الحقيقة النفسية الأولى ، وعليه فنحن ندرس الدين فى نطاق الشخصية كما فهمناها من علم النفس فى آخر تطوراته ، أعنى من حيث هى حقيقة متكاملة ، وفى نفس الوقت متفاعلة مع الواقع الخارجى تفاعلا دينامياً . ونحن نعتقد أن الظواهر الدينية إن أردنا فهمها فلنلتمسها فى الفرد قبل أن نلتمسها فى المجتمعات ، ونحن نتفق فى ذلك مع « بوفيه » الذى يقول :

« إنها لجرأة وجسارة ، أن ندرس الشعور الدينى فى أصول الجنس أو لدى البدائيين . بوسعنا أن نتخيل النشوة الجماعية المصاحبة للطقوس الطوطمية التى طمع دوركيم أن يرى فيها بداية الحياة الدينية ، ولكننا نجازف إذ نحاول الإمعان فى ذلك الاتجاه . لدينا عن العادات والطقوس أوصاف تفصيلية ، ولكن أى استبطان لن يجدى فى الوصول إلى معرفة ما يشعر به البدائيون ، ولو بطريق غير مباشر . لنحذر إذن تفسير ما هو غامض بما هو مجهول »[١] .

على أن الفرد الذى نتخذه نقطة البدء فى دراسة الشعور الدينى ، ليس

(1) Bovet. Le Sentiment Religieux et La Psychologie de l'Enfant.

النبي أو العبقرى الدينى (القديس أو المتصوف) الذى كانت له خبرات دينية فريدة انتقلت إلى الجموع عن طريق التقليد ، إنما هو الفرد العادى . فلا محل لاعتبار الدين الحق هو دين القديس ، وما عداه تقليد غير تلقائى ؛ فما دام الدين يمس عنصراً شخصياً فهو فى نظرنا دين حق . بل إن الفرد الذى يعنينا فى هذه الدراسة ليس الراشد المكتمل النمو ، بل الطفل منذ طفولته الأولى . وإن الدراسة السيكولوجية الحقة ليست إلا الدراسة التكوينية التتبعية . أما دراسة الظواهر النفسية الراهنة لدى الفرد فلن تعدو أن تكون تسجيلا وصفياً لنتاج نهائى ، ومادام العلم لا يستغنى عن التفسير ، والتفسير لا سبيل إليه إلا برد المعلولات إلى عللها ، تحتم علينا فى أية دراسة نفسية أن ننهج نهجاً تكوينياً . وعلى ذلك فلن يكون موضوع البحث قاصراً على الأفكار العقائدية أو التراكيب اللاهوتية وغير ذلك من تآليف نسجها العقل حول أمور نابعة من الأعماق ، فالمنهج التكوينى سيبين لنا أن هذه ليست أكثر من نتائج متأخرة لتطورات عميقة اعترت الشعور الإنسانى ، أو – بتعبير آخر – هى انعكاس عقلى لحياة وجدانية ذاتية .

رابعاً : لا تعريف ، وإنما تعيين لمجال البحث

لا نعتقد أن للتعريف المنطقى قيمة تذكر فى أية دراسة جديدة ، هو جدل وتجريد لا يقدم خطوة واحدة فى الكشف عن المجهول . ونتفق فى ذلك مع « چيمس » و « فلورنوا » و « دى سانكتيس » . بل إن استهلال أى مبحث سيكولوجى بتعريف نظرى للظاهرة المدروسة ينطوى على خطإ جسيم فى فهمنا لطبيعة الظاهرة النفسية – ذلك أن التعريف النظرى صيغة مجردة جامدة ، فى حين أن الظاهرة النفسية عملية محسوسة دينامية . لم يكن على علم النفس التقليدى من حرج – ولما يتجاوز المستوى الشعورى والوصف الجامد للحياة النفسية – أن يتورط فى جدل تجريدى ، أما وقد تبين أن الحياة النفسية فى جوهرها تفاعل دينامى

لا يقر له قرار ، وتعقُّد ينطوى على التناقض والصراع ، فلا محل للتعريف الذى ينتج عن تجريد « ساكن » static، ويصدر عن مبدإ « عدم التناقض » المنطقى الذى لا تلتزمه الحياة النفسية .

ولكن يستحيل علينا أن نخطو الخطوة الأولى فى دراسة ظاهرة ما ، ما لم يكن لدينا فكرة ما عن هذه الظاهرة ، أو ما لم نكن على علم بمعالمها وحدودها الرئيسية . والشعور الدينى ليس ظاهرة مفردة بسيطة ، بل هو تكوين نفسى برمته ، ويتضمن من العوامل عدداً ليس من السهل تحديده ، ومن العمليات ما لم يتيسر لنا تصوير مدى تعقدها . ولذلك كانت الحاجة ماسة إلى البدء بتحديد ما نقصده بالشعور الدينى ، موضوع البحث الحالى .

مجال البحث

إن أى دين يتضمن الأمور الآتية :

١ — الاعتقاد بوجود عالم آخر فائق للطبيعة يتجاوز وجودنا هذا المحدود ، والشعور بأن ثمة علاقة تربطنا بعالم غير مرئى ، يتصف بأنه قوى مقدس ، وتختلف مشاعر الناس نحوه قوة وضعفاً ؛ وأخص هذه المشاعر : الخضوع ، والخوف ، والحب ، والتبجيل . ويختلف تصور الناس أيضاً لما فى ذلك العالم الغيبى (غير المرئى) من كائنات ، والعنصر الأساسى فى الاعتقاد بوجود عالم غير أرضى هو اليقين بأن ثمة كائناً (أو أكثر) أسمى منا قوة ، وأن حياة الانسان لا تقتصر على وجوده الأرضى المحدود . وذلك يتضمن الأمور الآتية : الله ، والملائكة ، (والشياطين المضادة لها) والخلود وما يتبعه من اعتقاد فى الجنة والنار (على أية صورة كانت) .

٢ — من وظائف الدين الرئيسية أن يهيء الانسان لتقبل أمور بغيضة ،

كالموت، ويعده لمجابهة مثل ذلك المصير الذي يثير القلق في نفوس الأفراد، والذي يؤثر موقفهم منه في اتجاههم في الحياة. ولذلك فإن الأديان تقدم للناس صيغاً «جاهزة» بخصوص ما ينبغي أن يكون عليه تصورهم للموت، وتفرض عليهم الطريقة التي يواجهون بها حادث الموت بل وضده، أعني الميلاد. وكلا الموت والميلاد مثار عديد من الاهتمامات والانفعالات التي تصاغ عادة لدى الشعوب البدائية في قوالب التقاليد والعادات التي يشملها الدين. وقد تبين من بحوث علم الأجناس أن الميلاد والموت وكل ما يتصل بهما من أمور هي لدى جميع الشعوب البدائية ميدان لطقوس وعبادات لا حصر لها، ولشبكة واسعة من العقائد الخرافية. وقد بين علم النفس الحديث (وبخاصة علم نفس مدرسة التحليل النفسي) أن الميلاد والموت ليسا بأقل أهمية ودلالة لمجتمعنا المعاصر ولأفراد ذلك المجتمع. ولكن ما كُتب عن الحياة الجنسية يفوق بكثير ما كتب عن سيكولوجيا الموت، وذلك على الرغم من أن موقفنا من الموت — كما لاحظ «فلوجل»: «يشبه إلى حد كبير موقفنا من الجنس. فكلا الموت والجنس أمر بغيض من حيث هما مثار للقلق (على الرغم من تباين دواعي القلق في الحالين)، ونحن نستجيب للبغيض بشكليه وللقلق بنفس حيل الهرب والكبت والتابو والرمزية (نتحدث عن صديق راحل، كما نتحدث عن امرأة ساقطة متجنبين في كلا الحالين ما يتضمنه التعبير الصريح من انفعال أعنف)»[1].

وقد يبين التحليل النفسي أن موضوعي الجنس والموت يرتبطان فيما بينهما ارتباطاً وثيقاً، ويندمجان معاً في مركب نفسي ذي أهمية عامة شاملة هو «عقدة أوديب». وقد وجد «فلوجل» وبعض تلامذته علاقة مماثلة في ذهن الفرد بين فكرتي الموت والميلاد، الأمر الذي اكتشف علماء الشعوب والدين المقارن وجوده في كثير من المعتقدات الجماعية.

(١) مقدمة فلوجل Flügel لكتاب .Sylvia A. Sydney (The Child's Discovery of Death)

٣ – كل دين ينطوى على محاولة جاهدة من جانب المتدين لتحقيق الوئام مع الله ، أى للحصول على عفوه ورضاه بصدد الأخطاء والنزعات الشريرة التى تساور نفسه . والمرء كما يشعر بالقصور البدنى والاجتماعى والعقلى ، فهو يشعر أيضاً بالقصور الأخلاقى ، أعنى بالعجز عن ضبط النزعات المحظورة وبالحاجة إلى قوة تعضده ضد قوى الغريزة الملحة . والمرء ، إذ يستشعر فى نفسه القصور الأخلاقى ، يحس فى نفس الوقت بالقيم ، ويسعى لبلوغ المثل الأعلى سعياً يتصل اتصالا وثيقاً بالسعى إلى رضاء الله وتحقيق الوئام معه . ولذلك كانت دراسة الشعور الدينى تتضمن البحث فى الشعور بالذنب ، والإحساس الخلقى ، وصلة فكرة الله بذلك الإحساس .

• • •

بناء على هذا الفهم للدين يتضمن ميدان بحثنا الموضوعات الآتية :

١ – فكرة الله :

متى تنشأ فى حياة الطفل ؟ وما هى الظروف النفسية التى تكتنف ظهورها ؟ هل ابتداء الشعور الدينى رهن بظهور فكرة الله ، أم أن ثم شعوراً دينياً تلقائياً فى حياة الطفل قبل ذلك ؟ ما هى الأطوار التى تمر بها فكرة الله عبر مراحل النمو ، وما صلة التغيرات التى تطرأ عليها بالتغيرات العامة التى تعترى الشخصية ؟

٢ – فكرة كائنات غير أرضية :

الملائكة والشياطين ، كيف يتصورها الطفل؟ وهل يبقى على تصوره الطفلى لها بعد أن يتعدى مرحلة الطفولة ؟ وإذا كانت الملائكة والشياطين أفكاراً جماعية ثقافية cultural ، فهل ثمة لدى الطفل دواع نفسية تجعله يستجيب لها ويتقبلها؟ وما تلك الدواعى التى تقابل هذه التطورات الذهنية ؟

٣ – فكرة الجنة والنار :

صلتها بالتفكير فى مستوى « التخييلات » phantasies التى لا مبدأ لها سوى طلب اللذة وتجنب الألم ، تطور التفكير فيها مع تطور الحس الأخلاقى . متى تقترن بفكرة الجزاء ؟ وهل يطرأ على تصور الطفل للجنة والنار تغيير يصاحب التغيير الذى يعترى فكرته عن الجزاء ؟ أو يصاحب ذلك الذى يطرأ على فكرة الله ؟

٤ – فكرة الموت والخلود :

متى يكتشف الطفل الموت ؟ هل يفهمه على حقيقته منذ مبدإ الأمر ؟ أم أنه يدركه حسب إمكانياته العقلية ؟ ما أثر اكتشافه للموت فى نشاطه العقلى والانفعالى ؟ متى تنشأ فكرة الخلود ؟ أيهما أسبق نشأة فى ذهن الطفل – فكرة الموت أم فكرة الخلود ؟ ما صلة الموت والخلود بفكرة الطفل عن الله ؟

٥ – لاهوت الطفل :

الأفكار السالفة الذكر هى العناصر التى يتكون من مجموعها لاهوت الطفل أو المراهق ، أى نظريته العقلية عن الدين . ولذلك يتعين علينا أن نتساءل : هل لدى الطفل نظرية شاملة منذ البدء تتضمن هذه التصورات السالفة الذكر ، أم أنها تبقى تصورات متفرقة، ثم تأتلف فى مذهب واحد فى سن متأخرة ؟ وإذا كان ذلك هو الحال ، فما هى هذه السن ؟ وما هى الظروف التى تكتنف نشأة مثل ذلك المذهب ؟ ولكن لاشك أن هذه التصورات لا تنشأ بمعزل عن بعضها البعض ، كما أنها لا تنشأ مجردة من الانفعالات والدوافع التلقائية ، فيتعين علينا – فضلا عن تبين ما بينها من روابط – أن نتعمق فى الحياة اللاشعورية بحثاً عن التربة الانفعالية التى نبتت فيها بذور هذه الأفكار ، أو عن الدوافع التى جعلت المرء يتقبلها . ومن المستحيل أيضاً أن نفهم معانى الموت والميلاد والخلود والله والجنة والنار والملائكة والشياطين عند الطفل فهماً كاملا إن نحن تجاهلنا صلتها بمعانيها لدى الكبار الذين يضطلعون بتربية الطفل ،

ولدى المجتمع بتقاليده وثقافته السائدة . ولكن أفكار الكبار والمجتمع عموماً ينبغي ألا نعتبرها فى بحثنا إلا مؤخَّرة background، وعلينا أن نركز انتباهنا فى استجابات الطفل لهذه الأفكار ، عندما نعزل تلك الاستجابات ونضعها وحدها تحت الميكروسكوب .

٦ – الاتجاهات الدينية :

مهما كانت تصورات الطفل أو المراهق لمختلف موضوعات الدين ، فإن من المحتمل أن يكون لكل فى تدينه اتجاه أو أسلوب معين يتوقف على نوع شخصيته ، فمتى تتحدد الاتجاهات الدينية ؟ أيكون ذلك منذ الطفولة ولمّا تأتلف الأفكار الدينية فى لاهوت أو مذهب متكامل ، أم لا يحدث ذلك قبل سن المراهقة حين تتبين معالم الاتجاهات والاهتمامات العقلية ؟ وهل يمكن عمل تصنيف لهذه الاتجاهات ؟ وما الصلة بين هذه الاتجاهات ؟ والإجابة على هذه الأسئلة لابد من طَرق موضوع آخر ، هو الانقلاب الدينى .

٧ – الانقلاب الدينى :

يحدث ذلك فى فترة المراهقة ، فترة الصراع وبعث الأزمات الطفلية، فما صلته بعناصر الأزمة ؟ ما الدوافع التى تؤدى إلى أزمات التشكك أو إلى الإلحاد ؟ وهل فى المراهقة إلحاد حق كذلك الإلحاد العقلى الذى نجده عند المفكرين اللادينيين من الراشدين ؟ هل لذلك الانقلاب صلة بعملية النمو الطبيعى الذى يهدف إلى النضوج واكتمال النمو ؟

منهج البحث

إن كنت قد وصلت بهذا البحث إلى حقائق جديدة ، وفتحت السبيل التى

تفضى فى المستقبل إلى الكشف عن حقائق أخرى ، فلم يكن ذلك نتيجة اطلاعى على بعض ما كتب فى سيكولوچيا الدين ، ولكن نتيجة وقوفى على آخر ما توصل إليه علم نفس الطفل من نتائج ،معظمها لا شأن له بالدين ،وإحاطتى بما سهم به التحليل النفسى فى تقدم علم النفس ، ثم اتباعى مبدإ الملاحظة الموضوعية غير متقيد بأية نتائج سالفة . وأصرح هنا بأنى لم أشرع فى استقصاء التطور التاريخى فى البحث السيكولوچى فى الدين كما عرضته فى الفصل الأول إلا بعد أن كدت أفرغ من استقراء الحالات واستخلاص النتائج . وقد فعلت ذلك لا طمعاً فى مزيد من النتائج ، ولكن كى أضع هذا البحث فى موضعه من تاريخ العلم ، فيتيسر لنا بذلك أن نتبين إلى أى حد سهم البحث فى تقدم العلم بنفسية الطفل ، وإلى أى حد يمكن أن يوحى ببحوث جديدة فى نفس الاتجاه .

وعندما وقف الأستاذ «فيلپوت» فى الاجتماع السنوى العام للجمعية البريطانية لعلم النفس الذى عقد فى برجمان فى شهر أبريل سنة ١٩٤٧ يتحدث عن « البحوث التجريبية فى علم النفس الدينى » وما تحتاج إليه كى تصبح تجريبية حقاً ، فيقترح البدء ببعض الطرق المعروفة مثل الاستفتاءات ، ودراسة النصوص ، وأنواع الشخصيات ، كنت قبل ذلك بأكثر من عام قد وضعت استفتاء شاملا لدراسة الشعور الدينى عند المراهق ، وحددت الأساس التجريبى الذى ينبغى أن يقوم عليه البحث فى سيكولوچيا الدين . ولم يكن ذلك سوى جهد جزئى فى نطاق حملة واسعة قادها الدكتور يوسف مراد فى سبيل دراسة نفسية الطفل والمراهق فى مصر والبلاد العربية على أساس تجريبى محلى .

على أنى لم ألتزم خطة بعينها منذ البداية ، وإنما تطورت تلك الخطة تطور ى كائن حى ، تطوراً طبيعياً يتفق مع المادة المجموعة . فقد بدأت بداية طبيعية — هى الشعور بما طرأ على نفسى من تغيرات فى شعورى الدينى عبر السنين . وكان طبيعياً أن أتأمل هذه التغيرات ، وأحاول تحليلها مستخدماً

فى ذلك المنهج السيكولوجى الأول ، الاستبطان introspection . ثم عُهد إلى – إذ أزاول التدريس بالمدارس الثانوية – بالإشراف على القسم الداخلى بإحدى مدارس القاهرة حيث أتيح لى أن أشاهد عن قرب مختلف مظاهر النشاط الدينى ، وأن أستمع إلى مناقشات حادة كانت تحتدم من وقت إلى آخر بين الطلبة ، وأن أعاين من أسئلتهم واستفساراتهم كثيراً من الحرج والحيرة ، وأن ألمس عنف التغييرات الدينية التى تعترى المراهقين وأثرها فى نموهم المتعثر خلال المراهقة . وقد كان من حظى أن أحصل من بعضهم على تأملاتهم الخاصة ، ومن نفر منهم على مذكراتهم اليومية أو طرف منها . حقاً إنها لم تكن كلها منصبة على الدين فحسب ، ولكنها أتاحت لى فرصة فريدة للإطلاع على أطراف من مشاعر المراهقين الدينية منبثة فى السياق العام لحياتهم .

غير أن ما كان يجرى فى ذلك الوقت من أمور فى حياة المراهقين ، لم يكن فى نظرى يكفى لتغير تحولاتهم الدينية ، وأيقنت أنها ترجع لا محالة إلى سيطرة منابعها الدينامية فى الطفولة . حينئذ وضعت استفتاء لدراسة الشعور الدينى عند المراهقين مسترشداً بتطورى الدينى ، وبمعلوماتى عن الحياة الخاصة لبعض من اتصلت بهم من طابتى اتصالا جد وثيق . وضمنته – فضلا عن الأسئلة الخاصة بعناصر الشعور الدينى الراهن – أسئلة خاصة بتاريخ المراهق الدينى والنفسى منذ الطفولة . وفى هذه الأثناء كنت قد نشرت مقالين فى مجلة علم النفس أحدهما « الشعور الدينى عند الطفل »[1] ، والآخر « الشعور الدينى عند المراهق . »[2] وإنى إذ أنظر إليهما اليوم ، أكاد أنكرهما وإن قدرتهما فلا لشىء إلا لكونهما بمثابة محاولة أولى لتلمس طريق أو لتحديد الموضوعات التى ينبغى بحثها .

وما أن اطلعت على بعض الإجابات حتى وجدت أنها وإن بلغت درجة

(١) عدد يونيو ١٩٤٧ .
(٢) عدد أكتوبر ١٩٤٧ .

كبيرة من الدقة فى وصف الراهن من المشاعر الدينية ، فإنها تترك بدايات الدين فى الطفولة الباكرة مستترة خلف ضباب الزمن . فلم يكن بد من إضافة منهج تكوينى تطورى يكمل ذلك المنهج التراجعى . فشرعت أحادث الأطفال من مختلف الأعمار وأسجل تلك الأحاديث ، وأتصيد من الأمهات والآباء بعض « الطرائف » عن موقف أطفالهن منذ سن باكرة من أمور الدين — أسئلتهم عن الميلاد والموت والله ، وتعليقاتهم على ما يلقى إليهم من تعاليم ، إلخ . . . وأتيحت لى فرصة ذهبية ، هى الاشتغال خبيراً نفسياً بمكتب الخدمة الاجتماعية بمحكمة أحداث القاهرة ، فانتهزت هذه الفرصة ولم يفتنى أن أناقش الأحداث المنحرفين فى أمور الدين وأتعرف استجاباتهم . وكان لهؤلاء فضل كبير فيما قررته من الاتصال الوثيق بين الشعور بالذنب والحاجة إلى الدين ، وفى تفسير ما قد يبدو تناقضاً بين سلوك الشخص سلوكاً أخلاقياً واتخاذه فى نفس الوقت اتجاهاً دينياً لا يعوزه الحماس .

وكنت أراعى فى أحاديثى مع الأطفال ألا أبادرهم بموضوعات الدين مباشرة ، بل أمضى معهم فى حديث عادى حتى يشيروا إلى شىء دينى فأتخذه نقطة للوثوب ، وذلك لعلمى أن أمور الدين (وبخاصة اسم الله والموت) تخضع — لدى كثير من الأطفال — لما تخضع له أمور الحياة الجنسية من تحريم وتحرز وكبت ، وأن الطفل يساوره القلق والخوف بخصوصها فيؤثر أحياناً الصمت على الحديث عنها . ولم أتقيد فى ذلك بخطة ، جامدة ، إنما كانت الظروف توجهنى . والغريب الذى لا يخلو من دلالة أن عشرات الأحداث الجانحين delinquents كنت لا أكاد أشرع فى الحديث معهم بخصوص تهمهم التى قبض عليهم من أجلها حتى يرد على ألسنتهم ذكر الله ، وغير ذلك من أمور الدين .

وإذ أقرأ كتاب « نمو الطفل » [1] تأليف « هرلوك » أقع فى فصل كتبته عن الدين على اختبار صغير استخدمته فى تصور الطفل لله ، وهو عرض

(١) Elizabeth Hurlock, Child Development, Ch. 13.

مجموعة من الأسماء يحتمل أن يعتبرها الطفل صفات لله . فأخذت هذه القائمة وأجريت عليها من التعديل ما يجعل الاختبار ملائماً لأطفالنا ، ثم جعلتها وسيلة لتنظيم مناقشاتى مع بعض الأطفال من فترة الطفولة المتأخرة حين يصعب على جرهم إلى الإفاضة فى الحديث . بل كنت أطلب من بعض هؤلاء أن يرسموا لى الملائكة والشياطين حين يتعذر عليهم الإعراب عن تصوراتهم لها واستجاباتهم الانفعالية لها .

ولا بد أن أذكر أننى أفدت فائدة كبرى فى استكمال بحث موضوع الموت عند الطفل ، من البحث الذى قامت به « سلفياسدنى » عن « اكتشاف الطفل للموت » تحت إشراف الأستاذ « فاوجل » . ولم أتردد فى أن أفيد من الكتابات الأدبية وبخاصة من رواية « المريد » تأليف « پول بورچيه »، ومن رواية « الباب الضيق » تأليف « أندريه چيد »، ومن مذكرات الفيلسوف « رينان » عن طفولته وشبابه ؛ وكل هذه تعرض مختلف الخبرات الدينية التى يعانيها المراهقون، فتبديها فى سياق طبيعى مبرأ عن التجريد والتصنع والتجزىء الذى قد يقع فيه الباحث العلمى المتزمت .

ومهما تكن القيمة التى ينطوى عليها ذلك البحث ، فثمة حقيقة لا جدال فيها ، هى أننى كنت مخلصاً فى التزامى قواعد البحث العلمى الموضوعى ، وأن ذلك كلفنى مشقة كبرى ، وعرضنى لإشكالات — لا علمية فحسب بل اجتماعية أيضاً — كادت توقفنى عن المضى فيه . ويكفى أن أشير إلى أننى بذلت جهداً كبيراً فى توزيع استفتاء المراهقين ولم أستطع أن أحصل على الإجابات الكافية إلا بعد مضى عامين من توزيعها .

الباب الثاني
الطفولة

تمهيد

لا يتيسر لنا أن نسجل هنا المواد والمشاهدات التى جمعناها برمتها ، وإلا شغلت حيزاً كبيراً ، ولذلك لم نر بدا ان نتخير بعضها فنسجله كما هو ، حتى يشاركنا القارئ فى التحليل والاستقراء، ويمشى معنا خطوة خطوة من المشاهدات والتجارب إلى النتائج . ولكن لم نجد من الحكمة أن نركم الأحاديث جميعاً كما هى دون تحليل ثم نقدم التحليل فى النهايه، وإنما آثرنا أن نسجل فى سياق الأحاديث نفسها كل ما يعن لنا من ملاحظات وفروض ، وبذلك لا يكون موقفنا سلبياً منذ البداية. ومع تزايد الملاحظات والفروض والتحليلات نقترب معا رويداً رويداً من النتائج .

وقد جعلنا المواد أقساماً ثلاثة : الأول خاص بأطفال المرحلة الأولى التى تنتهى عند سن السادسة ، وتلك هى الفترة التى تسبق تمثل الطفل لفكرة الله ؛ والثانى خاص بالطفولة المتأخرة ؛ أما الثالث فمثال نموذجى لتطور الشعور الدينى لطفل واحد من سن الخامسة والنصف إلى العاشرة . على أن هذه ليست الحالة الوحيدة التى تتبعناها ، وإنما ثمة حالات أخرى تتبعناها ولكن على مدى زمنى أقصر ،من ذلك الطفل (رقم ٥) فقد تتبعناه من سن الرابعة إلى أن تجاوز الخامسة ، والطفل (رقم ٧) تتبعناه من السابعة من عمره إلى السابعة والنصف .

وقد أعطينا كل طفل رقماً خاصاً ليسهل علينا الإشارة إليه فيما بعد . وبهذا النهج نكون قد طبقنا طريقتى الدراسة الاستعراضية الوصفية والطولية التتبعية ، اللتين يكمل أحدهما الآخر .

وبعد القسم الثالث يبدأ عرض النتائج المستخلصة من المواد السالفة الذكر .

الفصل الثالث

الأطفال قبل تمثّل فكرة الله

حتى سن السادسة

١

الخوف من الله :

طفلة فى الثالثة من عمرها، تشرف الأم على تربيتها بنفسها طبقاً لنظام دقيق. وقد عودتّها هذه الأم أن تنام وحيدة فى حجرة خاصة : عند ما يحين موعد نومها تضعها بنفسها فى الفراش، وتحادثها قليلاً، ثم تطفىء نور الحجرة، وتخرج وتغلق عليها باب الحجرة. سار الحال على ذلك المنوال حتى بلغت الطفلة سن الثالثة، وحينئذ رأت الأم أن الوقت قد حان لتلقينها بعض تعاليم الدين. فبدأت تحدثها عن الله الذى يوجد معنا أينما كنا، يحمينا، ويرعانا، إلخ ... وكانت الطفلة تنصت إلى ذلك الحديث فى صمت. وفى مساء اليوم نفسه، ذهبت الأم بطفلتها إلى فراشها ثم تركتها وخرجت بعد أن اطفأت النور وأغلقت الباب كالمعتاد. وما كادت الأم تفعل حتى صرخت الطفلة فى فزع، فعادت الأم إليها لترى ما حدث فبادرتها الطفلة قائلة :

— ماما. ماتخرجيش. أنا خايفة من ربنا.

(لقد أصبحت فكرة الله مصدراً جديداً للخوف من حيث أرادت الأم أن تكون مصدر أمن وثقة.)

٢

طفل لم يكد يبلغ الثالثة من عمره، سمع الناس من حوله يرددون كلمتى « ربنا » و « الله » . سأل أمه :

ـــ فين ربنا ؟ فأجابت : ـــ فى قلبك .

والأم سيدة مثقفة تفهم نفسية الأطفال ، فلم تشأ أن تقول له ما يقال عادة للأطفال من أنه موجود فى كل مكان . وأرادت أن تبين له أنه شىء معنوى كعاطفة فى قلوبنا ، ناسية أن الطفل فى مثل هذه السن لا قِبَل له بالمعنويات ، وإنما يأخذ الألفاظ بمدلولها الحرفى ، فما كاد الطفل يسمع أن الله فى قلبه حتى بدا على وجهه الامتعاض ، ووضع يده على بطنه صائحاً :

ـــ ماما ، بيوجعنى .

يظن الطفل أن القلب والبطن أمر واحد . الله كائن غريب عليه ، ومن ثمة فهو بغيض، وبخاصة حين يدخل القلب .

٣

الله والميلاد :

« سوسو » طفلة فى الثالثة من عمرها ، لها أخ يصغرها تغار منه غيرة شديدة ، سألت أمها عنه :

لما كنت صغيرة صبرى كان فين ؟ فأجابت الأم : ـــ عند ربنا .

ثم صمتت الطفلة هنيهة وقالت : ـــ طيب وربنا جابه بقى . مش كده ؟

الموت :

توفى رجل ممن اعتادت الطفلة مع أقرانها الاستماع إلى حكاياته . وقد أثار

اختفاؤه والحديث عنه مقترناً بترديد كلمة الموت دهشة الأطفال (وهم أقل من سن الرابعة) . فسألت « سوسو » والدتها :

– ماما ، عم أحمد حييجي إمتى ؟ فقالت الأم : مات ومش حييجي .

– ليه ما بيحوشي التراب و ييجي ؟

فكأن الطفلة قبل أن تسأل عن الموت لديها فكرة ماعنه ؛ وهذه الفكرة هي في جوهرها الرحيل على نحو ما رحيلاً مؤقتاً ، وتوسد الثرى بعض الوقت دون توقف للحياة .

الله بعيد جداً :

عاقبت المربية الطفلة . فصاحت هذه متوعدة :

– والله أنا حاجرى ، أجرى ، بعيد عند ربنا ، وأقول له هات عصاية كبيرة ، وتعال إضرب (المربية) عشان هي زعلتني .

نتبين من هذه العبارة الأمور الآتية :

١ – أن الطفلة تتصور الله إنساناً قوياً قادراً على معاقبة الناس ، وهذا الاقتران بين فكرة الله وفكرة العقاب له أهميته في تفسير حقيقة سوف نشير إليها وهي ، عدم ارتياح الطفل لفكرة الله في بادئ الأمر .

٢ – أنها تدرك إدراكاً مبدئياً أن الله مختلف عنا ، ولكنها تدرك هذا الاختلاف ضخامة في جسمه وأدواته (عصاية كبيرة) ، وبعداً عنا .

٣ – أن الطفلة تؤمن بقدرة رغباتها المطلقة ، أي أنها في المستوى السحري من التفكير ، إذ ترى تصرفات الله رهناً برغباتها : فهو يعاقب من ضايقها لأنها تريده أن يفعل ، وهو لا ينزل بها هي العقاب لأنها لا تريد ذلك . وهذا الأمر الأخير يتبين من الحديث التالي مع أبيها .

الله أقوى من الأب :

ضايقت الطفلة أباها فقال لها :

– أنا حاشتكيكي لربنا يا سوسو . فردت عليه ساخرة ولكن في خوف :

ـ مش حتعرف تشتكيني له ، ليه ! هو ربنا له سلالم عشان تطلع له !؟

كأن الطفلة تسلم أن الله هو سلطة عقاب وانتقام ، ولكنها بحكم تفكيرها السحرى تنجو من العقوبة بفضل بعد الله عنا (فى السماء هذه المرة) ، وعجز أبيها عن الوصول إليه وإسماعه شكواه . ويتبين من خاطر « السلالم » أن الله فى أعلى فى السماء ، فى حين أنها فى الحديث السابق تصورته بعيداً ولكن على الأرض . وهى ترى استحالة الوصول إليه فى حين أنها لم تر ذلك فى الحديث السابق . وما ذلك إلا لأنها كانت تريده أن يعاقب المربية ، أما فى هذه المرة فهى تتمنى أن يعجز الأب عن الوصول إليه حتى لا ينوبها العقاب الذى يتوعدها به . وعليه فليس تصور الطفل لله فى هذه السن اعتقاداً ثابتاً ، ولكنه تخييل phantasy ، هو منفذ لرغباتها ومن ثمة فهو يتغير تبعاً لتغير تلك الرغبات ، فالله يمكن الوصول إليه إذ تكون الطفلة فى حاجة إلى أن تتوجه إليه بالشكوى ، وهو عال فى السماء إذ تكون فى خشية أن يصيبها منه أذى .

الله جميل :

تسأل أمها : ربنا جميل وأبيض ؟

(هذا التصور صدى لمحبتها له فى هذه اللحظة ، المحبة التى تصور الله لها جميلاً وأبيض ، أى بعكس الظلمة .) وتنتهز الأم فرصة اهتمام الطفلة بالله فتسألها :

هو ربنا فين ؟ فتجيب الطفلة : فى السما .

ـ بيعمل إيه ؟ بينزّل الشتا .

(بدأت تدرك أن لله وظيفة أو قدرة أخرى غير تنفيذ وعيد الأب .)

٤

« زيزى » طفل فى سن ٣،٣ ، وحيد أبويه ، أبوه لا يدعه يفارقه ويعطيه

حرية كاملة فى التعبير . رأى الطفل سيدة حاملاً فسأل أمه :

– ليه دى عاملة كده ؟(مشيراً إلى بطنها) فأجابت الأم :

– عشان عندها ولد صغير. فسأل : منين جه ؟

وبعد أن أجابته الأم : من عند ربنا ، صمت لحظة ثم قال :

– يعنى ربنا شق بطنها وحطه فيه ؟

(البيئة إذن تجعل الطفل يقرن الله بفعل الميلاد ، وحيث إنه يتصور فعل الميلاد فعلاً بشعاً ، أعنى شق البطن مثلاً ، وحيث إن مولد طفل جديد مثار لقلقه ، فمن المحتمل أن تكون أولى خبرات الطفل بالله خبرات أليمة .)

٥

معارضة فكرة الله :

« شريف » فى الرابعة من عمره، أصغر إخوة ثلاثة، طفل محبوب من الكبار جميعاً وخصوصاً جدته التى تعيش فى نفس المنزل . نشط ، لديه فرص للتعبير الحر دون تقييد من جانب الأب أو الأم لإعجابهما به .

كان المطر يهطل بشدة لم نعهدها من قبل ، والوقت ليلاً ، والجو مشبعاً بالرهبة ، وكان ذلك أول عهد للطفل بهذه الظاهرة ، فسأل الطفل جدته (المتدينة) فى عجب ورهبة :

– منين كل الميه دى؟ فأجابت : – من السما .

فقال :

– ومين بيرميها ؟ فردت : – ربنا .

فابتدرها قائلاً :

– يبقى ربنا مش كويس .

ولكن الجدة حاولت أن تشرح له الجوانب الطيبة من المطر ،مثل « ضرورته

للزراعة التى نحصل منها على طعامنا، والأنهار التى نحصل منها على شرابنا، إلخ».

وبعد تفكير صامت اعترض بقوله:

– وهو ليه ربنا مش بيجيب لنا الحاجات دى من غير الشتا الوحش ده ؟!

(وكان طبيعياً أن تتوقف الجدة المتدينة عن المضى فى هذا الحديث الشائك فنهرته، أما الطفل فليس مقيداً بعقيدة، ولا يصدر فى حديثه إلا عن انفعال الخوف الذى يساوره من تلك الظاهرة الطبيعية الغريبة، وعن غضبه على ذلك المسئول عنها.)

أحنقه أن يلزم الصمت فابتعد عن جدته ثم صاح:

– «برده ربنا مش كويس».

الله : لماذا لا يظهر لنا ؟!:

كان «شريف» يلعب مع «سوسو»[1] بمنأى عن الأنظار، وكان فى ذلك الحين فى سن الرابعة والنصف. وهو دائماً يأخذ دور القائد المسيطر مع هذه الطفلة، وترتضى هى ذلك الوضع وتلجأ إلى شريف كلما احتاجت إلى معونة ما. وكانت المعونة التى تريدها فى هذه المرة أن يجيبها على السؤال التالى:

– ربنا فين يا شريف؟ ليه مش بيتكلم ؟! أنا مش شايفاه ليه ؟! فيجيب الطفل فى ثقة:

– أصل سيدنا محمد قال له لو اتكلمت حاضربك.

تساؤل الطفلة ينم عن قلق يساورها بصدد ذلك الكائن الخفى برغم قوته، ذلك اللغز الذى تحار فى معرفة السر فى اختفائه. وإجابة شريف تدل على أنه يراه كائناً ناقصاً عاجزاً، إذ يرد عدم ظهور الله لا إلى إرادة الله ذاته بل إلى أمر وتهديد صدر إليه من شخص أقوى، هو سيدنا محمد.

ولعل الطفل «يوحّد» identify بين سيدنا محمد وبين الأب، و«يوحد» بين الله والطفل: الأب يؤذى الطفل بسبب أفعال يتمنى الطفل أن ينعم بحرية

(١) أنظر حديث «سوسو»، رقم ٣، ص: ٥٨ وما يليها.

إتيانها ، والطفل يحرم نفسه منها خوفاً من الأذى ، وكذلك الله يود لو ظهر لنا (والحق أن الطفل هو الذى يود ذلك) ، وما دام لم يظهر ، فلا بد أن ذلك خوفاً (كخوفه) من تهديد سيدنا محمد له بالضرب . أى أن سيدنا محمد (وهو موضوع دينى) سلطة « معطّلة » inhibiting authority كالأب ، وذلك ينم عن ضيقه بها . والذى يستحق التسجيل هنا أن كلا الطفلين يرى اختفاء الله أمراً غير طبيعى ، ويساوره القلق بخصوصه ، ويود لو ظهر له حتى يطمئن .

الله والأب والطفل :

الطفل نفسه وقد أشرف على نهاية السنة الرابعة من عمره ، ولا يزال على صراحته واجترائه على الله فى حديثه ، ولا يبدو أنه قد تقبل فكرة الله تقبلاً تاماً ، وإن أصبح مهيأ لقبولها . يدور الحديث الآتى بين عمه وبينه ، يبدأه العم بقوله :

— ربنا فين يا شريف ؟ فيجيب : — فى السما فوق .
— أنت شايفه ؟ — أمال .
— هو شكله إيه ؟ — شكلنا .
— لابس إيه ؟ — لابس جلابية .
— لونها إيه ؟ — زى بتاعة بابا (الأب هو الفرد الوحيد فى كبار الأسرة الذى يرتدى الجلابية فى المنزل .)
— وهو بيلبس بيچامه ؟ — لأ . لسه حيشترى .
— هو عنده جزمه ؟ — لأ . لسه حيجيب .
— ومش بيجيب ليه ؟ — أصله لسه ماقبضش الفلوس .
— بيجيب الفلوس منين ؟
— الحكومة تدى له بالليل ، وهو يتفسح ويشترى كل حاجة .
— هو ربنا كبير ؟ — آه . أكبر من بابا .

— شكله حلو ؟ — لذيذ .
— أنت تحبه ؟ — قوى .
— ليه ؟ — علشان هو اللى يجيب لنا الفلوس .
— يجيبهم إزاى ؟
— ربنا يبعت أمه تجيب الفلوس ، ويديهم لخالى وخالى ، يديهم لبابا .

يوحّد الطفل بين الله والأب وبخاصة وأن ارتباطه العاطفى به شديد : فالله « يلبس جلابية » ، ويأتى « بالفلوس من الحكومة » ، يأتى بها ليلاً وذلك تمييزاً لله الذى لا يُرى من الأب الذى يُرى . وهو يتصور الله كبيراً لذيذاً محبوباً لأنه هو الذى «يجيب لنا الفلوس» ، ولكن عند ما يُسأل الطفل من أين يأتى الله بالنقود ويجد ألاّ مناص من أن يقف الله موقف الآخذ من غيره ، يتراجع تصوره له أباً كبيراً أمام ذلك الذى يعطى . وللأم أخ يرسل إيجار أملاك لها كل عام ، وما دام الله يحصل على النقود من غيره فلا بد أن ذلك الشخص هو أم الله ، يبعثها « تجيب الفلوس ويديهم لخالى وخالى يديهم لبابا» . وهكذا يحل محل تصور الله أباً تصوره له طفلاً ربما يحصل على النقود التى يبعثها لنا والتى تجعلنا نتصوره أباً كبيراً مصدراً للرزق ، وتتزحزح هذه الصورة بعد ذلك لتحل محلها صورة ثالثة كما يتبين من تكملة الحديث .

يقول العم للطفل :

— أنت شايف ربنا ؟ — أمال آهه فى السما. (عود إلى التصور الأصلى)
— بيعمل إيه ؟ — قاعد على كرسى بيكتب فى الواجب. عشان ينجح .
— من أعطى له الواجب ؟ — يخلى مامته والاّ باباه يدّى له الواجب.

يوحّد بين الله وأخيه الأكبر الذى يحسده على ذهابه إلى المدرسة ، وجلوسه

تحت رعاية والديه يؤدى واجباته المدرسية .

– هو فى مدرسة ؟ – أمال ، دا فى كلية الحقوق ، ودى بتاعته .

(تدارك الطفل أنه إذ يتصور الله تلميذاً فى مدرسة إنما ينزل به عن المستوى اللائق ، فعدل الصورة بعض الشىء بأن ارتفع بالله إلى مستوى عمه الطالب بالحقوق ، ولم يكتف « بتنزيه » الله عن أن يكون تلميذاً صغيراً خاضعاً لأوامر والديه ، بل نزّهه أيضاً عن أن يكون طالب حقوق كغيره من الطلبة فاعتبره صاحب الكلية بأسرها .)

ويمضى الطفل فى « تنزيه » الله فيجيب على السؤال :

– ربنا مش بيلبس جزمة ليه ؟ قائلاً : – لما يلبس جزمة تقع السماع الأرض .

(أى أن الله أضخم من أن تحتمل السماء ثقل حذائه . لقد بدأ الطفل يعترف بعظمة الله وقدرته وعلوه بالنسبة للأب ، وبدأ – فضلاً عن ذلك – يرى فيه جانبى الخير والجمال « لذيذ » بعد أن كان منذ عام تقريباً لا يرى فيه غير جانب الإيذاء والقبح ، وبعد أن كان منذ نصف عام يراه ضعيفاً راضخاً « لعصاسيدنا محمد » ؛ كل ذلك إرهاص بأن فكرة الله على وشك أن تجد سبيلاً إلى نفس الطفل .)

تبرئة الله من تهمة إماتة الناس :

توفيت خالة الطفل ، وكثر الحديث عن موتها ومرضها قبل الموت . وعلى الرغم مما سمع فعند ما سئل :

– لما أخت ماما ماتت ، راحت فين ؟ أجاب :

– راحت الإسعاف . (الموت مرض مؤقت أو إصابة طارئة)

– ماتت إزاى ؟ – داخت وراحت واقعة ع الأرض .

– مين اللى موتها ؟

– الرجل العجوز موتها لما طلع ؟ (سنرى كثيراً أن الموت يقترن فى ذهن الطفل بالشيخوخة .)

– وأنت كنت زعلان ؟ – لأ . ماما بس كانت زعلانة .

– وأنت مازعلتش ليه ؟

– الله ! طيب وأنا مالى ؟! اللى يموت يموت... أنا ما أعيطش عشان أنا بقيت طفل فى المدرسة .

(كانت الخالة تعيش فى بلد بعيدة ، ولم تكن ثمة رابطة عاطفية تربط طفلنا بها ، ولذلك لم يحزن لفراقها .)

– هو ربنا اللى موتها ؟

– لأ ، ربنا ما يموتشى حد ، عشان هو عايز الناس عشان يديهم الفلوس .

(يتقدم الطفل نحو ارتضاء فكرة الله ، فهو ينزهه عن ذلك الشر ، الموت ، ويرى مهمته الرئيسية إعطاء النقود للناس .)

تمنى الموت مع الأم :

الطفل فى مطلع السنة الخامسة من عمره . دار الحديث التالى بينه وبين أمه إذ يسألها على ذكر وفاة أختها :

– هو إحنا بنموت ليه يا ماما ؟

وتنتهز الأم فرصة اهتمامه بالموت لتتخذ من فكرة الموت سلاحاً للتأديب فتقول :

– اللى ياكل حاجة وحشة ، أو يلعب فى التراب ، يموت .

– طيب . واللى ما يعملش كده ، ما يموتشى ؟

– آه . عشان ما يعياش .

– يعنى ما يموتشى أبداً ؟ – يموت بعدين .

– وربنا يموتهم ليه بعدين ؟

عجزت الأم عن الإجابة على سؤاله فأرادت أن تقطع الحديث ولكنه صاح :

– ياللا بقى نموت يا ماما عشان نروح الجنة سوا .

إذا كان الموت لا يفرق بين الأم وابنها بل يجمعهما سوياً ، فهو أمر مستحب .

ولكن الأم تخشى الموت وتتشاءم من ذكره، وقد هددت الطفل مرة فقالت له
– اسكت أحسن أموت واسيبك . فرد عليها مظهراً عدم اكتراثه بذلك قائلاً :
– وماله نينا (جدته) تأكلّني .

الموت شر إن أدى إلى حرمان الطفل من أمه ، وحرمان الطفل منها شر لأنه يتضمن الحرمان من عطفها وغذائها ، فإن كان ثمة من يحل محل الأم فى هذين الأمرين ، خف وقع الموت عليه إن حدث، وخف قلقه بخصوصه قبل حدوثه . أي أن كون الطفل يحظى بحب كبار غير أمه عامل كبير فى تخفيف الخوف من فراق الأم ، وفى دعم شعوره بالأمن إزاء المستقبل .

° ° °

الطفل الآن قد تجاوز الخامسة من عمره بشهر واحد ، وقد أصبح منذ أكثر من شهرين تلميذاً بروضة الأطفال ، وأصبح يسهم فى نشاط اجتماعى يتضمن الذهاب أحياناً مع الأطفال الآخرين إلى المسجد المجاور ، دون قدرة على تأدية الصلاة ، وإنما غيرةً منهم فى الغالب ، ورغبة فى تقليد من هم أكبر منهم سنا .

انتهزتُ فرصة عودته من الشارع حيث كان يشاهد جموع المصلين خارجة من صلاة الجمعة ، ودخلت معه فى حديث عن الدين . وأجريت عليه اختبارين للذكاء (پورتيوس وألكسندر) ، فكان سنه العقلى ٥ سنوات و ٦ أشهر ونسبة ذكائه ١١٠ .

بدأت الحديث بالسؤال التالى :

– أنت رحت الجامع ؟ – لأ . رحت المرة الثانية .
– وليه رحت؟ – كده . عشان أروح الجنة. أمال، عشان آكل تفاح.
– إيه الجنة دى ؟ – حلوه قوى .
– ليه حلوه ؟ – حلوه عشان ربنا كاتب عليها حلوه .
– كاتب عليها حلوة ليه ؟ – عشان هىّ فيها رمان وتفاح وموز وكله.
– ومين ربنا ؟ – ربنا هنا .

– هنا فين ؟ – هنا قدامنا وشايفنا . – إزاى شايفنا ؟ .
– كده ، عشان هو اللى بيديكوا الأكل . قال ماتبصوليش .
– هو شكله إيه ؟ – شكله أحمر ... لأ ، أصفر ... أزرق والا إيه .
– أنا مش باأقول لونه . شكله إيه ؟ – شكله (تفكير) ... أسود .
– أنت شفته ؟ – أمال باشوفه .
(خرج الطفل وتركنى فناديته أن يعود)
– بتشوفه فين ؟
– بشوفه (تفكير) ... فى بيتنا . والعصفورة بتسمعنى . لما أتكلم بتسمعنى . مثلاً يعنى لما أقول كلام وحش تروح تقول للأبلا (المعلّمة) ، يدخل أودة الفيران اللى فيها صراصير بتاكل .
– وأنت تحب ربنا ؟ – أحبه قوى ! – ليه ؟
– عشان هو بيجيب لنا الأكل . يعنى الشحاتين يبقوا جعانين .
– وبعدين ؟
– لما يبقوا جعانين ، مش راضيين يشتغلوا ، ربنا ما يرضاش يديهم فلوس ولا أكل ، وبعدين يوديهم النار ، وبعدين يحرقهم بق . وبعدين يروح حطه فى البحر ، وبعد ما يحطه فى البحر يحطه فى الجنة ، يحطه فى الخزانة بتاعته . وبعد ما يحطه فى الخزانة بتاعته يحط التانيين فيها ، وبعد ما يحطه فيها ، ياخد واحد منهم ويروح منزّله .
– منزّله فين ؟
– فى الخزانة . وبعد ما يحطهم فى الخزانة ، ياخد منهم واحد خروف يرميه فى الخزانة ، وبعد ما ياخد الخروف ياكل أرنب ، ويروح حطه فى الخزانة . بعد ما ياخد أرنب ، ياخد تمر يروح راميه فى الخزانة . وبعدين ياخد الفيل ، يقوم الفيل ده يجيب الخرزانة ، يروح حاططها . وبعدين يجيب الرمانة من الجنة يحطها فى الخزانة ، وبعدين يرمى الخزانة فى الميه . بعد ما يرمى الخزانة فى المية ...
(وهنا تركنى وخرج دون استئذان) .

وبعد أن عاد سألته :

– إيه الخزانة دى ؟

– بعد ما يحط فيها الخزانة ، يحط فيها البحر ، يروح راميها فى القطن . بعد ما يرميها فى القطن ، يرميها فى الفيران ، بعد ما يرميها فى الفيران يبقى خلاص . وبعدين ، بعد ما يبقى خلاص ، يموت طفل منهم . . .

– مين اللى يموت الطفل ؟ – ربنا .

– ليه يموته ؟

– عشان يحطه فى الخزانة . أصل هو عايز عيال يدخلوا فى الخزانة يخلوا بالهم من الفيران دول ، وبعد ما يوديهم ، يجيب واحد اسمه سعيد يحطه فيها .

– مين سعيد ؟ – فى مدرستنا .

– صاحبك ؟

– آه . سعيد يمسك الخزانة ويضربه بالعصاية . ويضرب كل العيال دول عشان تبقى لحمه . بعد ما يضربهم ، حطهم فى الإسعاف ، بعد ما حطهم فى الإسعاف حطهم عند الحكيم ، بعد ما حطهم عند الحكيم مسك واحد إسمه إبراهيم راح ماسكه وراح حطه .

– الواحد لما يموت يروح فين ؟

– يروح فى الإسعاف ، ويحطه فى الطرقة ، وبعدين يجيبوا حديدة تخينة قوى ، واللى ميت يحطوه فيها ويقول يعيش جلالة الملك . . .

– اللى يموت يروح فين ؟

– يروح فى الخزانة . يحرقهم تانى ، يقوم يحطهم فى البير بقى .

– مين يحرقهم ؟

– ربنا . . . وبعدين يحطهم فى البير ، وبعدين يطلع الفيل ، وبعدين ربنا يقول للفيل ياكل كل الناس ، وبعدين يجيب ناس تانية ويموتهم كلهم ، وبعدين يحطهم فى البير ، وبعدين يحطهم فى الخزانة ، وبعدين يحطهم فى أودة

الأباز (؟)

— إيه الأباز ؟ — الأباز اللى فى النزهة (حديقة عامة بمدينة الإسكندرية بها حديقة حيوانات .)

— أنت شفت الخزانة ؟ — آه . أمال . . فى النزهة .

— فين فى النزهة ؟ — بعيد، الصغيرين مايعرفوش يروحوا لوحدهم.

— أنت تحب تروح فى الخزانة ؟ — أمال . أحب أروح البحر .

— الخزانة تحبها ؟ — آه ، قوى ، عشان حلوة قوى .

— وأنت بتخاف من ربنا ؟

— أبداً . أصل هو عالم فى الناس دول . هم ما يخدوشى الصغيرين . أصل أنا صغير . تعرف أنا عندى كام ؟ خمسة .

بالمقارنة بين حديث الطفل هذا وحديثه السابق منذ حوالى سنة ونصف مع جدته ، نلمس بسهولة أنه قد تقبل فكرة الله ، وأصبحت تلك الفكرة مندمجة فى كيانه النفسى ، مؤثرة فيه ومتأثرة به . لقد تقبل الفكرة إذ هو على عتبة العالم الخارجى بعد مغادرته منزل الطفولة إلى المدرسة ؛ وبدأت مداركه تزداد ويزداد معها علمه بالدين، فأضيفت إلى الله أمور دينية أخرى :

الجنة والنار ، وبدأ يتحدث عن الله فى تأدب ظاهر ، وخوف يظهر فى صور الظلام والإبتلاع والغرق والحيوانات المفترسة ، وكلها تخييلات لا تكاد تنفصل عن صورة الله ؛ الشعور بالذنب بدأ يلح عليه ، ومشاعره العدوانية نحو الله لا تزال هنالك ولكنها لم تعد صريحة كما كانت ، لقد فعل الكبت فعله ؛ أما الموت فيظهر باعتباره عقوبة قصوى ، يوقعها الله . وهذا تحول جديد إذ أن الطفل عند ما بدأ يشعر بالحب نحو الله ، نفى صلته بالموت . أما الآن فهو يسلم بالأمر الواقع وينسب موت الناس لفعل الله ، ولكنه لا يعترف بموته الشخصى لأنه لا يزال صغيراً ، أى أنه لا يتصور الموت إلا مقترناً بالعقوبة أو بالشيخوخة .

٦

طفل فى الخامسة من عمره،له أخت تكبره فى السابعة من عمرها . وهما على طرفى نقيض – فهوطفل عنيف ، متمرد ، ميال إلى العدوان ، حتى أنه اعتدى بالضرب على زميلة له بالروضة هى ابنة ناظرة المدرسة فطرد أياماً ؛فى حين أن أخته هادئة ،مستسلمة طيّعة . دار الحديث بينه وبين خاله ، قال الخال :

– تعرف ربنا فين ؟ فأجاب (بحدة) – ما أعرفوش ، أضربه بالمسدس (مقلداً حركات إطلاق النار) ، ما أعرفش هو فين .

– شكله إيه ؟ – بربرى ، ما أحبوشى .

– بتخاف منه ؟ – لأ ، ما خافش منه ، أضربه بالنار .

– مش عايز حاجه منه ؟ – لأ ، عايز أحدف له النار.

وعلى الرغم من هذه الجرأة فى مبادرته إلى الإجابة عن الله ، إلا أنه عندما سئل عن الموت لم يحر جواباً ، وذلك الصمت ينم عن قلق متصل بالموت . والطفل واضح العداء لله ، ينسج له الصورة التى ينسجها الطفل لعدوه المخيف عادة « بربرى وِحش » ، ويعرب صراحة عن الرغبة فى قتله بالرصاص كما لو كان يود الانتقام منه . ولا شك أن توهم الطفل عداء الله له إنما هو انعكاس لمشاعره هو العدوانية نحوه . والذى نؤكده استناداً إلى حرفية الحديث ، هو اعتقاد الطفل أن الله مصدر أذى ، وأن شعوره نحوه شعور البغض ممزوجاً بالخوف الذى تبدّى فى تجنبه الحديث عن الموت . ولعل الطفل يقرن فى لاشعوره بين الله وفعل القتل .

الفصل الرابع

الأطفال بعد سن السادسة

٧

« عمر » طفل فى السابعة من عمره ، الأخ الأوسط لأخوين أصغرهما « شريف » (رقم ٥) ، وأكبرهما « رفعت » (رقم ١٤) . متوسط الذكاء (١٠٢) وذلك حسب نتائج اختبارات ثلاثة : بناء المكعبات ، ومتاهات پورتيوس ، ورسم الرجل . طفل نظيف ، معتز بهندامه ، رزين ، شديد الحساسية ، مطيع . وهذه الصفات تتفق مع سهولة تقبله لمعايير الكبار ورغبته فى تقديرهم له . يشعر أنه ليس محل اهتمام كبار الأسرة وتدليلهم كما هو شأن أخيه الأصغر . يحب الدراسة ، يود أن يتعلم أداء الصلاة . وفيما يلى نسجل الحديث الذى دار بينه وبين عمه إذ هو فى السابعة من عمره ، سئل :

— ربنا فين يا عمر ؟ — فى كل مكان .

— إزاى عرفت ؟ — أنا سألت ماما قالت لى إنه فى كل مكان .

— شكله إيه ؟

— أنا أعرف ؟ ! (مستنكراً) ، هو شايفنا إحنا مش شايفينه ، خلاص . حا أشوفه إزاى ! إحنا دى الوقت قاعدين ، هو شايفنا .

— هو قاعد فين ؟ — فى كل مكان .

— بيعمل إيه ؟ — قاعد .. أنا مش شايفه .

— أنت بتحبه ؟ — آه ، قوى .

— ليه ؟

ـ عشان هو بيجيب لنا كل حاجة . وأنا بأحبه علشان هو بيقول لسيدنا موسى والا ّ مش عارف مين على القرآن .

ـ مين اللى خلقنا ؟ ـ ربنا .

ـ ليه ؟ ـ عشان ناكل ونتعلم فى المدرسة .

ـ أنت بتصلى ؟ ـ لأ .

ـ ليه ؟ ما بتخافشى منه ؟

ـ آه ، أخاف ، بس مش باصلى عشان آجى من المدرسة ألاقيهم صلوا .

ـ حنروح فين بعد ما نموت ؟ ـ حنروح التربة ، يعنى عند ربنا .

ـ نروح نعمل إيه ؟ ـ نروح الجنة واللى يروح النار .

برز فى هذه السن أثر البيئة والتربية ، وزادت مفردات القاموس الدينى الذى لم يكن يشتمل على غير كلمة واحدة فى سن الرابعة هى الله . أما الآن ، وفى هذا الحديث نرى كلمات الله ، الجنة والنار ، الموت ، سيدنا موسى ، الخلق ، القرآن . ونجد ـ فضلا عن المفردات أو التصورات المفردة ـ عقائد مثل : وجود الله فى كل مكان ، الله رقيب يرانا دون أن نراه ، الله خلق الناس ؛ ونجد أخيراً شعور الطفل بضرورة تأدية الواجب الدينى ، أعنى الصلاة .

* * *

نفس الطفل فى سن ٧ سنين و ٦ أشهر . قابلته بنفسى هذه المرة فوجدته أتقن الصلاة ، مزهواً بالمواظبة عليها فى مواعيدها ، مؤثراً تأديتها فى المسجد المجاور جماعة ً على تأديتها منفرداً فى المنزل . يتصرف فى الجلسات العائلية تصرف الكبار المتحفظين ، ولاينى عن نقد من هم أصغر منه إن بدر منهم تصرف طفلى أو صدرت عنهم ألفاظ لايقرها الكبار . ولاحظت أنه يحظى من وقت إلى آخر بإطراء كبار الأسرة على نظافته ورزانته ، ولكنه مع ذلك لايحظى بما يحظى به أخوه الأصغر المرح من اهتمام ومداعبات .

كان اليوم يوم جمعة . انتهزت فرصة عودة الطفل من صلاة الجمعة فطلبت منه أن يحادثني ، فسره ذلك وزاد سروره حين علم أنني سأسجل حديثه . بدأت الحديث بسؤاله :

— صليت النهار ده ؟ — آه
— فين ؟ — فى الجامع .
— وليه رحت تصلى ؟ — عشان أروح الجنة .
— وليه عاوز تروح الجنة ؟ — (تفكير ... ابتسامة ... صمت) .
— ليه ؟ — بدل ما أموت ، أروح الجنة .

(الجنة لا موت فيها ، والموت عقاب ينال العاصين)

— يعنى أنت مش عاوز تموت ؟ — آه ، مش عاوز .
— لكن أنت عاوز تروح الجنة ؟ — آه .
— هو اللى يموت ما يرحشى الجنة ؟
— يروح ... يعنى . . . مثلاً ، كان بيصلى ومات ، يروح الجنة .
— وأنت بتصلى ، حتروح الجنة ؟ — آه .
— مين حيوديك الجنة ؟ — ربنا .
— إيه اللى عرفك ؟ — مفيش حد .

الله :

— وأنت تعرف ربنا ؟ — آه ، أمال يعنى ما أعرفوش !
— تعرف منين ؟
— الله !... (تفكير) ، أعرفه وخلاص . أنا عارفه من زمان .
— وهو يعرفك ؟
— يعرفنى . هو شايفنا ، إنما ما يعرفشى إسمى . يعرف إسمى ليه !
— وأنت شفته ؟ — لأ .

– أمال إزاى تعرفه ؟

– الله ! مش كل الناس عارفاه .

– شكله إيه ؟

– (تفكير) هو إحنا شايفينه ؟ ! (فى استياء) ، هو شايفنا وإحنا مش شايفينه .

– وهو فين ؟ – فوق فى السما .

– بيعمل إيه ؟ – (تفكير) بيقول لسيدنا موسى القرآن .

– هو إيه القرآن ؟ – الفاتحة وكل حاجة .

– وأنت تخاف من ربنا ؟

– (تفكير) لأ ، أحبه .

(أنكر الخوف لأنه فطن إلى أنه ينطوى على العداء)

– تحبه ليه ؟ – عشان هو اللى بيجيب لنا الأكل .

– بيجيبه منين ؟ – من عنده .

– من عنده منين ؟

– الله ! مندهشاً ... وبعد تفكير يقول فى حدة :

– من عنده وخلاص .

– وأنت صحيح مش بتخاف منه ؟ – آه ، وربنا .

– ليه مش بتخاف منه ؟

– عشان هو اللى بيجيب لنا الأكل ، وهو اللى خالقنا .

– إزاى خالقنا ؟ – آهو خالقنا .

– إزاى ؟ – (تفكيرطويل)هو أناشفتهوهو بيخلقنا ، إيه ده !

– وبعد ما خلقنا ؟ – (تفكير) جاب لنا الأكل .

الموت وما بعده :

– وبعدين ربنا حيعمل فينا إيه ؟

– يخلى اللى بيصلوا يروحوا الجنة ، واللى مش بيصلوا يموتوا . رفعت (أخوه الأكبر) يصلى الصبح والمغرب والعشا بس ، ما بيصليش العصر ولا الظهر (يشعر بمنافسة ضد أخيه ، ويسعى إلى التفوق عليه فى استرضاء الله)

– وهو حيروح الجنة والا النار ؟ – حيروح النار .

(ليست هذه الإجابة استنتاجاً من العقيدة ، بل تعبيراً عن الرغبة الباطنة .)

– ليه حيروح النار ؟

– عشان بيلخبط فى الصلاة ، يصلى حاجة ويسيب حاجة .

– وأنت عاوزه يروح النار ؟ – لأ .

– ليه ؟

– (تردد) عشان أخويا ... فيه حد يحب أخوه يروح الجنة .

(هذا القول ترديد لقاعدة أخلاقية ، ولكن شعوره الحق بالعدوان ضد الأخ غافله وظهر فى فلتة من فلتات اللسان .) وقد استدرك فقال : فيه حد يحب أخوه يروح النار ؟ ! فسألته :

– واللى بيموت يروح فين ؟ – يودّوه الدفنة ، يدفنوه تحت التراب .

– ليه ؟ – كده .

– كده ليه ؟ – عشان... (تفكير) عشان حيودوه ... فين بقى بعد كده .

– وبعد ما يدفنوه ؟ – (تفكير فى عبوس) التعابين تاكله ، والنمل .

– وبعدين ؟ – (تفكير) ياكلوه بقى ، ويروح فى بطنهم بقى .

– وأنت عاوز تروح الجنة ؟ – آه .

— إمتى ؟ — يوم القيامة حاروح .
— إيه يوم القيامة ده ؟ — يوم القيامة عشان نموت ... حنموت يوم القيامة .
— مين اللى حيموت ؟ — كلنا .
— وأنت عاوز يوم القيامة ييجى ؟ — لأ .
— لأ ليه ؟ — عشان مش عاوز أموت .
— لكن أنت بتقول عاوز أروح الجنة ؟
— آه ، بأقول لكن مش عاوز أموت .
— أمال تروح الجنة ازاى ؟ — ربنا يودينا الجنة .
— وليه عاوز الجنة ؟ — كده . عشان ما أموتشى .
— طيب ما تفضل هنا ؟ — ليه ؟ !... أقعد لوحدى !
— لكن أنت مش لوحدك . أنت مع بابا وماما .
— الله ! ماهو بابا وماما حيروحوا الجنة .
— إمتى ؟ — يوم القيامة .
— مع مين ؟ — مع كل اللى كانوا بيصلوا .

(تمسك الطفل بفكرة الجنة يرجع إلى خوفه من الموت ورغبته فى حياة مستمرة ، الأمر الذى لا يتحقق فى هذه الحياة ولكن فى الحياة الأخرى ، فى الجنة . فهو يتجاهل الممر الضرورى إلى الجنة ، أعنى الموت ، ويتلهى بتأمل الجنة عن ذلك المصير المحتوم .)

— ومين كمان حيروح الجنة ؟ — كل اللى بيصلوا .
— وأنت تحب الصلاة فى البيت واللا فى الجامع ؟
— فى الجامع أحسن .
— ليه أحسن ؟
— عشان بيبقى فيه عيال كتير نقعد معاهم ، وأحب أصلى جماعة .

— ليه تحب تصلى جماعة ؟

— بدل ما واحد يوطى كده ، والتانى يوطّى خالص وتبقى لخبطة فى الصلاة ، أحسن نصلى جماعة ، ويبقى نوطّى مع بعض .

الميلاد :

— أنت فاكر لما « شريف » (أخوه الأصغر) اتولد ؟

— لأ ، لما اتولد هو ، كنت أنا صغير ، كنت لسه بأرضع .

— وهو لما اتولد جه منين ؟ — من بطن ماما .

— إيه اللى جابه فى بطن ماما ؟ — ربنا

— حطه فى بطنها ؟ — لأ ، هى اتخلقت كده .

— هو إتحط فى بطنها إزاى ؟ — (تفكير) كده ... كل الستات كده بس .

— الستات بس ؟

— والرجاله ؟ — ما يولدوش حاجه .

— ليه ؟ — كده .

— وأنت تحب تبقى زى الستات ؟ — لأ ، الرجاله أحسن .

— ليه أحسن ؟ — (تفكير) كده ...

— كده ليه ؟ — عشان بيبقوا كبار ومعاهم فلوس .

— والستات مش ممكن يبقوا كبار ومعاهم فلوس ؟

— مين اللى يجيب لهم بقى الفلوس !

— عاوز تبقى راجل علشان الفلوس ؟ — أمال عاوزنى أفلّس !

— هى ماما مش معاها فلوس ؟

— معاها إنما بابا هو اللى بيديها . . .

• • •

الجديد فى معلومات الطفل الدينية وشعوره الدينى :

١ — فكرة «يوم القيامة» ومايتضمنها من فهم غامض لم يتحدد بعد لفكرة البعث .

٢ — الموت مصير الناس جميعاً، ولم يعد مجرد حادث فردى .

٣ — صلة الموت بالحياة الأخرى .

٤ — الصلاة وسيلة لاسترضاء الله، أى أن الطفل تقبل تقبلاً تاماً فكرة الله، وكبت كل محاولات نبذها، وكل المشاعر السلبية التى تساور صغار الأطفال حيالها .

٥ — تجنب الطفل الخوض فى الحديث عن ذات الله . لقد أصبح الدين «تابو» .

° ° °

٨

«خليل» عمره سبع سنوات . له أخت وأخ كلاهما أكبر منه . أسرة مثقفة، أب خيالى طيب القلب، مضطرب فى حياته، فنان عاطفى إلى حد كبير . الطفل شديد التعلق بأبيه، والأب شديد الإعجاب به والثقة بذكائه . تعلق الطفل بأبيه أكثر من تعلقه بأمه . أمضى الطفل طفولته نهب أمراض متناوبة، وعانى مخاوف الغارات الجوية أثناء الحرب بالإسكندرية . شديد الخوف وبخاصة من الظلام، يرافق أباه فى الطريق ويتشبث به حتى إذا اختفى عن بصره لحظة صرخ فى رعب، شديد العناد، ذكى، لبق فى حديثه . الأسرة معتدلة فى تدينها .

أسمعنى الطفل سورة «الفاتحة» وما أن ذكر إسم الله حتى بدأت الحديث :

الله والجنة والنار :

— مين ربنا — ربنا سبحانه وتعالى .

— تعرفه ؟ — ما اعرفش والله العظيم .

— هو فين ؟ — فى الجنة .

— فين الجنة ؟ — (تفكير مدة ليست قصيرة، يهز كتفيه فى حيرة) الجنة مش عارفها .

— تحب تروح الجنة ؟

— آه ، أروحها إذا كنت ما اشتمشى ، ما أعملشى حاجات . اللى يسب هو اللى يروح النار . (أثر التربية الأخلاقية واضح هنا) .

— إيه النار ؟

— حته محفورة . . . ويجيبوا شوية حاجات ويولّعوها ، ويرموا فيها الناس .

— ليه ؟ — عشان بيسبوا ويشتمرا .

— بيشتمرا مين ؟ — ولد مش بيعمل حاجة ، بيفضل يشتمه ويسب له .

— تخاف من الجنة ؟ — لأ . . . آه . . .

— ليه ؟ — كده .

— كده ليه ؟ — مش عارف .

— لأ ، أنت لازم عارف . — (صمت)

— ليه ؟ — مش عارف .

— تحب الجنة ؟ — أحب ربنا والجنة والنبى .

— أنت مش قلت تخاف من الجنة ؟ — آه .

— إزاى بقى تحبها وتخاف منها ؟ — ما أخافشى منها .

— تخاف من النار — آه .

— ليه ؟ — كده .

— كده ليه ؟ — عشان بيحدفونا فيها ، وبيموتونا تانى .

الموت :

— بيموتونا ليه ؟ — عشان إذا كان واحد يشتم والا حاجه

(الموت عقوبة توقع على المذنبين)

— الناس الوحشين هم بس اللى بيموتوا ؟

— لأ كلنا حنموت . . . اللى يشتم يودوه النار .

— جدى ، وجدى الشيخ ، وعمتى « أمينة » ، وناس كثير ماتوا ما أعرفهمش .

— أنت زعلان ؟ — زعلان . . . عشانهم كلهم .

— تحب كانوا يفضلوا ؟

— آه ... جدى كان عنده سبعين سنة . كان بيدينى فلوس ، بيدينى نعناع وكل حاجة .

(موت الجد منع عنه منافع مادية — الموت يقترن بالشيخوخة .)

ما بعد الموت :

— بعد جدك ما مات ، راح فين ؟ — لسه ما طلعشى . . . رحت زرته .

(كما لو كان ينتظر أن يخرج جده من القبر بعد حين ، ذلك أمل يساوره إذ يذهب لزيارة قبره .)

— زرته فين ؟ — فى العمود (مدافن بالاسكندرية) .

— هو فين دى الوقت ؟ — لسه فى التربة .

(الإنسان جسد فحسب مستقر فى التربة ، ولم تظهر بعد فكرة الروح)

— بيسمع ؟ — لأ ، ما يتكلمش أبداً .

(الموت توقف للوظائف الحيوية .)

— مش حيطلع ؟ — أهو يطلع يروح الجنة .

— الجنة بس والا النار كمان ؟ — الجنة بس .

(طبيعى أن يكون مصيره الجنة ما دام يحبه . الأمر يتوقف على مشاعره هو) .

— أنت مبسوط عشان حيروح الجنة ؟ — آه .

— ليه ؟ — كده

— كده ليه ؟ — فى الجنة بيأكّلوهم حاجات كتير ، بيعشّوهم هناك .

(يلاحظ أن الطفل بدأ يدرك تلاشى إرادة الفرد أمام الموت ، وفى الجنة والنار فهو يقول « يأكّلوهم ، يعذّبوهم ، يعيّشوهم ، يموتوهم » ، ولا يقول : « يأكلوا أو يعيشوا أو يموتوا ... » . الناس إزاء هذه الأمور خاضعون لقوة

مجهولة لا يملكون قبلها شيئاً .)

— مين يروح النار ؟ — الناس الوحشين .

— زى مين ؟ — زى واحد صايع ما يروحشى مدارس ، يسب ويشتم .

كنت أعلم أن الطفل يبغض إحدى معلماته فسألته عنها :

— أبله أنصاف حتروح الجنة ؟

— إيه عرفنى ؟ إن شاء الله تروح النار وخلاص ، مش باين على وشها الصلاة .

— بابا حيروح الجنة ؟ — آه .

— وأخوك ؟ — آه .

— وأختك ؟ — إيه عرفنى بقى ؟ هى مش بتصلى .

قرر الطفل أن «المعلمة» مصيرها إلى النار ، فهو يبغضها بغضاً واضحاً ، ولم يقرر صراحة أن النار مصير أخته التى تكبره مباشرة ، ولكنه لم يستطع أن يخفى أن ذلك أمر يرضيه على الرغم من محاولاته كبت بغضه لها . فعقيدة الجنة والنار لدى طفل فى هذه السن مطية لدوافعه حتى لما كان منها مناقضاً للدين ، أعنى للدوافع العدوانية

الله والملك :

— تحب ربنا ؟ — أحبه كتير أحسن من الملك مليون مرة .

— ليه أحسن من الملك ؟

— كده عشان بيودينى الجنة ، وساعات يودى الناس الوحشين النار .

(فى الدين إشباع تخييلى in phantasy لآماله ولرغباته العدوانية ، فيه تحقيق لما يريده من خير لنفسه ، ومن شر لمن يبغض .)

— أنت شفت ربنا ؟ — لأ ، ما حدش يشوفه ... ليه؟ ربنا فى بلد بعيدة خالص

— تطلب إيه من ربنا ؟

— إذا كان زى بابا (تمنى ، أى يا ليته كان مثله) شيكولاتة ، وحاجات ،

أطلع ضابط .

(أخوه طالب بالكلية الحربية ، وهو يتحرق شوقاً إلى أن يكون مثله فى رداء عسكرى ، حتى أنه قال معاتباً لأمه ذات مرة : ليه ما ولدتنيش قبل أخويا ؟.)

ــ ليه عايز تطلع ضابط ؟ ــ كده .

ــ كده ليه ؟ ــ نتعلم انتباه وطابور ومارش .

ــ تحب الملك ؟

ــ ربنا أحسن منه . مصورين الملك فى الجرنال بشريط أحمر وماسك سيف .

ــ بابا أحسن والا ربنا ؟ ــ ربنا .

ــ ليه ؟ ــ كده ، عشان ربنا بيجيب لنا ، بيخلقنا .

الخلق والميلاد :

ــ يعنى إيه بيخلقنا ؟

ــ يعنى ينزلنا من السما . . . ينزلنا صغيرين . . . كلنا جايين من السما كده .

ــ ماما جات منين ؟

ــ آه ، اتولدت مش جات . من نينا (جدته) ، قبلهم كلهم ، اللى عنده سبعين سنة جدى .

ــ ماما اتولدت ، وأنت جيت من السما ؟

ــ فيفى (أخته) اتولدت من أمى ، وأنا من أمى .

ــ ازاى اتولدت ؟

ــ أنا عارف بقى (متبرماً) أنا حا أعرفك ... تحبل ، وبطنها تتفتح ، والدايه تسحب الولد من بطنها ، وتقعد فى السرير لغاية « الأسبوع » وبعدين بقى تقوم تمشى وتهيص .

حينئذ بدا الملل على الطفل فنظر إلى ساعتى وأخذ يسألنى عنها ، وطلب منى أن أطفىء النور ليرى إن كانت عقاربها تضىء فى الظلام . ثم قال معرباً عن ملله :

— مش حتعطينى درس غير التقيل ده ؟

ثم يخرج من الحجرة ليحضر قلماً كى أعطيه درساً سهلاً ، وبمجرد عودته بادرته بالسؤال الأخير :

— الداية سحبت الولد من بطن ماما ، وإيه اللى جابه ؟

— ربنا بيجيب العيال فى بطن ماما .

يتبين من حديث ذلك الطفل نفس التناقض الذى وقع فيه الطفل السابق بصدد الموت باعتباره عقوبة المذنبين ، والجنة باعتبارها أملاً يحقق له الخلاص من الموت . ذلك تناقض من وجهة نظر المنطق الصورى ، أما من حيث الواقع النفسى فليس بتناقض ، لأن الطفل ولو أنه بدأ يدرك أن الموت حتم على الجميع ، إلا أنه لم يرتض بعد هذا الأمر ، ولم يمنعه ذلك من أن يحلم بحياة لا موت فيها .

ويتبين كذلك أن الطفل مضى فى التنزيه إلى أبعد من تنزيه طفل فى الخامسة أو السادسة ، فهو لا يعلى الله على الأب فحسب ، بل على الملك أيضاً . ويتبين أخيراً ظهور عنصر جديد فى المعرفة الدينية ، هو النبى .

٩

« عادل » طفل فى الثامنة من عمره ، والده متوفى ، له أخت واحدة تصغره بعامين ، وتكفله أمه الفقيرة التى تكسب رزق أولادها بنفسها ، «وتحرم نفسها كى لا تحرمهما من التعليم» . يتردد الطفل على مدرسة فرنسية . طفل ودود نشيط ، ذو قدرة لغوية بارعة ، وروح فكاهية طيبة ، تنم تصرفاته وتفوقه الدراسى وفهمه للأمور على ذكاء أكيد . غير أنه يعانى بسبب حرمانه من الأب ، وشعوره بألاسند لأسرته فى الحياة ، وذلك من عوامل إقباله الشديد على كل كبير يحبوه بعطف أو تقدير

لم أجد فرصة ملائمة لفتح باب الحديث عن الدين على نحو طبيعى ، فرأيت بعد حديث تمهيدى أن أعرض عليه قائمة من الأسماء ، وطلبت منه أن يتخير

أنسبها دلالة على الله وأن يرتب الأسماء المختارة بحسب أهمية كل بالنسبة للأخرى. وقد اقتبست هذه التجربة عن « إليزابث هرلوك » غير أننى أجريت على القائمة بعض التعديل، فضلاً عن أننى أضفت إليها أن أطلب من الطفل أن يشرح الإسم الذى يختاره، ويبين سبب اختياره له . وفيما يلى القائمة برمتها :

« الحاكم – القاضى – الصانع – الروح – الأب – الجبار – الحب – الإنسان – القوة – الملاك – الخالق – الكائن الكامل – المارد – الحامى – البوليس – المساعد – المسيح . »

ولم أكتف بإجابة الطفل ، بل اتخذتها تكئة لاستطالة الحديث معه فى موضوع الدين .

وفيما يلى أسجل نتيجة الحديث :

١ – الحاكم : لأنه مثل الرئيس وأحسن واحد فينا .

٢ – الأب : أبونا لأنه أكبر واحد فينا ، وأحسن واحد فينا ، ولأن كل الناس تعبده ، وعشان خالق أمنا وأبونا .

٣ – روح : عشان مافيش واحد يشوفه ، يعنى موجود فى كل حته . فى الحجرة وأمامنا ، هو يشوفنا واحنا مانشوفوش .

سألته كيف يوجد الله فى كل مكان فأجاب : أصله مش موجود بلحمه أمامنا.

٤ – الخالق : يعنى خالق الدنيا والناس كلهم وحده .

سألته : يعنى إيه ؟ فأجاب : – عمل الناس زى إحنا ما نصنع حاجة .

٥ – ملاك : عشان أصله مش زى الرجاله ، أو زى الأولاد يجرى ويسرق وينهب ، هو لو عايز حاجه تبقى موجودة . عشان كده يسموه ملاك .

سألته : – ما شكل الملاك ؟ فأجاب :

– له أجنحة ، يطير ويروح برضه مافيش حد يشوفه ، هو وراك ماسكك ... يغطس ماتشوفوش .

– إنت تحب تشوفه ؟ – طبعاً ، لكن ما أقدرش .

– مش كان أحسن بيان لنا ؟ – هو مش عايز إلا فى يوم القيامة .

– ليه ؟ – عشان لو نشوفه ، نقول إنه مش حاجة ،
لكن لو مانشوفوش نقوم نعبده .

نلمح فى حديث الطفل تزايد أثر التلقين بالنسبة للأعمار السابقة ، وطغيانه على التفكير الشخصى التلقائى . وقد علمت أن الطفل يتردد على جمعية دينية قريبةمن المنزل ، وكان أثر ما يستمع إليه فيها واضحاً فى بعض ردوده ، مثال ذلك ، عند ما سألته عن سبب اختفاء الله الملاك رد بما ينم عن عدم رضائه عن اختفائه ، ولكنه بحكم رغبته فى تقبل معايير المجتمع ، يرى ألا مناص من التسليم فيضمّن رده تبريراً لاختفاء الله استقاه من الخارج ، هو أن الله يختفى لأنه لو ظهر لنا كان ذلك حطاً من قدره فى أعيننا .

وقد عرفت أمراً آخر ، هو شدة تعصبه الدينى ضد الأديان الأخرى . والسبب فى ذلك أنه يتعلم فى مدرسة مسيحية دينية ، مما أثار لديه مشكلة الفروق الدينية ، وزاده تشبثاً بدينه كوسيلة دفاعية ضد بيئة يحس أنها معادية ، بيئة تستفز ميوله العدوانية . وقد نمى إلى علمى أن مناقشات حادة دارت بين الطفل ومعلم الدين المسيحى أثناء حصص الدين التى يتحتم عليه حضورها – تناول المدرس مرة عقيدة « التثليث » فعارضه الطفل فى وقاحة ، واتهمه بالكفر . وفى جدل آخر مع أحد أقرانه هدده بالضرب بالخنجر . ويهمنا هنا أن نسجل أن ظاهرة التعصب الدينى ، أى الإحساس بالقيمة الاجتماعية للدين تظهر لأول مرة فى هذه السن ، وأنها ظهرت مبكرة لدى هذا الطفل لظروفه البيئية الخاصة .

• • •

لمست فى الطفل استعداداً للمضى فى الحديث ، فطلبت منه أن يذكر لى صفات أخرى لله ، وبعد لحظة تأمل قال بالفرنسية : — qui est infiniment parfait, éternel

(اللا متناهي فى كماله ، الأبدى) . وهذه عبارة محفوظة كما يتبين من النقاش الذى أثرته على النحو التالى :

— يعنى إيه éternel (أبدى) ؟

— يعنى مش كافر . يعلم كل حاجة تجرى فى السماء والأرض ، مؤمن .

الجنة وجهنم :

— امتى ربنا يوديك الجنة ؟

— لما ما أقولشى كلام قباحه ، ما اشتمشى أمى ، ما أسرقشى ، ما أنصبشى .
(ثواب الله وعقابه رهن بضمان رضاء الأم أو إغضابه إياها)

— وإيه الجنة ؟

— فيها أشجار ، وكل حاجة عايزها تلاقيها ... مثلاً تفاح ، موز ، وكل الفاكهة .

— وإيه جهنم ؟

— (فى تضجر واضح) ما تفلقنيش بجهنم ، فيها نار وعفاريت ، كل حاجة وحشه ، مش عاوز افتكرها .

(عبارة مشبعة بانفعال الخوف الذى يجعله ينسج بخياله صوراً طفلية عن النار) .

١٠

« آمال » طفلة فى التاسعة من عمرها ، من أسرة معدمة هجرها عائلها بحثاً عن القوت . لها أخت فى السادسة من عمرها وأخ فى الثالثة وأخت صغرى فى الشهر السادس . وهى من الحالات التى عرضت علىّ بمكتب الخدمة الاجتماعية بمحكمة الأحداث لاتهامها بالشروع فى قتل طفلة أخرى بزجاجة مكسورة .

التهمة غير ثابتة ، وتنكرها الطفلة بكل قوة . تعانى الطفلة قلقاً شديداً يبدو من اضطرابها فى الحديث ، ومص الأصابع ، والخوف الشديد من الظلام والوحدة والأغراب . تخاف مغادرة المنزل ليلاً ، وترفض الذهاب وحدها ليلاً إلى دورة المياه ، كما لاتنام إن لم ينم إلى جوارها أحد . تعلق طفلى زائد بالأم ... لم تقبل تأدية اختبار الذكاء ، لظنها أنه حيلة للإيقاع بها ، فلم أصر . ومضينا فى حديث عادى بعيد عن موضوع القضية حتى عرجت على الدين على النحو التالى :

الله :

— إنت مسلمة والا قبطية ؟

— (فى سرعة وحماس) مسلمة وموحدة بالله .

— يعنى إيه موحدة بالله ؟ — مسلمة .

— مين الله بقى ؟ — ربنا .

— موجود فين ؟ — (ضحك) فى السما . . . أنا أعرف فين بقى ؟ . .

— بيعمل إيه ؟ — (فى دهشة من السؤال) مين؟ ربنا ؟ أنا أعرف ! هو فوق ، إحنا تحت .

— وإنت تعرفيه؟ — أمى وستى وأبويا ، كلهم يعرفوه ... أنا لسه صغيره .

— يعرفوه منين ؟ — أنا ماشفتش .

— وانت تحبيه والا تخافى منه ؟

— كل الناس بيخافوا من ربنا ، حد ما يخافش من ربنا ؟ !

— ليه بيخافوا منه ؟

— آهه . . . اللى مايخافش منه يدوسه أوتومبيل . حد عالم اللى فى علم الله .

— ليه يدوسه ؟ — اللى فى علم الله بقى .

— وتحبي ربنا ؟ — وأنا كنت شفته عشان أحبه ! ؟

— يعنى عشان تحبيه ، لازم تشوفيه ؟

– آهه ، إن كان الإنسان بشوف واحد ، يحبه ... يعرف إن كان وحش والا كويس .

(اختفاء الله وعدم ظهوره للعيان يضايق الطفلة ، ويثير الريب فى حسن نيته).

– وانت تخافى منه ليه ؟

– خايفه يصدمنى أوتمبيل ، يعنى الواحد مش ضامن نفسه حيعيش والا يموت .

الموت :

– وماله لما الواحد يموت ؟ – آهه .

– يعنى مش عايزه تموتى ؟

– عايزه أموت ، لكن آهه . . . كل واحد عاوز يعيش .

– وانت عاوزه تموتى ليه ؟

– مش عاوزه أموت ، أموت والا أعيش . . . مش كلامى ولا كلام حد . دا كلام ربنا .

– يعنى ربنا اللى بيموت ؟ – ضرورى ، مفيش حد عالم بحد .

– وايه بيموت ؟ – الله أعلم . حد عارف ؟

– وبعد الانسان ما يموت يروح فين ؟

– هو وأعماله ... يروح الجنة ، يروح النار . إذا كان كويس يروح الجنة ، إذا كان وحش يروح النار .

– وانت حاتروحى فين ؟ – الله أعلم . أنا عارفه ؟ . . . كل حاجه بأمر الله .

لم يعد الذهاب إلى الجنة أو إلى النار رهنا بحب الطفل للشخص أو بغضه له كما كان الحال فى سن خليل [١] ، بل هو رهن بحسن السلوك أو سوئه . أى أن فكرة الحياة الأخرى كادت تتجاوز مرحلة التخييل إلى مرحلة العقيدة .

---

(١) الطفل رقم ٨ – انظر ص : ٨٠

١١

« سعد » فى العاشرة من عمره، قدم إلىّ من محكمة الأحداث . تعيش أسرته فى حى قديم بمثابة وكر إجرامى . أمه مطلقة من أبيه ومتزوجة للمرة الثانية . رفع الأب دعوى مروق على ابنه انتقاماً لمطلقته ، وزوج الأم يحاول إقناع الرجل بالتخلى عن دعواه . الأسرة جاهلة . الطفل يعمل صبى نقاش ، ويقضى وقت فراغه فى اللهو مع الأطفال الآخرين . يحب الطفل أمه، ويرضى عن زوجها ، ولايميل لأبيه فيقول عنه « يأتى كل ليلة سكران ويعزق فينا ضرب » . يتكلم فى جرأة، ويفكر على نحو اجترارى غير موجه .نسبة ذكائه ٦٥ (ضعيف العقل) .

مضينا فى الحديث عن مشكلته حتى ورَد ذكر زوج أمه فقال إنه ضعيف فسألته :

— هو عجوز ؟ فأجاب : — آه .

— عمره كام سنه ؟

— قرّب يموت . فاضل له ٤ سنين ، ٥ ، حاجه بسيطة . أبويا أكبر منه ... منه خمسين سنه .

(معنى هذا أن الأب أقرب إلى الموت من زوج أمه . فهل نربط بين قوله هذا وبين قوله قبل ذلك عن بغضه لأبيه ؟)

— الراجل التانى لما يموت يروح فين ؟ — يودوه القرافة .

— يعمل إيه فى القرافة ؟ — يدفنوه تحت .

— وبعدين يروح فين؟ — تحت بقى وخلاص. ع الجنة أو ع النار.

الجنة والنار :

— إيه الجنة دى ؟ — كويسه ، فيها كل حاجة .

ـ كل حاجة زى إيه ؟

ـ فيها نور (ينظر إلى المصباح الكهربائى) ، فيها كهرباء . أنا ساعات كل واحد ما يزقنى أسيبه وامشى . مش عاوز أكلم حد .

(نعلم عن الطفل أنه يعانى كثيراً من المخاوف ، أخصها الخوف من الظلام . وذلك من عوامل خوفه من الدفن بعد الموت لتصوره القبر ظلاماً دامساً ، ولذلك لم يكن غريباً أن يصور لنفسه الجنة مليئة بنور ، لا كنور منزلهم فحسب بل كالنور الكهربائى . وكأنه قد أراد بعد ذكر الجنة أن يؤكد براءته من الذنب حتى يضمن الجنة التى لا ظلام فيها ، فيقول إنه لا يعتدى ولو اعتدى عليه .)

الله :

ـ وانت حتروح فين ، الجنة والا النار ؟

ـ اللى يشوفه بقى ربنا . مكتوب هناك عند ربنا ، أنا عمرى فى حياتى ما سبيت لحد الدين . (يؤكد براءته ثانيا من الذنب مخافة عقاب النار .)

ـ أنت فكرك حتروح فين ؟

ـ (يتنهد) هو مكتوب عند ربنا ، مش عارف بقى ، يمكن أروح أى حاجة منهم الاتنين . لما حد يسب ربنا يكتبه عنده .

(سب الدين هو الذنب الأكبر ـ لم يعد إغضاب الله رهناً بإغضاب الأب بل بمخالفة الدين .)

ـ يكتبه إزاى ؟ ـ (ينظر إلىّ ويشير إلى القلم) زى انت ما بتكتب .

ـ هو له يد ؟ ـ أيوه ، أمال .

ـ شكله إيه ؟ ـ (مستنكراً) أنا شفت !؟

ـ أمال ليه تقول له يد؟ ـ هو مش زينا كده ؟ (مستفهماً)

ـ إيه شكله كده ؟

ـ هو أنا شفته (مستنكراً) ، ما شفتش إلا حاجه كده فى السما .

— شكلها إيه ؟ — بيضه ، ساعات حمرا قوى .
— والبيضه دى إيه ؟ — ما اعرفش .
— والحمرا ؟ — أحمر وخلاص بيطلع كده .
— وربنا هناك عند الحاجات دى ؟
— آه فوق . إنت مش بتشوف حاجه فى السما كده أبيض . آهو دا ربنا .
— وإنت بتخاف من الأبيض والأحمر ده ؟
— (فى استنكار) أخاف ؟ هو حاياكلنى ؟ دا يوم كانت الدنيا حر وفضلنا نلعب .
— بيعمل إيه ربنا فوق .
— قاعد بيكتب . لما حد بيشتم حد ، يقول له يابن الـ (. . .) ، يروح كاتب . أنا كل ما أمشى فى السكة أبص ألاقى عيال كتير بيجيبوا سيرة ربنا أفتكر بيشتدرا . مرة كان فيه عيل إسمه جرجس ، كنا بنلعب معاه بصيت لقيته داخ ، وقاعدين نقول حواديت وبعدين جرجس غلط وشتم ربنا . لما لقيته شتم ربنا جه البيه (الاخصائى الاجتماعى) ضربه بالقلم ، وإحنا كل ما يقول كده نشبع فيه ضرب لغاية ما طفش .
— وانت بتضربه ؟
— (بسرعة) مش أنا ، العيال كلهم ، أصله صاحبى .
— ضربوه ليه ؟ — بيشتم ربنا . إنت عاوز نسكت له !؟

الخلق :

— وانت بتخاف من ربنا ؟ — أخاف ، هو اللى خالقنى .
— خلقك إزاى ؟ — خلقنى ، خلق الدنيا بحالها .
— إزاى ؟ — يعنى جابنا .
— منين ؟ — مش عارف .

الشيطان :

— ومين بيموتنا ؟
— إزاى ؟ عزرائيل جه خد روحه ، هو مات من نفسه ، يمكن شنق نفسه ، ضرب نفسه بالسكينة . ديك النهار واحد بيتخانق مع بنته رماها من فوق السطوح ورمى نفسه وراها .
— مين اللى موتهم ؟ — الشيطان اللى قال لهم « أرموا أنفسكم » .
— إيه الشيطان ده ؟ — ما نعرفش ، الشيطان فى مخنا جوه .
— وهو فى مخك ؟
— آه ، جوه . أنا نوبة جيت فى « دير النحاس » (حى شعبى فقير من أحياء القاهرة) ، وفيه عيال بيصطادوا سمك ، وفيه حتة غويطه وأنامش عارف ، وأنا عاوز أنزل أغسل رجلى . وبعدين نزلت وبقيت ماسك فى الشجرة . . . لقيت حاجة سوده زى القربه بتاعة الخروف . . طبت لفوق وراحت نازلة . العيال لحقونى شدونى وضربوها بالغابة ، شدونى ورموا العصيان . رحت لأبويا قلت له ، قال لى « أصل الشيطان إبن كلب » . هو اللى قال لى ودايماً يكلمنى . فى السيما برضه الشيطان يطلع لبنى آدم ، دا رزيل .
— فى السيما ؟
— آه ، أمال . يطلع كده لابس زى البنى آدم ، يطلع لك كده فى وش الباب يقول لك اعمل كدا . أنا الوقت لما الشيطان يقول لى حاجة ما اسمعشى كلامه ، أنا مرة هربت من عمتى واحنا رايحين القرافة ، مشينا فى الجبل ، الشيطان قال لنا ادخلوا الحتة الغويطة دى ، دخلنا لقينا الشيطان بوزه طويل كده ، جرينا قعد يجرى ورانا . . .

يدل الشيطان فى حديثه على شىء خارجى هو ما يشير إليه الأطفال عادة باسم العفريت ، وشىء داخلى هو الميل إلى الشر ، ولكن الطفل يخلط بينهما .

وعلى الجملة فإن ذلك الطفل لضعفه العقلى وحرمانه من التعليم بل من التربية المنزلية أيضاً ، لم يستفد شيئاً من المعارف الدينية ، وبقى على تصوره الطفلى لله . علاقته بالله ليست علاقة طفل فى سنه يتحدث عما بعد الموت ، ويناقش فكرة الخلق والجزاء ، ثواباً وعقاباً ، ويشير إلى بعض المصطلحات الدينية كالروح والنبى ويوم القيامة إلخ . . . إنما علاقته بالله فى المستوى الانفعالى الصرف — حاجة إليه ، وخوف منه ، واستعطاف له مخافة الأذى . ونضيف إلى ذلك أن التعصب موجود لديه ولكن دون أدنى فهم للفروق الدينية .

١٢

« أحمد » عمره ١٠ سنين وستة أشهر ، عمره العقلى ١٢ سنة ، ونسبة ذكائه ١١٤ . تلميذ بالرابعة الإبتدائية ، متفوق دراسياً . الأب من طبقة الموظفين ، الأم متوفاة منذ أعوام ، تزوج الأب بعدها « ليجد من يخدم أولاده » . للطفل شقيقان أصغر منه وأخت من أبيه . الأب شديد الحرص على أبنائه وخصوصاً أبناء زوجته السابقة ، دائم الخوف أن يتعرضوا للمهانة من زوجه الجديدة . ولكن حرصه على ابنه « أحمد » يبلغ درجة الهوس ، فتعلقه به تعلق عصابى يسىء إلى الطفل أشد الإساءة ، فهو يطالبه بأن يكون مثالياً فى دراسته وتصرفاته وإنجازه للوعد ، ولا يدعه يفعل شيئاً وحده بل يتدخل فى أكله واستذكاره ويساعده فى استحمامه . الطفل متعلق بأبيه تعلقاً شديداً ، يشعر نحوه بالذنب ، وإن كان يضيق بقسوته . وفضلاً عن ذكائه فهو رقيق الحساسية ، ذو قدرة فنية طيبة إذ يحسن الرسم ، وذو قدرة على الحديث جيدة .

دار حديث ودى طويل بينى وبين الطفل فى موضوعات شتى حتى جاء ذكر الصلاة فسألته :

الصلاة :

— بتصلى ليه ؟ فأجاب : — عشان بابا بيقول لى .

ـ وهو لازم تصلى ؟
ـ لا بد الواحد يصلى . أنا مش باصلى غير الصبح بس فى البيت .
ـ بابا يعرف ؟ ـ آه . بس الجمعة أروح معاه أصلى الجمعة .

التفكير فى الخلق :

ـ إيه رأيك فى الدين ؟ ـ كويس .
ـ مفيش حاجه شغلاك ؟ ـ لأ .
ـ مش بتفكر فى ربنا ؟ ـ لأ .
ـ أبداً ؟ ـ بس أفكر إزاى خلق ربنا .
ـ تفتكر إزاى ؟
ـ مش عارف ، بيقولوا قطعة من الشمس وقعت فى الأرض وبعدين لما المطر نزل عليها بقت أرض .

(الخلق الذى يشغل باله لم يعد مجرد خلق الله للإنسان ، الأمر الذى يشغل الطفل العادى قبل هذه السن ، بل خلق الله للكون كله . وهو هنا يشير إلى النظرية الجغرافية المعروفة عن انفصال الأرض عن الشمس بعد أن كانت جزءاً منها .)

ـ مين بيقول كده ؟ ـ أسمع من تلامذة الفصل .
ـ تفتكر دا كلام معقول ؟ ـ أفتكر .
ـ وإحنا اتخلقنا إزاى ؟ ـ من طين .
ـ منين عرفت ؟ ـ بابا قال لى .
ـ وده معقول ؟ ـ آه معقول .
ـ يعنى عشان خاطر بابا ؟ ـ أبداً من غير بابا ، أنا برضه عارف لأن ربنا يقدر يموّت الواحد ، ويقدر يخلقه .

الموت :

– ربنا يموّت الواحد إزاى ؟

– أى حادثة يروح فيها ، أوحتّى بدون حادثة .

(لم يعد الموت كما كان فى الطفولة الأولى حادثاً طارئا غير طبيعى .)

– إزاى يموت بدون حادثة ؟ – ربنا ياخد أجله على طول .

– إزاى ؟ – أنا عارف ؟ !

– مش لازم لها سبب ؟ – مش عارف .

نشأة الإيمان بالله :

– إنت عندك حاجات مش عاوز تقولها ؟ – أبداً .

– يعنى إنت مؤمن بالله كويس ؟ – أيوه .

– من إمتّى ؟ – من يوم ما عرفت إن فيه ربنا .

– كان إمتّى اليوم ده؟ – يوم لما كبرت (ضحك) لما رحت المدرسة .

– إزاى اكتشفت إن فيه ربنا ؟ – بابا قال لى . هو فيه حد مش عارف أن فيه ربنا ؟ ! مش معقول .

التعصب :

حينئذ أردت أن أدخل معه فى جدل لأثير ما يخفى من أمور فقلت له :

– آه فيه . فقال : – لأ . يبقى كافر . فقلت :

– أقول لك مين ؟ – آه .

– إنت قبل ما تروح المدرسة ماكنتش تعرف ، يبقى كنت كافر ؟

– لأ فيه عيل صغير عمره ٣ سنين مش بيعرف .

– واحد مسيحى مش عارف الإسلام يبقى كافر ؟

– لأ ، عشان مافيش حد نبهه أن فيه إسلام .

— كل المسيحيين مش كفار بقى ؟
— لأ كفار عشان عارفين أن فيه إسلام .
— يتعذبوا ؟ — آه ، ويموتوا .
(لا تزال فكرة « الموت عقاب المذنب » موجودة)
— ما إحنا حنموت .
— لأ ، إحنا حنروح ناخد الجزاء ، وبعدين نروح الجنة ، وهم يموتوا على طول.
(العقوبة الحقة إذن هى الموت الدائم .)
— هم ذنبهم إيه بقى ؟ — ما آمنوش بالله .
— إنت كنت زيهم قبل ما تكبر . — لأ . عشان هم كبروا .
— إنت عرفت الإسلام من بابا ، ولو بابا مش هنا كنت تبقى مسلم ؟
— أبقى مسلم برضه . أى واحد غير بابا كنت أعرف منه .
— إذا كان بابا وماما وكلهم مسيحيين ، يبقى ذنبك إيه ؟
— ما ليش ذنب ، أطلع مسلم وأبعد عنهم .

(أصبحت طاعة الله أوجب من طاعة الوالدين . ما ذلك إلا لأن الدين أصبح رباطاً اجتماعياً أشمل من رابطة الأسرة ، وسنعرف فيما بعد صلة ذلك بالتعصب والاعتقاد المتحامل prejudice .)

ثم أعدت عليه السؤال مرة أخرى :

— لو كان الكل مسيحى ؟ فأجاب : — كنت أطلع مسيحى .
— يبقى عليك ذنب ؟
— لأ (تردد) ... لو كبرت وعقلت آه . لكن لو صغير لأ ، عشان هم أرغمونى.
— ومين قال لك إن الإسلام أحسن ؟ — بابا
— لو بابا كان مسيحى كان قال لك المسيحية أحسن ؟
— (تفكير) لو كبرت وعرفت إن الإسلام أحسن ، كنت أطلع مسلم .
— وتخالف بابا ؟ — فى إيه ؟ (بدهشة) . . . أيوه كنت أخالفه .

— متأكد ؟ — (ضحك) أيوه متأكد .

يتبين من ذلك الجدال أن الطفل يدور حول فكرة سابقة يسلم بصحتها ، هى أفضلية دينه على كل ما عداه ، وبرغم أنه يفطن من حين إلى حين إلى ما تجره إليه هذه الفكرة من تناقض إلا أن ذلك لم يزده إلا دفاعاً عن دينه وتشبثاً به . لقد أصبح الدين ضرورة نفسية ، كأى اعتقاد ، أو بالأحرى كأى رأى سابق أو تحامل prejudice يؤدى وظيفة نفسية .

الجنة وفكرة الجزاء :

— عاوز تروح الجنة ؟ — آه .
— ليه ؟
— (تفكير) من حقى أروح ، عشان ربنا قال المسلمين يروحوا الجنة .
— عشان كده بس عاوز تروح الجنة ؟ — آه .
— ولو كنت بتعمل غلط ؟ — برضه ، ربنا يعطينى جزائى وأروح الجنة
— وإيه الجزاء ده ؟ — يعذبنى فى النار .
— تقدر توصف النار ؟ — والله ما أقدرشى .

لم تعد الجنة مجرد تخييل من التخيلات العابرة التى تشبع رغبات الطفل إشباعاً وهمياً ، بل أصبحت فكرة ثابتة بسبب ارتباطها بفكرة ناشئة هى فكرة الجزاء ، وحيث إنها لم تعد متوقفة على الرغبات الذاتية فقد تحولت من مستوى التخيلات إلى مستوى العقائد . ونلاحظ إعراضاً عن وصف النار ، مما يدل على أن الطفل بلغ من النمو درجة التخلى أو محاولة التخلى عن التصورات الطفلية للعالم الآخر .

— ليه ماتقدرش توصف النار ؟ — عشان ما شفتش فيها إيه .
— منين عرفت أنها موجوده ؟ — ربنا قال .
— يعنى شفته ؟ — لأ .
— منين عرفت أنه موجود ؟ — بابا .
— لو كان بابا ما قالش ، كنت عرفت ؟
— كنت فكرت وكنت عرفت مين اللى خلق الدنيا .

العقائد يتمثلها الطفل من البيئة وعلى وجه الخصوص من الشخص المفضل ذي النفوذ كالأب ، ويرتضيها حقيقة مسلماً بصحتها ، لا يناقشها لأنه لا يشك فى صحتها . ولكن يتغير الحال فى الطفولة المتأخرة حين ينهض التفكير الشخصى من مرقده ، ويبرز لا ناقداً للعقيدة (فذلك أمر لا يحتمله الطفل الساعى بكل كيانه إلى الاحتماء فى المجتمع ومن ثمة إلى اعتناق معاييره) بل مؤيداً لها ومثبتاً . وقد خشى طفلنا هذا أن تظهر العقيدة غير مستندة إلى ضرورة عقلية ، فحاول أن ينكر أنها تعتمد على رأى أبيه .

الله :

— تقدر توصف ربنا ؟ — ما أعرفشى أوصفه . ما شفتوش . (تنزيه الله) .
— تحب تشوفه ؟ — لأ ، مش دى الوقت .
— ليه مش دى الوقت ؟
— عشان لو عزت أشوفه أموت ، وبعدين أطلع فوق أشوفه .
— يعنى كلنا قبل ما نشوفه لازم نموت ؟ — آه .
— وبعدين ؟ — أشوفه على طول .
— تفتكر يكون إيه ؟ — ما أعرفشى .

(الجنة أو لقاء الله أمر غير مستحب بالنسبة لطفل أصبح فى سن تؤهله لأن يدرك أن الموت أمر عام لا مفر منه ، ذلك أنه بمثابة جواز المرور إلى الجنة حيث يلقى الطفل الله . وعليه فالطفل قد يخفى ضيقاً بفكرة الجنة لأنها تتضمن التضحية بالحياة ، فى حين أن الطفل الصغير بوسعه فصل الاثنين ، الجنة عن الموت ، لأن تفكيره فى الجنة مجرد تخييل حر من قيود العقائد التقليدية الثابتة .)

الله والأب :

— والجنة شكلها إيه ؟ — الواحد يقعد مرتاح فيها ، ما حدش يضايقه .

— وإيه اللى بيضايقك ؟ — أكثر حاجة ، الضرب .

— إيه تانى ؟ — بس .

— الضرب من مين ؟ — من أى واحد .

— مين بيضربك ؟

— أهزر مع واحد ، بابا يضربنى ؛ ما اسمعشى كلامه ، يضربنى ، اتضايق .

— وله حق يضربك ؟ — أيوه (ابتسامة) عشان يربينى .

— أمال بتضايق ليه ؟ — يعاملنى أحسن من الضرب شويه .

— زى إيه ؟ — (تفكير) يصبر علىّ شويه .

— ما تخليه يصبر ؟ — مش بيصبر .

— والعمل إيه ؟ — أتوكل على الله .

— لو تتوكل عليه ينقذك من الضرب ؟ — أيوه .

— هو يخلى بابا يصبر ؟ — لما أتوكل على ربنا ، بابا يصبر .

— مش أحسن تكلم بابا بصراحة ؟ — يكون أحسن .

— وإيه مانعك ؟ — الواحد نفسه بتمنعه ، لو قلت له على عمل وحش يضربنى .

— تقوم تضطر تكذب ؟ .. — آه .

— ولما تكذب ؟ — يضربنى .

— وربنا يعاقبك ؟ — آه (ضحك) .

يضيق الطفل بأسلوب الأب فى معاملته ، وتزمته فى تربيته ، وهو يحتمل فى صبر ينطوى على التمرد ، الذى لا يطول أمده كما سنبين عند الحديث عن الدين فى المراهقة ، ونلمس من حديثه هنا أنه يستغيث بالله ، ويعبر — إذ يضحك خجلاً — عن حيرته كيف يعاقبه الله على الكذب الذى يضطره إليه اضطراراً أبوه بأسلوبه المتزمت .

ليس ببعيد أن الطفل فى هذه السن يغالب بعض الشكوك الدينية .

١٣

« حلمى »، العمر ١١ سنة ، نسبة ذكائه ٨٢، مسيحى . أحيل إلى محكمة الأحداث بتهمة التشرد . طفلى فى اهتماماته وتصرفاته، حتى أنه حبًّا فى ركوب الدراجات التحق بعمل صبى فى محل دراجات . شديد التعلق بأمه والاعتماد عليها . الأسرة فقيرة لا تهتم بتنشئة الطفل تنشئة دينية .

دار الحديث على النحو التالى :

الدين والشعور الجمعى :

— بتصلى ياحلمى؟ — لأ

— ليه ؟ — ما أعرفشى

— مش عاوز تصلى ؟ — ما أعرفشى

— والدك مش بيصلى ؟ — لأ

— ووالدتك ؟ — لأ.مش بتصلى

— لكن أنت دينك إيه ؟ — (مستفهماً) دينى إيه ازاى ؟

— إيه دينك ؟ — نصرانى .

— يعنى إيه ؟ — قبطي .

— قبطى يعنى إيه ؟ — أنا عارف ؟!

— أمال بتقول قبطى ليه لما أنت مش عارف ؟

— القبطى بيصلى فى الكنيسة .

لا يفهم من الفروق الدينية غير مظاهر سطحية صرفة ، هى أن المسلم هو الذى يتردد على المسجد ، والمسيحى هو الذى يتردد على الكنيسة . وعلى الرغم من أنه شأن كل أفراد أسرته لا يزاول الدين ، إلا أنه يشعر بأن الدين رابطة اجتماعية تربطه بغيره من الأقباط .

— وليه القبطى بيروح الكنيسة ؟ — والله ماعرف ، عمرى ما دخلت .

— ما تعرفش إزاى ؟ — بأدخلها كل سنه بس ، فى بلدنا .

— وليه بتدخل ؟

— أصل فيه واحد تقول له هز النخلة يا عريان ، يهزها ماتشوفوش .

— وإيه « عريان » ده ؟ — بتاع المولد .

— مولد مين ؟ — المولد بتاعنا فى حلوان .

« عريان » اسم أحد القديسين ، يقام له احتفال سنوى كبير . وهذا الطفل شأن صغار الأطفال (أو غير الناضجين من كبارهم) ، يهمه من دين بيئته مظاهره البراقة كالمولد والأعياد وفوانيس رمضان ، أو هدايا عيد الميلاد . للدين أهمية لهؤلاء من حيث هو يشبع بعض رغباتهم الطفلية .

الله والخلق والميلاد :

— كان إيه سيدى العريان ؟ — والله ماعرف .

— اللى بيروح الكنيسة بيروح ليه ؟ — بيصلى عشان ربنا يستره .

- ومين ربنا ؟ — اللى خالقنا .
- يعنى إيه خالقنا ؟ — هو اللى والدنا وجايب لنا كل حاجة .
- مين اللى ولدك ؟
- أبويا ، لكن . . . ربنا . . . أستغفر الله العظيم من كل ذنب هو اللى ولد أبويا وكل واحد .
- ربنا بيولد ؟ — خالقنا .
- تفتكر إزاى خالقنا ؟ — الناس بيقولوا رسم رجل فى التراب طلع راجل .
- ورأيك إيه فى الكلام ده ؟ — مش مصدق .
- ليه ؟ — أنا عارف !
- طيب تفتكر إزاى خلقنا بقى ؟ — الكلام بيجى من مخنا .
- هو موجود فين ربنا ؟ — فى الجنة . . . أستغفر الله .
- ليه بتستغفر؟ — أحسن يموتنا (ضحك بخجل) .

الموت :

- ليه يموتك ؟ — (صمت)
- ليه ؟ — (صمت)
- أنت خايف تموت ؟ — آه .
- ليه ؟ — كده .
- وماله أما تموت ؟ — (صمت) .
- الموت وحش ؟ — آه ، صعب ، الدود ياكله .
- وإيه كمان ؟ — ويبقى عضم .
- وإيه تانى ؟ — بس .
- وخايف من ربنا عشان كده بس ؟ — خايف من الدود .
- يعنى مش خايف من ربنا ؟ — خايف .
- ليه ؟ — الدود .

الشيطان :

تركت موضوع الدين جانباً، وتناولت بالحديث علاقته بوالديه، ففهمت أنه شديد الحاجة إلى أمه ، ويلذ له فى هروبه أن يعلم أنها تجدّ فى البحث عنه .

ثم سألته :

— بتهرب ليه ؟ فأجاب : — الشيطان بيوزنى .
— شفت الشيطان ؟ — (متسائلاً) فين ده ؟
— أنا عارف ، إنت بتقول ؟ — هو يوزنى وخلاص .
— إزاى يوزك ؟ — يقول لى إمش إهرب .
— بتسمعه ؟ — أيوه .
— إزاى ؟ — من مخنا برضه .

تفكير الطفل الدينى إن قورن بغيره ممن هم فى ظروفٍ بيئية أفضل وبذكاء أعلى أقل من مستوى سنه : فهو يختلف عن الطفل السالف الذكر (رقم ١٢) فى عدم تنبهه إلى الخلق من حيث صلته بالكون ، ولا يزال تفكيره فى الخلق متصلا بالإنسان وبفعل الميلاد بالذات . ولكنه بدأ يدرك أن الشيطان حقيقة سيكولوجية وليس وجوداً موضوعياً ، وبدأ يفطن إلى القيمة الاجتماعية للدين .

الفصل الخامس

تتبع التطور الدينى لطفل من سن ٥ حتى سن ١٠

١٤

« رفعت » فى سن الخامسة والنصف

له أخ فى الثالثة [١] وآخر رضيع [٢] . ولد بعد وفاة أخ له فى الشهر العاشر من عمره ، الأمر الذى جعله عزيزاً على والديه ، وجعل أمه بصفة خاصة شديدة الحرص عليه ، والقلق على حياته . طفل نشط ، اجتماعى ، محدّث ، جرىء فى تعامله ، سواء مع الأطفال أو مع الكبار . يعيش مع والديه ، وفى نفس المنزل (فى شقة مجاورة) تعيش جدته لأبيه ، وهى سيدة متدينة ذات أثر كبير فى الطفل ، فهى تسمح له بحرية فى تبادل الحديث ويلذ للطفل ذلك . الأسرة مثقفة ، يستمع الطفل إلى مناقشات كبارها فى شتى الموضوعات وبعض من هؤلاء متدين . بجوار المنزل مسجد يرى الطفل المصلين يؤمونه ، ويستمع إلى الأذان من وقت إلى آخر . قست ذكاء الطفل عندما بلغ العاشرة فتبين أن عمره العقلى ١٢ سنة و ٣ شهور ونسبة ذكائه ١٢٢ . أى أنه ذكى جداً ، وذلك أمر يؤكده مسلكه ولغته فضلا عن تحصيله الدراسى .

الله :

بدأت الحديث :

— ربنا فين ؟ فأجاب مشيراً بيده إلى أعلى : — فوق .

(١) « عمر » (رقم ٧) .
(٢) « شريف » (رقم ٥) .

— فوق فين ؟ — هو يشوفنا إحنا مانشوفوش .

— بإيه يشوفنا ؟ — بعينيه

— له عين ؟ — أمال إيه ! هو مش بنى آدم !؟ (فى لهجة احتجاج)

— شكله إيه ؟ — مالوش شكل يا أخى . البنى آدم هو اللى له شكل، إنما هو لأ . يوم القيامة نشوفه .

ذكر الطفل قبل ذلك أن الله من بنى آدم ، ثم يقول هنا إنه لا شكل له لأنه ليس بنى آدم . وقد يبدو ذلك تناقضاً فى ظاهر الأمر ولكن الواقع أنه مظهر للصراع بين تفكيره الطفلى الذى يفرض عليه أن يتصور الأشياء والكائنات على نحو تصوره للإنسان anthropomorphism وبين تعاليم البيئة التى تقول إن الله لا شكل له . فليس الأمر تناقضا منطقيا بقدر ما هو صراع فكرى بين تفكيره التلقائى وبين أثر التعليم . نخلص من هذا إلى أن الطفل لم يتمثل بعد فكرة الله ، ولكنه فى الطريق إلى تمثلها ، إذ يدافع عن تصور البيئة لها .

الموت :

ذكر الطفل كلمة « القيامة » فأردت أن أتبين إن كان يفهم معناها فسألته :

— يوم القيامة يبقى إيه ؟ فأجاب :

— شوف ، يوم القيامة يودوا الناس اللى شتموا ، ويخلوا اللى ماشتموش . فى الآخرة ربنا يصفر ، يقوم كل الناس الميتين وإحنا كمان . إحنا حنموت كلنا عشان لما تقع الطيارات كل يوم يبقى حنموت .

لا يزال التفكير غير مستوف لشرائط التفكير الموجَّه ، هو أقرب أن يكون تخيلات وخواطر متداعية وثيقة الصلة بالحياة الانفعالية والإدراك الحسى . ونلاحظ أنه وصل إلى تعميم الموت ، وذلك أمر لم نعهده فى هذه السن ، ولكن ذلك راجع إلى تأثير خارجى لا إلى تطور تلقائى لفكرة الموت ، فقد عانى الطفل من الغارات الجوية إبان الحرب الأخيرة إذ تقطن الأسرة بالإسكندرية ،

وكادت تصيبه شظايا القنابل إذ تجرى به أمه إلى المخبأ، ولاشك أن هذه الحوادث قد تركت فى نفسه أثراً سيئاً. وهذا هو السر فى أنه يقرن الموت بالطيارات .

سألته :

— طيارات إيه ؟ فأجاب . — لما يقعوا كلهم نموت .

— وإيه اللى يوقعهم ؟ — الحب ، مش فيه إنجليز يضربوا علينا .

الجنة والنار :

— حتروح الجنة والا النار ؟ — مانعرفشى .

— مين يروح الجنة ، ومين يروح النار ؟

— اللى يشتم يروح النار ، واللى مايشتمشى يروح الجنة ، ياكل فواكه وتفاح وكله . . . ما فيش حد يقول له إنت بتاكل من دى ليه .

فى هذه العبارة شعور خلقى ناشىء ، وهو دليل على أن الطفل بدأ التكيف للواقع والتحرر إلى حد ما من الحياة الغريزية الطفلية . ولكنه ينتظر الجزاء على ذلك جزاءً طفليا ، غذاء ، ويتمنى التحرر من قيود السلطة التى بدأ يرضخ لها راغما ، فيحلم بأنه فى عالم ليس فيه من يقول « إنت بتاكل من دى ليه ؟ » .
إن فكرة الجنة والنار من عناصر الواقع الذي يتحتم على الطفل التكيف له ، ولكنه يتقبلها من خلال ذاته ، أي أنها فى هذه السن ترتكز على ميوله الطفلية ولم تصر بعد اعتقادا .

سألته بعد ذلك :

— النار شكلها إيه ؟ فأجاب : — زى الفرن .

(بجوار منزل الطفل فرن يراه فى ذهابه وإيابه .)

— الفرن دا يكفى كل من شتم ؟

— آه . عشان واحد واحد يدخلوه . عارف ، الإنجليز لما يضربوهم العساكر يبقى الرغيفين بقرش بدل الرغيف بقرش .

ثم يشير إلى نظارتى ويقول :

– مش دى بتسعة جنيه ؟ لما يخرج الإنجليز يبقى النظارتين بتسعة جنيه .

يقرن بين فكرة العذاب أو العقاب وإيذاء الإنجليز للناس . فقد كانت الإسكندرية فى ذلك الحين مسرحاً لحوادث صدام بين الإنجليز والشبان المصريين ، وقد سمع الطفل كثيراً عن إطلاق النار على المتظاهرين . وطبيعى أن يسيغ introject مشاعر البيئة نحو الإنجليز وأن يوجه ضدهم مشاعره العدوانية. ومشاعره هذه هى التى تجعله يتصور عداء الإنجليز له وللناس ، ومن ثمة يُدخل الإنجليز ضمن فكرته عن النار . فهو يتلقى عقيدة النار من البيئة ، ولكنه ينسج لنفسه تصوراً خاصا من مدركاته هو : الفرن (لأن به نارا) ، والإنجليز (لأنهم يُلحقون الأذى والموت بالناس ، ويطلقون عليهم النار) ، ولكنه بحكم تفكيره الاجترارى فى هذه السن يقفز من الإنجليز – باعتبارهم عنصراً فى فكرة النار ، إلى الإنجليز ذاتهم كما يسمع عنهم من كونهم سبب الغلاء . فالألفاظ الدينية لا يقابلها فى ذهن الطفل فى هذه السن مدلول ثابت .

رؤية الله :

سألته :

– أنت تحب ربنا ؟ فهز كتفيه معرباً عن حيرته ثم قال :

– وأنا أشوفه منين ؟ . . . دا يوم القيامة .

– تحب تشوفه دى الوقت ؟ – (مؤكدا) أمال إيه .

– ليه تحب تشوفه ؟ – كده .

(لا يستطيع تبرير هذه الرغبة ، ولكن غيبة الله تقلقه .)

– كده ليه ؟ – عشان الإنجليز حيموتونا .

(الخوف من الموت – أو بالأحرى من القتل – يتملك الطفل ، وكما كان وجود الأب إلى جواره كفيلا بتخفيف ذلك الخوف ، كذلك كان يمكن أن يملأه الله أمناً .

غير أن الله لا يأتى إلى جواره بشخصه ، وذلك الوجود « غير الحاضر » لا يقنع به فى هذه السن الباكرة . هو إذن غير راض عن اختفاء الله ، حانق على الله من أجل ذلك حنقاً يُكبت كما تكبت شتى الميول العدوانية التى كان يعرب عنها صراحة وبدون تحرّج قبل هذه السن . فالطفل لا يغضب على من يؤذيه فحسب ، بل يغضب أيضاً على من يقف منه موقف عدم الاكتراث .

— ولما نشوف ربنا مش حيموتونا الإنجليز ؟

— لأ ، عشان ربنا يموتهم هم بقى .

— يموتهم إزاى ؟

— عنده بندقية كبيرة قوى ، يروح ينزلها فى مصر عشان فيه إنجليز كتير ، ويروح ضارب بم ، يروحوا ميتين .

(الله كفيل بإشباع ميول الطفل العدوانية ضد من يبغض أو يخشى من الناس .)

الملائكة :

— تعرف شكل الملائكة ؟

— أمال إيه ! أعرفهم ، هم فوق برده مع ربنا ، واحد للنار وواحد للجنة . يكون واحد شتم ربنا ينادى بتاع النار . . . عنده سلسلة يروح رابطه فى رقبته ويشده ، بتاع الجنه يمسكه ويوديه ع الجنينه يروح يقطف وياكل .

— عارف شكل الملاك ؟

— لما ينزلوا هنا نعرف . بتاع النار إسود خالص ، بتاع الجنة أبيض شكله جميل ، بتاع النار زى البواب .

يظهر الإحساس بالواجب الخلقى ، لا نحو المجتمع فحسب ، بل نحو الله أيضا . وتلك مرحلة أعمق فى تكيف الطفل للبيئة . ولكن فهمه للواجب لايزال فى مستوى « مبدأ طلب اللذة وتجنب الألم » — فالثواب إشباع نهمه للحلوى ، والعقاب إيذاء للجسم أو تقييده ومنعه من الحركة الحرة . وهو يتصور ملاك النار على صورة

بواب أسود يخشاه ، وهذا يبين لنا أن انفعالاته تسيطر على تصوراته وفهمه للموضوعات التى يستقى العلم بها من البيئة ، وكيفما يركب خياله الصورة التى تلائم اتجاهه الانفعالى يتسقط عناصرها من مشاهداته. وإن تصور الطفل للملاك جميلاً ، تابع لتصوره له خيراً . فليس ثمة تمييز فى ذهنه بين ما هو خير ، عطوف وما هو « أبيض جميل » ، فى حين أن ما هو شرير مؤذ — ومن ثمة مبغوض — فهو قبيح أسود .

حب الله :

— تحب ربنا ؟ — أمال إيه . أكثر من الناس كلها.
— ليه ؟ — عشان هو بيأكّلنا وكل حاجة .

وهنا أردت أن أتبين مدى عمق شعوره هذا فاعترضت قائلا :

— دى ماما اللى بتأكّلك . فأجاب غاضبا، ملوحاً بيديه :

— هو اللى يجيب الأكل ، ويحدف لنا الفلوس كمان . ربنا يعطى الناس يبيعوا ، واحنا نشترى منهم .

يتبين أن الطفل قد تقبل فكرة الله من البيئة حتى أصبحت فكرةً شخصية ، وإلا لما استطاع الدفاع عنها وتبريرها، كما يبدو أن وظائف الأب انتقلت إلى السلطة الجديدة التى اكتشف تفوقها على الأب .

الخلق والميلاد :

— مين خلقنا ؟ — ربنا .
— إزاى ؟ — وأنا أعرف . ما أعرفشى .
— يعنى إيه خلقنا ؟ — (تفكير) ما أعرفشى .

طبيعى — ولا يزال الطفل فى بداية هذه المرحلة — ألا يكون قد فهم بعد الحقائق اللاهوتية ، كالخلق والخلود والروح . ولكننى أردت أن أتأكد إن كان

قوله نتيجة عجز فعلى أو نتيجة مقاومة لاشعورية فقلت معترضاً :

— أمال ليه تقول إنه خلقنا ؟

— ما نعرفشى هو خلقنا إزاى .

وبرغم إلحاحى عليه فى السؤال فما أسفر ذلك عن شىء ، مما يدعو إلى الاعتقاد أنه قد يردد فى هذه السن كثيراً من الألفاظ الدينية دون أن يعى مضمونها اللاهوتى ، ويرتضيها فيما يرتضى من أمور من أجل التكيف للواقع . وعندما أيقنت من عجزه عن فهم فكرة الخلق ، تحولت إلى موضوع الميلاد .

— لما اتولد أخوك مين جابه ؟ — الداية .

— منين ؟ — من بطن ماما .

— وإيه اللى وضعه فى بطن ماما ؟ — ربنا ، قالت له ماما ، يا رب جيب لى ولد صغير .

(الله مسئول عن مجىء الأطفال ، المنافسين ، وذلك قد يكون من المآخذ التى يأخذها الطفل على الله .)

— إزاى ربنا وضعه فى بطنها ؟

— ربنا بعث لنا أكل كتير ، ويجيب لنا فلوس نشترى بها فراخ وأكل ناكله .

— الولد جاى من الفراخ ؟ — أيوه ، هو وجد الأكل قام كبر .

(لم يفطن الطفل بعد إلى أن العلاقة التناسلية هى علة الميلاد ، ولذلك يكتفى بتفسير يتفق مع فهمه المحدود وخبرته الضئيلة ، هو أن الأكل علة الميلاد ، ولكنه لا يغفل — وقد تقبل فكرة الله — عن اعتباره علة بعيدة .)

الموت :

— بعد ما نموت نروح فين ؟

— فى بحر ما فيش فيه ميه ، فيه تفاح . التفاح ده يوم القيامة يديكم التفاح ده . اللى فى النار يقوم مايا خدشى .

(عودة إلى فكرة الثواب والعقاب متصوَّرة تصوراً حسيا ، يُسأل عن الموت فيجيب عما بعد الموت ، وتلك ظاهرة شائعة لدى جميع الأطفال فى هذه السن ، لا يفكرون فى الموت فى ذاته بل فيما قبله أو بعده .)

— ساعة الواحد ما يموت ، يودوه فين ؟

— لما يكون الواحد بيشتم كتير ، يموته ربنا ويوديه التربة ، يحطوا عليه التراب ، والدود ياكله . واللى ما يشتمشى ومات ، يروح الإسعاف ويشرّبوه دوا لغاية ما يقوم . مايا كلوش الدود .

يتعرض الطفل هنا للموت من حيث مظهره الخارجى ، أعنى الدفن ثم ما يعقبه من نهش الديدان للجسم . ولكن ذلك ليس فى ذهن الطفل موتاً حقيقياً كما نفهم نحن من الموت ، بل مظهر مرضى . وما بشاعة الموت إلا لأنه تألـم بالحياة . فأن يدفن المرء حياً ، ويُهال عليه التراب ، ويتعرض لنهش الديدان ، ذلك أمر قاس ، ولابد أنه عقاب على ذنب جناه الميت . ومعلوم أن العقاب يقترن — فى شعور الطفل أو فى لاشعوره — اقتراناً ضروريا بفكرة الموت ، فهو بحكم الخبرة الماضية إذا أتى فعلا منكرا توقع عقابا عليـــه ، وتملكته المخاوف بهذا الخصوص . وهذه الخبرة تجعله إن أصيب بمكروه أن يظن أن ذلك راجع إلى ذنب ما ارتكبه ، وإن أصيب غيره بمكروه فلابد أن يكون ذلك دليلا على أن ذلك الغير قد ارتكب ذنباً ما . ولما كان الموت آلاما تنتاب شخصاً ما ، فلابد أنه عقاب على ذنوب جناها ، وما هى الذنوب فى نظر طفل فى الخامسة والنصف من عمره غير تلك التى تنهاه أمه عنها دواما ، كالسب والعصيان . . . . ولكن طفلنا — وهو أعلى من المستوى العقلى العادى ، وأوفر حظاً من أمثاله من حيث الحرية فى القول أو فى العمل — يفطن إلى أن من الأخيار من يموت ، ومع ذلك فإنه لايعدل عن نظرية « الموت عقوبة » ، وإنما يطوّرها فيجد الخلاص للأخيار من ذلك الموت ، إذ تسارع « الإسعاف » لنجدتهم بالأدوية الكفيلة بإنقاذهم من نهش الديدان . وبهذه

الإضافة يسد الطفل ثغرة فى نظريته عن « الموت عقوبة » . فلا يصبح ثمة ما يدعوه إلى التخلى عنها .

وقد رأيت أن أمضى فى مناقشة النقطة عينها فسألته :

— يعنى اللى ما يشتمشى مايموتشى ؟ فأجاب — : آه ، ربنا يخليه صاحى .

(إذن فالموت عقوبة ، وهو أمر ليس من شأن أحد غير الله وحده .)

فى سن الثامنة

الطفل فى سن الثامنة ، أى بعد عامين ونصف من المقابلة الأولى ، وقد أصبح منذ عام تلميذاً بالمدرسة الابتدائية . بقى نشيطاً اجتماعيا كما عهدناه ، مقبلا على الناس دون تهيب أو تردد . ولعلمى أن الطفل كلما أوغل فى فترة الطفولة المتأخرة عبأ قوى دفاعية معطلة للدوافع اللا اجتماعية ، وأصبح من ثمة أكثر تحفظاً فى التعرض للشائك من الموضوعات ، لم أشأ أن أتناول موضوع الدين مباشرة حتى واتتنى الفرصة الملائمة ، وهى مرض أخيه الأصغر ثم شفاؤه بعد تعاطيه دواء معيناً . وإذ هو يعلق على ذلك بقوله : « الدوا دا كويس لأنه شفى أخويا » اعترضت الأم — وكانت فى أشد القلق بسبب مرض ابنها ، وتشعر بامتنان شديد لشفائه — قائلة له : « ربنا هو اللى كويس ، هو اللى شفاه » . لم يرق ذلك الاعتراض لطفلنا ذاك ، فقال :

— لأ ، ربنا خلق الدوا كويس ، والدوا هو اللى شفاه .

ينبىء هذا الاعتراض عن ظهور بدايات التفكير الموضوعى الذى ينظم الأحداث فى سلسلة من العلل والمعلولات الطبيعية ، فهو لم يعد يتجاهل العلة الطبيعية لظاهرة ما ، ولم يعد يقنع برد الظواهر جميعاً إلى إرادة فرد ما . ولكنه قد تمثل فكرة الله ، وليس بوسعه أن يتركه خارج الظواهر دون وظيفة ، ولذلك فهو بعد أن يرد الظواهر إلى علة طبيعية يرد هذه بدورها إلى علة أخرى هى الله .

معنى ذلك أن الطفل أصبح فى تفكيره يوفق بين الأسلوب الموضوعى (الناشىء) والأسلوب السحرى (الآخذ فى الانحسار) ، فيبقى الله علة ولكنه يصبح مجرد علة بعيدة لا يلجأ إليها الطفل فى التفسير إلا بعد أن يستنفد التفسيرات الطبيعية .

عندما وجه الطفل الاعتراض السالف لأمه سألته :

— ليه ؟ الدوا هو اللى شفاه ؟ فأجاب :

— أصل هو (أخوه) كان مش بيقدر يتكلم ، بعدين ماما راحت الحكيم جابت له دوا عشان « اللحمية » . هى بتقول « ربنا خلاه يتكلم » قلت لها « لأ » ، الدوا خلقه ربنا كويس ، خلقه كويس عند الدكتور عشان لما يكون واحد عيان وأمه طيبة ، الحكيم يرضى يديها الدوا ده . إنما لو كانت مش طيبة كان يعطيها الدوا وحش . »

لا تزال بقايا الأسلوب السحرى فى التفكير موجودة على الرغم من محاولة الطفل التزام أسلوب التعليل الموضوعى . فهو يعترض على أمه ردها الشفاء مباشرة إلى إرادة الله ، ويعتبر العلة المباشرة جودة الدواء نفسه ، ويرد الدواء إلى علة مباشرة أخرى هى الدكتور ، ولكنه برغم هذا التفسير العلّى الطبيعى ، يجعل الحصول على ذلك الدواء رهناً بحسن إرادة شخص ما ، هو فى هذا الحالة أم الطفل ، ويرى أنه إذا كانت لأمه إرادة شريرة ، لاستحال عليها الحصول على ذلك الدواء الناجح .

كان الطفل منذ عامين ونصف يعتبر الموت مرضاً هو عقاب ينزله الله مباشرة بالميت ، وهو الآن يرى الموت حادثاً طبيعياً فى نهاية سلسلة من الحوادث المرتبطة ارتباطاً علّياً ، ولكنه لا يتخلى عن اعتبار ذلك الحادث فى نهاية الأمر عقاباً يوقعه الله لا على الطفل فحسب بل على أمه أيضا . وقد رأينا منذ عامين ونصف أنه يستنتج إن أصيب شخص بمكروه أن ذلك الشخص مذنب ، وقياسا على ذلك يستنتج من موت الشخص كونه مذنباً . هذا الأسلوب الاستدلالى لا يزال موجودا وإن داخلته نزعة موضوعية ناشئة . وكل ما هنالك من تجديد هو تصور الطفل للمكروه

أو للعقاب والذنب. كان المكروه هو الدفنَ ونهشَ الديدان ، وكان الذنبُ سبَّ الطفل لغيره أو عصيانه لأمه . وهو الآن يرى فى مرض الطفل مكروها حل لا بالطفل فحسب بل بأمه أيضا ، وحيث أن الأم أصابها ذلك المكروه فلابد أنها ارتكبت ذنباً ما . أما وقد شفى الطفل وبالتالى زال المكروه أو العقاب عن الأم ، فلابد أنها ذات إرادة خيرة وإلا لما أتيح لها الحصول على الدواء الناجع من الدكتور .

وقد يحق لى أن أمضى فى التحليل إلى أبعد من ذلك ، فأنا أعلم أن الغيرة على أشدها بين الطفل وأخيه الذى كان مريضاً . وطبيعى ألا يرحب الطفل – على الأقل لا شعوريا – بشفاء أخيه ، فكيف أعرب عن فرحه بشفاء أخيه ؟ ! ذلك تناقض ظاهرى فحسب ، يتلاشى لو تنبهنا إلى أن عدم شفاء الأخ كان سيعود على طفلنا بضرر محقق . ذلك أنه كان سيتخذ من عدم شفائه دليلا على أن الأم مذنبة ، وحيث أن حبه لها شديد وحاجته إليها أشد ، فإن شفاء أخيه انتصار لاعتقاده فى براءتها ومن ثمة اطمئنان فى كنفها وبخاصة وقد تبينا أن سوء إرادتها يعود على أبنائها بالأذى . لا يصل الطفل إلى هذه النتيجة بعملية استنتاج منطقية مقصودة ، بل بعملية لا شعورية تلقائية لا يفطن إليها الطفل نفسه .

وقد رأيت أن أتيقن من حقيقة تفكيره فى نفس النقطة فسألته :

– اللى أمه كويسة يخف ، واللى أمه مش كويسه . . . ؟ فأكمل عبارتى :

– . . . عمره ما يتكلم ، ويخليه ربنا أخرس .

– ليه ؟

– عشان هى مش بتكرمه ولا بتصلى . يقوم ربنا ما يخليش ابنها يتكلم .

– إزاى ؟ – ما يخليش الدكتور يديها دوا كويس.

– الولد ذنبه إيه ؟

هذا السؤال أثار تفكيره فصمت برهة متأملا ثم بادرنى قائلا :

– إنما ليه هيه مش بتكرم ربنا ؟ عشان لما ربنا يعمل كده فى الولد هى تزعل .

كأن الطفل يصر على رد مرض الطفل إلى ذنب الأم لا الطفل نفسه .

ولعل الطفل يوحّد (identify) نفسه بأخيه ومن ثم يعتبر أى مرض يصيبه لا بسبب ذنبٍ ارتكبه هو بل بسبب ذنبٍ ارتكبه شخص غيره . أى أن من عوامل ذلك الاعتقاد الديناميكية الشعور بالذنب ، ومحاولة تخفيفه بحيلة لاشعورية هى الإسقاط .

ولكنى ألح فى الاعتراض :

— لكن الولد مسكين . فيصر هو على موقفه إذ يقول :

— عشان أمه تحرم .

— لكن الولد يستحق ؟

— لو أمه بتصلى كان يستحق حاجة كويسة ، لما تبدأ بقى الصلاة تروح للحكيم تانى ، يقوم ربنا يديها الدوا كويس ، يديها روشتة بدوا كويس .

معلومات الطفل الدينية

بعد فحص مشاعر الطفل الداخلية التلقائية ، انتقلت إلى فحص معلوماته الدينية المستقاة من البيئة الخارجية . كانت جدته التى يحبها ويلمس مدى تدينها قد سافرت فى نفس العام إلى الحجاز فاتخذتُ ذلك نقطة لبدء الحديث .

الحج :

— جدتك راحت فين ؟ فأجاب : — الحجاز .

— ليه ؟ — عشان تزور ربنا ، وربنا يحبها وتدخل الجنة . . . تزور النبى .

— النبى عايش ؟ — لأ . تزور القبر بتاع النبى .

— وليه ؟

— عشان يحبها ربنا ، ويدخلها الجنة . إن ما عملتشى كده وكان معاها فلوس ، يدخلها النار . لو ماكانشى معاها فلوس وتقول يارب أزور ، تدخل الجنة برضه.

الخير هو طاعة الله والشر عصيانه ، لقد حلت أخلاقية الدين محل أخلاقية الأسرة ، ولم يعد معيار السلوك طاعة الأب بل طاعة الله . تفهم الطفل لحدود المسئولية دليل على نضج نسبى فى الحس الأخلاقى : من لم يحج وهو مقتدر ماليا فهو مذنب ، وكذلك المفلس الذى ليست لديه نية الحج ، أما المفلس الذى ينوى الحج فلا جناح عليه . « العبرة بالنية لا بالفعل » ، ذلك ترق أخلاقى لاشك فيه ، وهو أمر جديد بالنسبة لحال الطفل منذ عامين ونصف .

حاولت أن أتبين مدى فهمه للحكمة من زيارة قبر النبى ، فسألته :

– وليه ربنا يحبها لما تزور القبر ؟

– عشان تروح الجنة وتتمتع ولا تروحشى النار . تشرب مية نار ، وتصلى على سجادة نار .

– لكن هى زيارة القبر تعمل حاجة ؟

– آه ، كأنها زارت النبى وهو سليم.

– والنبى مات ؟ – أمال إيه . من زمان .

– راح فين بعد ما مات ؟

– أصله كان رايح يتاجر فى المدينة ، راح يتاجر مات هناك . راحوا دفنوه هناك . ربنا نزل سيدنا جبريل يقول للناس زوروا النبى أحسن تخشوا النار .

لم يفعل الطفل أكثر من أن ردد ما تعلمه فى المنزل أو المدرسة ، وواضح أن الأثر الخارجى (التربية الدينية) أصبحت له الغلبة فى ذلك الطور على العامل الداخلى (التطور التلقائى) ، وأن التفكير الشخصى تداعى أمام غزو الواقع الخارجى (بأفكاره الشائعة ومعاييره التقليدية) لذهن الطفل .

الملائكة :

– وليه ربنا قال لسيدنا جبريل كده ؟

– عشان جبريل بيشتغل لربنا وعنده ملايكه كتير ينزلوا يشتغلوا لربنا .

ـ وهم الملايكه بينزلوا الأرض ؟
ـ آه ، يطيروا ويطلعوا .
ـ هم عصافير ؟
ـ لأ ، ربنا خلق لهم جناح عشان ينزلوا يعملوا كل حاجة ويطلعوا .
ثم استطرد مستنكرا :
ـ أمال يطلعوا على سلم ؟ ؛ لأ ، دول مش ممكن يطولوا ربع السما .

تحدث الطفل عن الملائكة منذ عامين ونصف ، فلم يأخذ من البيئة سوى الإسم ،ولكنه ألّف الصورة كلها من خياله . أما الآن فالمعلومات زادت بعض الشيء : فهو يعرف جبريل ، ويعرف أن الملائكة خدم الله ، وأنهم حلقة الاتصال بين الله والبشر . على أن العنصر الشخصي فى تصور الطفل للملائكة لا يتلاشى نهائيا ، وذلك لأن المعلومات التى يستقيها عنها من البيئة لا يستقبلها على نحو سلبي ، بل لا بد أن يصوغها صياغة تتفق وعقليته وتكوينه النفسي . فقد يحدث أن العناصر التى يستقيها من الخارج لا تكوّن غير صورة ناقصة فيتعين على الطفل أن يسد ما بها من ثغرات ، وحينئذ لا يكون مناص من الالتجاء إلى خياله الذاتي. مثال ذلك أنه علِم من البيئة أن الملائكةتقوم بالوساطة بين الله والبشر ، وقد لا تكون البيئة قد حدثته من أمرها بأكثر من ذلك ، ولكنه يعلم سلفا أن الله فى السماء والبشر فى الأرض ، فكيف تنتقل الملائكة بينهما ؟ إن المسافة بينهماجد بعيدة بحيث لا قِبَل لأى «سلالم» أن تصل بينهما ؛حينئذ يسارع الخيال إلى ملء الثغرة ، فيهيىء له أن للملائكة أجنحة تطير بها .

المعجزة والقيامة :

ثم أضاف الطفل :
ـ الملائكة زى ربنا . أى حاجة يعوزها لازم بالعافية يعملها ، بالعقل يعملها . مش ربنا نزل سيدنا جبريل ، وقال اذبح الطيور ، وجيب اللى شكلهم وحطهم

فوقهم ، وخد ريش الطيور الحية وحطها على الطيور الميتة ، وبعدين يصلح رقبتهم يقوم على طول يطيروا . كده يقوم الناس يعرفوا أن دا جبريل ويسمعوا كلامه . نزل كل واحدة من الملايكة بتوعه .

« ربنا يعمل كل حاجة بالعافية » ، تلك إشارة إلى قدرة الله المطلقة . وتلك القدرة تتميز عن قدرة الإنسان فى فعل ما لا يتفق مع المألوف ، أى فى فعل المعجز من الأمور . وقد سمع الطفل عن معجزة إحياء الطير الميت المنسوبة فى القصص الدينى إلى « إبراهيم » ، فنسبها هو إلى جبريل ، وحاول على قدر تفكيره أن يفسر لنا الحكمة من المعجزة ، وهى حملنا على التصديق بمن أتى بها . وأخيرا ، نلاحظ أن الطفل يتصور الملائكة إناثا .

سألت الطفل بعد ذلك محاولا استفزاز تفكيره الشخصى النقدى :

— وده كلام معقول ؟ فأجاب فى حماس مدافعا عن رأيه :

— الله ! مش احنا قلنا ربنا يقدر يعمل كل حاجة ؟ مثلا ، واحد مات يقدر يصحيه تانى فى ساعتها . يوم القيامة بيعمل حاجة كمان : يخلى واحد ماشى مع مراته تكون دى مش جنية ولا حاجة ، وبعدين تبرد يقلع الجاكتة ويلبسها لها ، يبص ما يلاقيهاشى ، فضل ماشى لقى حفرة ، كان فى جيب الجاكتة صورة ، بص لقى الصورة فى الحفرة والجاكتة . وإذا كانت جنية ، يبقى ما فيش حاجة ، وإذا لم تكن ، يبقى القيامة حتقوم .

هذه قصة لا صلة لها بقصص الدين التى يتعلمها الطفل ، إنما هى من قصص السحر ، وعتها ذاكرته حتى جاء خاطر القيامة فمزجهما سويا . وعلى كل حال فإن ربطه بين الأمرين له دلالته : القيامة نهاية عهد النظام الطبيعى المحكوم بقوانين ضرورية ثابتة ، وبدء الحياة التى تستند إلى رغبات فرد مطلق القدرة هو الله . وسبق أن ذكر الطفل ما ينم عن اعتقاده أن الصفة المميزة لله هى قدرته على الإتيان بما يخالف المألوف ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن القيامة تحل بإشارة من الله ، حق لنا أن نفترض أن الطفل فى تصوره للكون قد يضع الله والملائكة

والموت فوق النظام الطبيعى . أى أن هذه الأفكار تناقض فكرة الضرورة الطبيعية أو العلّية العلمية. هذا مجرد فرض سوف نحققه فى حينه .

سألته :

ـ مين قال لك الحكاية دى ؟

ـ فى مجلة الاثنين .

ـ لكن الحادثة دى حصلت ؟

ـ آهى مكتوبة فى المجلة ، يبقى حصلت.

ـ وكل حاجة فى المجلة يبقى حصلت ؟

ـ الناس كتبوها فى الجرايد. لو واحد ألّف نكتة ، دى ما حصلتشى .

ـ لكن أنت مصدق الحكاية دى ؟

ـ ما أصدقشى إلا لما أشوفها

ـ وأنت شفت الملايكة ؟

ـ لأ ، ولا هم جسم ولا وش ولا حاجة . لهم جناح والعين بس . يعنى زى العصافير ، إنما العصافير لهم منقار .

يسعى الطفل جاهداً إلى تقبل ما يلقى إليه من تعاليم الدين ، ولكنه لايستطيع أن يتغلب على طبيعة تفكيره فى تلك المرحلة من مراحل النمو . فهو يؤكد تارة روحانية الملائكة وطبيعتهم الإلهية كما علّمه الناس، ولكن تفكيره الشخصى يغلبه على أمره من حين لآخر ، فتنبرى تصوراته الطفلية لهذه الموضوعات اللاهوتية ، أو تفسيراته الخاصة لتلك المعتقدات الشائعة ، كما حدث إذ نسى ما ذكره من روحانية الملائكة وعاد إلى تصوره لها بجناحٍ (حتى يضمن طيرانها بين الأرض والسماء حيث الله ، رئيسها) وعينٍ (حتى يتيسر لها أن ترى طريقها ، فتحسن أداء وظيفتها) . إن الطفل لم يستطع بعدُ أن يستسيغ العقائد الشائعة استساغة تامة ، ولكنه يحاول ذلك فى سبيل التكيف للمجتمع ، والمناقشة التالية تؤكد ذلك .

دارت هذه المناقشة بين الطفل وجدته عن الملائكة وكيف لا يراهم، وكان قد توجه بالسؤال عن الملائكة إلى سيدة تزور جدته فقالت إنها لا تعرف ، فتوجه

إلى جدته بالسؤال :

– إشمعنى انت تعرفى شكل الملايكة ؟ فقالت الجدة :

– عشان أنا مؤمنة . فرد على ذلك :

– فيه ناس مؤمنة ليه ماعرفوشى ؟ فأجابت :

– أنا مؤمنة أكتر منهم .

فقال لها :

– نُصك والاّ ربعك ليه مايعرفوشى ؟ فأرادت أن تجد مخرجاً فقالت :

– أصلهم ماحجوشى .

ولم تكن الجدة تعلم أنه إنما أثار الموضوع بسبب عجز السيدة الأخرى وهى « حاجّة » بدورها عن الإجابة على تساؤله . فقال على التو :

– الحاجّة مش عارفة شكلهم وحجّت أربع مرات . . . فقالت :

– ماهى عارفاهم .

– مش بتحكى عليهم ليه ؟

– هى كده ساكته دايما .

– ما كل الناس كده ، لكن بيتكلموا فى الحاجات المهمة .

– هى كده ، مش بتتكلم لا فى المهم ولا فى غيره .

فقال على التو :

– تبقى مش بنى آدم .

حيرة الطفل هنا بسبب تصديقه لأقوال الجدة (التى يتلقى تعاليم المجتمع عن طريقها) بخصوص الملائكة مع عجزه عن تصورها . فهو يعرب لها عن عجبه كيف تعرف هى الملائكة بينما هو لا يعرفها ، والمعرفة فى ذهنه هى الإبصار . فهو إذ يجادلها يحمل فى ذهنه ذلك المعنى ، ولا يستطيع أن يفسر كيف يتيسر لها إبصار الملائكة فى حين هو لا يبصرهم . والمهم أن هذه المناقشة تبين أن الطفل لا يتقبل تعاليم البيئة على نحو سلبى ، إنما هو يفكر فيها ويحاول تبريرها ويديرها فى ذهنه ، كما يحاول كبت الاعتراضات والشكوك التى تثيرها . فثمة إذن حركة داخلية تصاحب أى اكتساب لأفكارٍ داخلية ، بل إن الطفل –إن نعم بحرية

التعبير وبالأمن فى بيته ــ قد يعرب صراحة عما يساوره من شكوك ، وإن سلم الطفل ببعض ما يتعارض مع تفكيره فليس التسليم تسليما مطلقا ، بل ثم فى القاع قلق فكرى لا يقضى عليه غير أجوبة شافية ، وثم ثغرات لا يسدها غير تفسيرات كافية شافية .

وحديث الطفل خير دليل على أن الأطفال عموما يضيقون بصمت الكبار إذ يسألونهم عن أمور كأمور الدين . إنهم لا يجدون مبررا لذلك الصمت ، بل هم ينقمون على الكبار إذ يخفون عنهم أمورا تعتبر معرفتها أمرا جوهريا بالنسبة إليهم ، أمر جوهرى لا من حيث هو إشباع للفضول بل من حيث هو تخفيف لقلق يتولاهم بهذا الصدد .

سألت الطفل :

ــ الكلام فى الحاجات دى مهم ، الملايكة والدين والصلاة ؟ فأجاب :

ــ آه مهمة قوى .

ــ ليه ؟

ــ عشان الكلام كده حاجات كويسة ، ربنا يكتبها نصائح كويسة تدخل الجنة وتشوف كل حاجة عايزاها .

ــ والصوم كويس ؟

ــ أمال إيه . آه ، دا كمان ربنا بيكتبه حسنات .

ــ وأنت تحب تروح الجنة ؟

ــ أمال إيه .

ــ ليه ؟

ــ عشان ربنا يحبنى . أنا منتظر أعرف الفاتحة عشان أبقى أصلى .

ــ وليه عايزه يحبك ؟

ــ عشان ندخل الجنة ، والناس كلهم يحبونى ، يخلوا ربنا يحبنى وكل حاجة عايزها ألاقيها .

كان الطفل فيما مضى كى يضمن حب الكبار له يكيف نفسه لرغباتهم مباشرة ، أما وقد دخل فى الموقف طرف ثالث هو أقوى من الكبار ومحط تبجيلهم ،

فقد أصبح عليه أن يكيف نفسه لمطالب ذلك الطرف الثالث ، لا طمعا فى تحقيق الوئام معه فحسب ، بل فى تحقيق الوئام مع الآخرين أيضا . ولكنه مع نشأة هذه الروح الغيرية لم يتخلص بعد من نفعية الطفل الصغير إذ يهدف باسترضاء الله إلى أن « كل حاجة عايزها يلاقيها » .

الجنة والنار :

— الجنة شكلها إيه ؟

— جنينة ورد ، ورد ما يخلصشى أبدا . الوردة اللى تقطفها ، العنب ، الرمان ... تانى يوم يطلع برده . مش زى الشتا تكون الشجرة فارغة ، فى الربيع مليانه ، ورا بعضه كده تطلع الحاجات .

(الجنة كلمة تستثير فى خياله صور الربيع الدائم ، هى استمرار للحياة كما يتمنى أن تكون دائما .)

— تخاف من النار ؟

— أمال إيه .

— ليه ؟

— عشان تحرقنى وأموت . وكمان دى لما اتحرق تعلا وتحرق كل اللى جنبى وكل البيت وبعدين يطفوا النار ، راحوا ... يعنى إيه ... راح اللى فيها واللى فى جنبها . بيت واحد يتحرق ، يحرق ميت ألف بيت .

يخشى النار لا للألم الذى تسببه فحسب ، بل لأنه يترتب عليها الموت والفراق عن كل الأهل كما يتبين من قوله « وتحرق كل اللى جنبى ، إلخ . ... »

— والنار دى فين ؟

— فى السما .

— شكل النار بتاعتنا ؟

— لأ ، التانية أحمى ، حامية خالص . الحرامية لما يسرقوا ، ربنا يجيب الفلوس اللى زيهم ويحطهم فى النار ويحطهم على جثته .

كان الطفل منذ عامين ونصف يتصور جهنم مجرد فرن كالفرن المجاور

لمنزله ، وكان تصوره للموت حادثاً غير طبيعى كقتل نتيجة خبرته بحوادث معينة ، أما الآن فالنار السماوية مختلفة عن نارنا، والموت أصبح ظاهرة شاملة لا مفر منها ، ظاهرة طبيعية .

ــ وأنت حتّروح النار ؟ ــ إذا كنتش أصلى ، أروح .

ولكن الطفل يستدرك .

ــ لأ... عارف؟مش حاروح.عشان ماعلمونيش الفاتحة.(إدراك لفكرة المسئولية).

الفروق الدينية :

ــ الولد القبطى حيروح النار ؟

ــ القبطى (صمت) ، القبطى زينا ، إنما إذا كان يعمل حاجات ربنا مايحبهاشى يروح النار ، إذا كان يعمل حاجات كويسة يدخله الجنة . مش فيه ماشيين يقولوا « عيد القبط زى الزبط ، وعيد المسلمين زى الورد والياسمين » ، دول حيدخلوا النار .

ثم ظهر الغضب على الطفل وصاح فى حدة .

ــ ليه واحد كويس بيعمل حفلات كويسة يدخله النار ؟

فسألته :

ــ حفلات إيه ؟

ــ يعنى واحد غلبان ، بردان، يدى له غطا ، فلوس ياكل بيهم .

(يظهر إنه يقصد حسنات لا حفلات ولكنه سمع اللفظ خطأ ً) .

ــ أنت تكره القبطى والا تحبه ؟

ــ إذا كان وحش أكرهه ، كويس ما أكرهوشى .

على الرغم من أن الطفل يعتز بإسلاميته ، وعلى الرغم من أنه بدأ يدرك القيمة الاجتماعية للدين (أى أهميته فى دعم صلته بمجتمعه) إلا أنه ــ نظرا لتربيته الحرة ، وتسامح بيئته ، وسعة أفقها ــ لا يستسيغ أن يكون الثواب والعقاب

رهنا بالفروق الدينية . على أن الطفل لم يعرف بعد حقيقة الفروق بين الدينين ، أقصد الفروق اللاهوتية .

رؤية الله :

– ربنا شكله إيه ؟ – (مستنكرا) أنا شفته ! ؟

– طيب ، الناس بيتكلموا عليه ؟

– أيوه ، إنما مافيش حد يعرف شكله ولا جنسه ولا حاجة . عمى بيسأل « نينا » (جدته) عن شكله ماعرفتشي شكله ... (محدثا نفسه) – أكبر حاجة دى مايعرفوهاشى ! !

ظهر ضيقه من جديد بسبب اختفاء الله ، وحيرته لعجز من يثق فى علمهم عن معرفته ، ويبدو أن المعرفة هنا يقصد بها الرؤية .

– وليه مش بتعرفه ؟ – (مستنكرا) تقدر تقول حاجة من غير ماتشوفها ؟ .

– لأ .

– خلاص ، معلهش سمعتها ، تقولها . انما إذا كان واحد قالها ويكون كذاب ماتقولهاشى .

مصدر العلم الوثيق : الرؤية المباشرة والسمع عن شخص ثقة ، ولااطمئنان لشىء لم يرد عن أحد هذين المصدرين . وإن علمه بالله والملائكة مستمد من المصدر الثانى ، وكم يتمنى أن يزداد يقينا بالاعتماد كذلك على المصدر الأول ، الرؤية .

– تحب تشوفه ؟ – آه .

– تخاف منه والا لأ ؟ – لأ .

– إزاى ماتخافشى منه ؟

– ليه ؟ هو وحش ؟ هو شكله مش بنى آدم ، مش كويس !؟

أجبته :

– ما أعرفشى . فقال :

— خلاص ، هو شكله كويس عشان كل الناس بيتكلموا عليه ومبسوطين منه. شوف الناس ، بيجوا هنا يزوروا « تينا » عشان يسمعوا الكلام الكويس اللى بتقوله .

يبدو أن الصورة التى تكونت فى ذهن الطفل عن الله ، صورة كائن خيّر جميل ، يمنح ويعطى ويحب ،وذلك بفضل حُسن علاقاته بالمتدينين من أفراد بيئته والخبرات السارة المرتبطةبفكرة الله . ومن الجلى أن موقفه من الله إنما هو امتصاص لموقف البيئة منه .

فى سن العاشرة

أصبح الطفل فى الثالثة الابتدائية ، وهو يبدو أكثر هدوءا عن ذى قبل، وإن كان قد أصبح أكثرحذرا ومكرا فى تعاملهمع كبار الأسرةالذين لم يعودوا يقبلون عليه كما كانوا إذ كان طفلا صغيرا . منذ عام تقريبا ابتدأ يصلى ويؤم المسجد للصلاة بتشجيع فتى من الجيرة يقدم الهدايا للأطفال كى يستجيبوا لتعاليم الدين ، ولكنه عندما زاد عليهم بالمطالب امتنع عن مرافقته حتى لا يضطر إلى القيام بالصلاة فى كل حين ، وبالتدريج أخذ يهمل حتى امتنع نهائيا . لم يعد الطفل المفضل فى الأسرة بل كثيراً ما تنتقد تصرفاته .

تذكر الطفل حديثه السابق معى (حين كان فى سن الثامنة) وتذكر أقوالا بالذات ، ولكننى عندما عرضت عليه حديثه الأول ، منذ أربعة أعوام ونصف ، ليقرأه بنفسه وسألته لمن يكون أجاب أنه ربما كان لأصغر إخوته . ولكننى عندما ذكرت لهإنهحديثههو معى ، دهش ثم أنكر ذلك إنكارا تاما ، ولم يذكر شيئا عن تلك المقابلة . وأردت أن أعرف رأيه فى أقواله فى ذلك الحديث الأول فسخر من بعضها وأقر البعض ، وأجرىشيئاً من التعديل على البعض الآخر .

سألته :

— إيه رأيك فى الكلام ده ؟ فأجاب على التو :

— مش كويس ، مش معقول .

— إيه فيه مش معقول ؟

— « هو مالوش شكل (الله) ، البنى آدم هو اللى له شكل » .

— إيه المعقول بقى ؟

— « هو يشوفنا إحنا مانشوفوش » ، الكلام عن الجنة والنار كويس .

بوادر تجريد الله وفهم فكرة الروح ، فهو فى سبيل تنزيه الله يبتعد ابتعادا تاما عن المقارنة بينه وبين الإنسان ، لم يعد مضطرا فى تصوير تنزه الله أن يقرنه بالإنسان .

عندما وصل فى قراءة حديثه الأول إلى الحرية فى أكل الفواكه بالجنة أغرق فى الضحك . وضحك مرة أخرى عندما قرأ قوله إن « ربنا وضع الطفل فى بطن ماما » ، وازداد ضحكا عندما قرأ « الولد جاى من الفراخ » .

ثم قال إنه لا يوافق على هذا الكلام المضحك . ولم يوافق كذلك على القول إننا بعد أن نموت « نروح فى بحر ما فيش فيه ميه » ولا على فكرة الإسعاف بعد الموت ، أو على قوله إن الميت الخيّر « ربنا يخليه صاحى » .

معنى ذلك أن الطفل لم يعد يقبل التصورات الآتية :

١ — تصور الله مقروناً بصورة الإنسان .

٢ — تصور الثواب والعقاب تصورا طفليا ، فى مستوى اللذة الحسية والألم الجسمى فحسب .

٣ — تصور الميلاد على أنه نتيجة وضع الله لطفلٍ فى بطن الأم ، أو لغذاء نما وتطور إلى طفل .

٤ — تصور الموت حادثاً طبيعيا مكروها حل بشخصٍ ما عقاباً على ذنب اقترفه ، حادثاً ينجو منه بالإسعاف والعلاج من تثبت براءته .

ونلاحظ أن عدم موافقته على التصورين الأول والثانى دليل على نضج عقلى

جعله قادرا على التجريد والتصور المعنوى ، ومن ثمة جعله غير مقيد بالتصوير الحسى لله أو للثواب والعقاب . وفضلا عن ذلك فإن تخليه عن التصور الثانى دليل على ترقٍّ فى الحس الأخلاق. أما رفض التصورين الثالث والرابع فناتج عن زيادة علمه بالظواهر الطبيعية، واتساع قدرته على التفسير الواقعى لها، بدلا من الاعتماد اعتمادا كبيرا على خياله الخاص. لقد أصبح له من الخبرة بالواقع ما يكفل له — إلى حد كبير — التحرر من شطحات الخيال فى تصوره للعالم الخارجى .

ولكن هذه الأمور جميعاً إن دلت على نضج عقلى أو اتساع فى المدارك ، فهى تدل كذلك على شى آخر : تضاؤل العنصر الشخصى فى تصور الطفل للكون وعالم الدين ، وتزايد التأثير الخارجى ، أوبتعبير آخر هى دليل على أن الطفل أصبح أكثر خضوعاً لمعايير الواقع واندماجا فى الإطار الاجتماعى .

انتقلت بعد ذلك إلى الحديث الدينى كالمعتاد . ولكننى آثرت أن تسير المناقشة مطابقة بقدر الإمكان للمناقشة الأولى (فى سن الخامسة والنصف) من حيث ترتيب الموضوعات والأسئلة ، حتى تتاح لنا فرصة طيبة للمقارنة .

مكان الله :

سألته :

— ربنا فين ؟ فأجاب	— فى السما .
— فين ؟	— ما اعرفشى .
— منين عرفت إنه فى السما ؟	— ماما قالت لما سألتها.
— سألتها إمتى ؟	— زمان ، مش فاكر إمتى .
— إنت متأكد إنه فوق ؟	— آه متأكد .
— إيه اللى خلاك متأكد ؟	— عشان قالت لى هو فى كل مكان.
— يعنى إيه فى كل مكان ؟	— فى كل حته.
— ودا ممكن ؟	— آه ممكن .

— إزاى ؟ — ما اعرفشي بقى .
— أنت بتشوفه ؟ — لأ ، هو يشوفنا ، إحنا مانشوفوشي .
— وتحب تشوفه ؟
— أحب أشوفه إزاى (مستغربا) ، ماعرفشي أشوفه . أحب برضه أشوف لو عرفت .
— طبب ليه تحب تشوفه ؟ — كده .
— كده ليه؟ — (تفكير عميق) عشان هو بيكرمنا.
— وهو يشوفنا ؟ — آه .
— إزاى ؟ — ما اعرفشي .
— بعينيه يعنى ؟ — ما اعرفشي .
(كان لا يمانع فى الماضى فى أن يقول إن الله يرى بعينيه .)
— هو شكله إيه ؟ — مالوش شكل .
— إزاى مالوش شكل ؟ — ما اعرفشي شكله.
— يعنى له شكل وأنت ماتعرفوش ؟ — آه ، لو كنت شفته ، كنت أعرف شكله.
— وأنت تحبه ؟ — آه .
— ليه ؟ — عشان بيكرمنا .
— وتخاف منه ؟ — آه .
— ليه ؟ — عشان هو قوى .
— وإيه كمان ؟ — ويقدر يعمل فى أى حاجه .
— زى إيه ؟ — يقدر يموتنى .
— وإيه ؟ — (تفكير) ويقدر يعمل فىّ أى حاجة من غير ما أموت.
— زى إيه ؟ — يكسر دراعى .
— وإيه تانى ؟ — مش فاكر.
— ويكسر دراعك ليه ؟ — لو عملت حاجة مش كويسة.
— زى إيه ؟
— (تفكير) لو شتمت حد بدينه ، أو حلفت على المصحف كدب.

أشنع خطأ فى نظر الطفل هو العدوان على ذات الله ، وهو فى أذهان أطفال هذه المرحلة المتأخرة من الطفولة أبرز من العدوان السلبى ، أعنى العصيان وعدم طاعة أوامر الله .

— بس كده ؟ — لو دخلت كمان جامع وسرقت منه .

لقد أصبحت موضوعات الدين (ذات الله ، المصحف ، المسجد) محوطة بالتقديس ،أصبحت أشبه شىء بالتابو ، إذ يفرض المرء على نفسه حيالها قيوداً عدة ولا يقربها إلا على نحو خاص .

الموت أمر عام :

سألته :

— وربنا يموّت ليه ؟ فأجاب :

— عشان ييجى يوم القيامة ويحاسبه ربنا على عمله .

يرى الموت عدلا ، وهو يجد له فى نظريته الأخلاقية مكاناً إذ يصبح ضرورة لمحاسبة كل امرؤٍ على ما جنته يداه .

— والواحد يموت ازاى ؟

— يدوسه أوتوموبيل أو حاجه ، أو يموت من العيا ، أو يموت فجأة .

لأول مرة منذ الحديث الأول يجمع الطفل فى عبارة واحدة جميع معانى الموت، وهى : —

١ — الموت باعتباره حادثا غير طبيعى ، حادثا طارئا (قتل).

٢ — الموت نتيجة مرض .

٣ — الموت حادث طبيعى .

ووراء هذه المعانى جميعاً فهم للموت باعتبار أنه مصير ضرورى لجميع الناس ، وفضلا عن ذلك ارتضاء له وتبرير بأنه ضرورى لسيادة الخير والعدل .

ما بعد الموت :

— وبعد ما يموت ؟ — يقوموه الملايكة ، ويروح لربنا .
— إيه يوم القيامة ؟ — اليوم اللى ربنا يحاسب فيه الناس .

كانت القيامة فى نظره فى سن الثامنة انقلاب النظام الطبيعى رأسا على عقب وبدء حياة تسودها إرادة فرد . أما الآن فقد أصبحت بداية حياة يسودها قانون الأخلاق ، هى نهاية العالم الطبيعى وبداية النظام الأخلاقى الحق .

— تعرف اليوم ده إيه ؟ — ما اعرفشى بقى .
— وازاى الميت يروح لربنا ؟ — ما هو ربنا يجيبه بقى .
— إزاى يجيبه ؟ — بقدرته بقى .
— مش كان ميت ؟ — ما هو يقدر يعمل كل حاجة .
— وبعد ما يحاسب ؟

— اللى يكون عمل سيئات كتير ، يروح النار ، واللى يكون عمل حسنات كتير أكتر من السيئات يروح الجنة .

على الرغم من إلحاح الطفل على أن العدالة الإلهية تقتضى ضرورة الجزاء ، إلا أنه لا يخليها من التهاون والتسامح أحياناً حتى أن الله قد يُدخل الجنة من ارتكب السيئات إن كانت حسناته تربو عليها . على أن تسامح الله هذا إن هو إلا انعكاس لروح التسامح التى يتحلى بها هذا الطفل ، لا فى هذه السنة فحسب ، بل منذ مدة ، وقد رأينا عندما كان فى سن الثامنة كيف دافع عن كل من يفعل الخير من أهل الأديان الأخرى . غير أنه برغم ذلك قد أصبح أقل تزمتاً فى فهمه لقواعد الأخلاق .

انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن الجنة ، وقد حدثنا عنها فى المرتين السالفتين .

سألته :

— إيه الجنة بقى ؟ فأجاب : — ما اعرفهاشى ، ما شفتهاشى .
— والنار ؟ — (تفكير) برضه ماشفتهاشى.
— وليه ربنا عمل الجنة والنار ؟
— عشان اللى عملوا سيئات كتير ، يدخلهم النار ، واللى عملوا حسنات كتير يدخلهم الجنة .

تضاءلت التصورات الحسية والتخييلات المتعلقة بالنار والجنة ، وأصبح اللفظان اسمين لفكرة واحدة هى « الجزاء » ، وذلك مظهر نمو عقلى وأخلاقى .

— يعملوا إيه هناك فى النار ؟ — (تفكير) مش عارف .
— وفى الجنة ؟ — يعملوا أى حاجة عايزينها .
— زى إيه ؟ — ياكلوا حاجات ويمشوا ويلعبوا .

لا تزال الجنة مكان إشباع الحاجات ، ولكن الحاجات لم تعد قاصرة على الأكل والشرب ، بل امتدت إلى الحاجة إلى الحرية (المشى ، اللعب) .

— طيب أنت تحب تروح فين ؟ — أروح الجنة .
— إمتى تحب تروح ؟ — يوم القيامة .
— ما تحبش تروح النهارده ؟ — (فى تعجب) حاروح ازاى ؟ .
— تموت وتروح .
— ليه ؟ هو أنا حاروح لوحدى ؟! لما يموت كل الناس نروح كلنا .

الجنة بنعيمها لا جاذبية لها إن كانت تضمه وحده ، فضلا عن أن المرء كى يدخلها يدفع الثمن غاليا (الموت) .

الملائكة :

سألته :

— سمعت عن الملايكة ؟ فأجاب . — آه .
— عارف شكلهم ؟ — لأ ، ما اعرفشى .

– وهم موجودين فين ؟ – عند ربنا .

– بيعملوا إيه ؟ – بيكتبوا حساب الناس.

– وبيعرفوا ازاى ؟

– ما هو كل واحد له ملكين : ملك للنار ، وملك للجنة ، بتاع الجنة يعرف الحسنات ، والثانى يعرف السيئات .

– لكن انت بتقول هم عند ربنا ؟

– ما هم برضه يشوفونا واحنا لأ .

– إزاى ؟ – ما اعرفشى ، بقدرة ربنا .

– وليه ربنا يخبى الملايكة ؟ – هو مش مخبيهم ،إحنا شايفينهم م

– وليه ؟ – (تفكير) ما اعرفشى.

– وليه ربنا مش بيبيّن نفسه ؟ – بقدرته .

– يعنى عاجبك كده ؟ – ما اعرفشى بقى مخبى نفسه ليه !

الخلق والميلاد :

– إنت فاكر يوم أخوك ما اتولد ؟

– فاكر عشان كنت صحيت بالليل ولقيته بيتولد.

– عارف جه منين ؟ – آه ، جه من عند ربنا .

– إزاى من عند ربنا ؟ – ربنا جابه بقدرته.

– لكن دا اتولد فى البيت ؟ – آه .

– إزاى ماما جابته ؟ – ربنا جابه لها .

– إزاى ؟ – ما اعرفشى ازاى .

– مش هى ولدته ؟ – آه .

– إزاى ؟ – من بطنها .

– وجه فى بطنها ازاى ؟ – ربنا جابه لها .

— إزاى ؟ — ما اعرفشى .

— ومين خلقنا ؟ — ربنا .

— إزاى ؟ — خلقنا من طين .

— إزاى ؟ — عملنا من طين ووضع الروح فينا .

— إيه الروح دى ؟ — ما اعرفشى (تلعثم) الأجزاء بتاع الجسم .

أكثر ما يلفت النظر فى هذه المقابلة إن قيست بالمقابلتين السابقتين تحفظ الطفل فى الإجابة على بعض الأسئلة ، فقد كثر ترديده لعبارة « ما اعرفشى » أو « ما شفتش » . ذلك الاعتراف بالجهل دليل على أمرين :

أولهما : أنه لم يعد يجسر على الدخول فى تفاصيل الموضوعات المقدسة التى سبق وصفناها بأنها « تابو » ، وأن العقيدة أصبحت قوة معطلة inhibiting force للتفكير الشخصى . وثانيهما : أنه وصل إلى درجة من النضوج العقلى تجعله يعرف أن التفسير الحق هو التفسير الموضوعى الواقعى ، حتى إذا عجز عنه قال « لا أدرى » ، والحق أنه كان لابنى عن الشرح حتى إذا وصل إلى أمر لا يجد له تفسيرا واقعيا قال : « لا أعرف » أو نسبه — تخلصاً من المأزق — إلى قدرة الله على كل شىء . فى حين وجدناه قبل ذلك ، فى المقابلة الأولى على وجه الخصوص ، لا يتوقف عن المضى فى الشرح ولا يقر بجهله ، لأن خياله كان يمده دائما بالتفسيرات السحرية وبالتخيلات التى يسد بها أية ثغرة تتخلل تصوره للكون . لم يكن يجهل شيئا ، لأنه لم يكن يعنيه إدراك الواقع كما هو . أما وقد أصبح للتفكير الموضوعى سلطان عليه ، فقد أغلق دونه باب التفسيرات السحرية التى تخضع للانفعال والخيال .

صفات الله :

عرضت عليه بعد انتهاء الحديث قائمة أسماء الله التى سبقت الإشارة إليها ، فتخير الخمسة الآتية مرتبة بحسب مدى دلالتها على الله على النحو التالى :

الخالق ، القوى ، الحاكم ، الجبـــار ، القاضى .

ونلاحظ فى هذا الاختيار أمورا هامة :

(أولا) استبعدالطفل كل ما يصور الله تصويراً إنسانيا كالبوليس ، أو الأب أو المسيح ، أو الصانع ،وإن كان قداحتفظ له بوظيفة الصنع ولكن على نحو منزه أى الخلق .

(ثانياً) استبعد كل ما يتنافى مع سموه على جميع الكائنات شبه الإلهية فليس بمارد ولا هو بملاك .

(ثالثاً) وضع على رأس القائمة صفة تدل على علاقة الله بالكون،فهو لم يقل إن الله أب أو حب ، لأنه تجاوز المرحلة التى يعتبر الطفل فيها الله حكرا له أو للإنسان ، وأصبح يرى الله إلها للعالمين لا للإنسان فحسب . فى حين أن الطفل (رقم ٩) وهو فى الثامنة من عمره وضع على رأس القائمة الحاكم وأعقبها بالأب .

(رابعاً) اختار صفة تدل على الوظيفة الأخلاقية لله القاضى ،وذلك انعكاس لتطوره الأخلاقى .

وفيما يلى شرحه للصفات التى وقع اختياره عليها : —

١ — الخالق

عشان هو اللى خلق الناس ، خلقهم من طين.

٢ — القوة

عشان هو قوى . يقدر يعمل كل حاجة .

فسألته :

— كل حاجة كويسة ووحشة ؟ فرد قائلا :

— آه فسألت : — يعنى هو يعمل سيئات ؟ فأجاب :

– اللى عمل سيئات لدينه ، يعمل له هو سيئات.

(يذكر كلمة سيئات بمعنيين : ذنوب وهذه يرتكبها بعض الناس ، وعقوبات وهذه يوقعها الله على المذنبين . على أن الذنب الأكبر هو – كما تردد مرارا فى أحاديثه من قبل – الخروج على أوامر الله وعلى الدين .)

٣ – الحاكم

يحكم كل ملاك بأى شىء يقوم بعمله على طول.

٤ – الجبار

جبار عشان لما لقى ملاك ماسمعشى كلامه ، راح مطلعه وعمله شيطان.

وهنا دارت المناقشة التالية بينى وبين الطفل إذ سألته :

– مين هو الشيطان ؟ – ملاك.

– وإيه الفرق بين الملاك والشيطان ؟

– ما هو الشيطان كان ملاك وربنا خلاه شيطان.

– شكله إيه ؟ – وحش .

– وكان شكله حلو ؟ – آه ، كان شكله حلو لما كان ملاك.

– وبيعمل إيه الشيطان ؟

– بيقول للناس ماتعبدوشى الله ، وبيكرّه فى دين ربنا .

– وإيه مزاجه ؟ – مزاجه يغيظ ربنا عشان ماخلاهوش ملاك .

– يعنى الشيطان هو اللى بيعمل السيئات ؟

– لأ . مش هو اللى بيعمل ، هو اللى بيخلى الناس تعمل السيئات.

– واحنا ذنبنا إيه بقى ؟ ربنا يعذبنا ليه ؟

– عشان عملنا وحش وسمعنا كلامه .

– طيب ، ليه ربنا يسيبه يعمل كده ؟

— ما اعرفشى ليه سايبه . (خوف من الخوض فى موضوع شائك)

— وأنت شفته ؟ — لأ ، شفت صورته فى السينما .

— شكله إيه ؟

— مابانش غير وشه ، وشه مخيف وله قرون فى راسه ، وعينيه مبرقة وطالع شرار منها .

— إنت بتخاف منه ؟

— وهو فين ؟ مش شايفه .لأ ، دا هو يشغل الواحد فى مخه بس .

يتحدث فى بادئ الأمر عن الشيطان المذكور فى القصص الدينى ، أعنى عن « إبليس » الذى يؤمن بوجوده فى الخارج رضوخا لتعاليم الدين . ولكنه يتحدث فى النهاية عن الشيطان الذى يوسوس بفعل الشر ، وذلك يعتبره أمراً ذاتياً ليس له وجود فى الخارج ، وهذا التصور الأخير يتلاءم وسن الطفل .

٥ — القاضى

يقدر يقضى على حياة كل واحد ، ويحكم للناس يوم القيامة ، يحكم للسيئات والحسنات بتاعتهم .

الفصل السادس

نشأة فكرة الله عند الطفل

الفكرة مركّب وظيفى :

عند ما نتحدث عن فكرة الله أو الموت أو الخلود أو الشيطان أو الميلاد لا نقصد مجرد المعنى الشعورى الذى تدل عليه . فما دمنا بصدد نشأة فكرة ما وتطورها، ينبغى أن نفهم أن المعنى الشعورى إن هو إلا «واجهة» خارجية لمركّب نفسى معقد . هذا المعنى الشعورى يجرده المرء من الواقع فى مرحلة متأخرة من النمو العقلى، فى حين أن المركّب برمته لا يمكن أن تدل عليه ألفاظ أو رموز مرحلة واحدة فقط من مراحل النمو ، لأنه ينشأ كما تنشأ أى نواة بيولوجية وينمو كما تنمو، ويتكامل من خبرات المراحل المختلفة . وعندما يأخذ هذا المركّب الفرعى شكله المتميز ، يصبح ذا أهمية كبيرة فى تعيين النمو الانفعالى والعقلى العام .

الفكرة إذن مركّب وظيفى ، أى فضلا عن أن لها تكوينها الخاص فهى قوة فعالة فى التكوين النفسى العام . هذه العلاقة الوظيفية تتضح بمثال من النمو البيولوجى : الرئة — مثلا — تتبع فى نموها نسقاً خاصاً تحدده طبيعتها ، ولكن نموها على صلة وثيقة بنمو الكائن كله ، وتخضع كغيرها من الأعضاء لقوانين نموه العامة . وهى إذ تؤدى وظيفتها الخاصة ، تؤثر فى الكل تأثيراً عميقاً . حقاً إن أى عضو فى المراحل الأولى من تكون « الأورجانيزم» لا يؤدى وظيفته أداء كاملا متميزاً من الكل، فالجنين لا يبصر ولا يتنفس، كما أن الطفل لا يكتشف منذ البدء فكرة الله المحددة أو فكرة الموت المتميزة ، ولكن ذلك لا يقلل من

قيمة وظيفة الإبصار أو التنفس ، ولا تلبث الأعضاء أن تتميز ويصبح بوسع كل منها أن يؤدى وظيفته الخاصة . وكذلك لا يلبث مركَّب الفكرة أن يتبلور ويتميز من الشتات الانفعالى، فيصبح بوسعه مزاولة وظيفة متميزة من التكوين النفسى ، ويسهم بدوره فى حياة التكوين العام .

فكرة الله إذن مركب عقلى انفعالى وظيفى، ليس مجرد معنى يستخلصه الطفل شعورياً من كلمة الله، فجذوره تمتد فى النفس إلى الأعماق اللاشعورية ، أى أن له بدايات نفسية سابقة عليه، فى هذه البدايات ينبغى أن نلتمس نشأة الفكرة وتطورها .

علاقة الطفل بوالديه :

نعلم أن الوالدين هما مركز الحياة الانفعالية للطفل ، وهما فى الوقت نفسه مبدأ علمه بالعالم الخارجى ، فأى استجابة انفعالية للطفل ، وأى فكرة ذهنية فى حياة المرء التالية ، إنما نبتت على نحو من الأنحاء فى موقفه الباكر من والديه . ولذلك نجد « فرويد » يلتمس الأصول الأولى لاتجاهات المرء الوجدانية فى روابطه الانفعالية القديمة بوالديه فى الفترة الباكرة التى يصفها بالنرجسية ، ونجد «پياچيه» يتقصى الأصول الأولى للتفكير فى نفس المرحلة من الطفولة التى يطلق عليها مرحلة « التركيز فى الذات » ego-centricity .

فيتعين علينا قبل التعرض لفكرة الله عند الطفل أن نتعرف طبيعة « التربة » الانفعالية والعقلية التى نبتت فيها .

ليس شعور الطفل نحو والديه شعوراً بسيطاً — حباً أو بغضاً ، بل هو شعور مركَّب من دوافع عدة ، دائمة التفاعل والصراع الذى يحتدّ على وجه الخصوص قبيل السنة الثالثة من العمر حين تتجاوز علاقته بأمه حد الاعتماد الفسيولوچى ، وترقى إلى مستوى نفسى، أى حين تصبح رابطةً وجدانيةً مستقلةً عن الحاجات الفسيولوچية والمطالب البيولوچية . حينئذ تصبح الأم فى ذاتها

موضوعاً لحبه ، وتبرز فى حياته حاجة نفسية إلى أن يحب ويحظى بالحب. ويصبح إشباع هذه الحاجة مطلباً لا يقل عن أى مطلب بيولوجى من حيث ضرورته للمحافظة على الحياة لمواصلة عملية النمو . وتصبح تلك الرابطة مجمع عديد من الاستجابات الانفعالية : كالخوف من الافتراق عن الأم ، والخوف من أن تمنع عنه العطف وتحرمه من الاهتمام ، والحنق عليها حالما توجه اهتمامها إلى غيره، والغيرة عليها من أبيه غيرةً كفيلة بإثارة الميول العدوانية ضده ، والإعجاب به مع ذلك، والشعور بالحاجة إليه، والطموح إلى تمثل شخصيته كيلا يكون أقل جدارة منه بالحصول على تقدير الأم وحبها ، والخوف من عقابه (حتى إن لم يخالف القواعد السلوكية التى يرسمها له) ؛ ذلك الخوف الذى يلازمه فيما بعد فى صورة الشعور بالذنب الذى لا يتولد ضرورةً عن خطأ فعلى ولكن عن مجرد استشعار رغبة من الرغبات المحظورة التى كان يستحق العقاب عليها فى طفولته الأولى .

على أن عملية النمو تقتضى أن يحل الطفل ذلك الصراع على نحو من الانحاء . والحل السوى هو «أن يصبح الطفل أباه» حتى يأمن أذاه ، ويضمن رضاه ، فضلا عن اهتمام أمه. وذلك يعنى أن يُسيغ الطفل إساغة لا شعورية شخصية الأب بمعاييرها وقواعدها التى تنطوى عليها الأوامر والنواهى ، والعقوبة والإثابة ، والتعيير والإطراء . وبذلك يحيل السلطة الخارجية إلى جزء من كيانه الداخلى (يدعوه رجال التحليل النفسى « الأنا الأعلى ») يقف حائلا دون اندفاع الرغبات الغريزية والدوافع المحظورة ، فيسعى الطفل إلى رضائه ضماناً للسلام النفسى وخشية عقابه ، ذلك العقاب النفسى الذى يأخذ شكل وخزات الإحساس بالذنب . بيد أن هذه السلطة تكون فى بادىء الأمر سلطة صارمة ، صرامةً ليست مستمدة من صرامة السلطة الوالديه بقدر ما هى ناتجة عن عنف الميول الذاتية العدوانية ، ومن ثمة عن شدة الحاجة إلى إجراء دفاعى عنيف يكفل ردعها . هنالك يكون ذلك المركّب النفسى — وقد وُلد فى الصراع — مصدراً لمخاوف شاذة phobias ، قد تبدو مخاوف من أمور مألوفة فى الواقع

الخارجي ، وما هي في حقيقة الأمر غير مخاوف من السلطة الداخلية العنيفة التي تظهر في صور رمزية حسية كالوحوش ، والمردة ، إلخ . . .

يصل الطفل إلى هذه النتيجة بتضحية الإشباع العاجل لرغباته في سبيل التكيف لواقع خارجي مؤلم . حينئذ يصبح الطفل قادراً على تكوين علاقات موجبة بمن يضمر نحوهم ميولا عدوانية ، إذ يغلّب دوافع الحب على دوافع البغض ويصبح من ثمة أكثر تهيؤاً للتكيف للواقع الخارجي ، بأفكاره ومعاييره وسلوكه . هذا التنظيم الجديد للحياة النفسية ، يضفي على انفعالات الطفل هدوءاً نسبياً ، يكون له أثر كبير في أحكامه على الناس وتصوراته للعالم الخارجي . فهو قبل حل ذلك الصراع ، يصدر في أحكامه عن انفعالاته الحادة الغامرة ، ولذلك تكون غاية في التطرف : فالناس لديه أخيار أو أشرار ، أصدقاء أو أعداء خطرون ، ولا توسط بين ذلك . وكل من يقف منه موقف عدم الاكتراث ولا يحبوه بعطف أو اهتمام ظاهر ، فهو من شيعة الأعداء الأشرار . بل إن الأم (أو الأب) تتراءى له في صورة الطيبة القصوى ، أو القسوة المتناهية . وهذا هو السر في أن الطفولة الأولى مسرح للغيلان والعفاريت والمردة القساة الغلاظ ، ولا غرو فإن الحكم الواقعي الهادىء لا يتكون في مثل ذلك الجو من التعارض الانفعالي الصارخ .

أما وقد وُفق الطفل حوالي السنة الثالثة من عمره إلى كبت مشاعره السلبية (العدوان والخوف) نحو أبيه ، وأصبح بوسعه خلع تصوراته للجوانب البغيضة من أبيه على موضوعات وهمية ، فالأب في نظره مثل أعلى لا نهاية لكماله ، ولا حدَّ لقدرته ، ولا راد لإرادته . فتصور الطفل لأبيه صدى لرابطته الانفعالية به ، وعلى الرغم من بُعد ذلك التصور عن واقع الأمور ، فهو خطوة ارتقائية في النمو العقلي إذا قورنت بما قبلها .

فقد مضى على الطفل حين من العمر لا يميز ذاته من العالم ، ولا يتصور إلا أن الوجود هو نفسه فحسب ، نفسه التي تحتوي عالم الخبرة برمته . كل

ما يجرى فيه لا تفسير له إلا أنه نتيجة رغبة أو فكرة ذاتية ، أى أن لإرادته قدرة مطلقة على التأثير فى الحوادث والأشخاص . والطفل — منذ طفولته الأولى — يحتفظ بذلك الاعتقاد « التلقائى الضمنى » بأنه المركز المحرك للعالم المحيط به ، وبأن ذلك العالم يقف على رغباته ويحققها له حتى ولو لم يعرب هو عنها أو عجز عن ذلك الإعراب . ويظل فترة غير قصيرة مطمئنا إلى ذلك الاعتقاد الذى يحتِّمه تكوينه النفسى حينذاك ، ولذلك رأيناه يحمِّل نفسه تبعة ما يتحقق من تلك الرغبات . مثال ذلك : لو تمنى شيئاً وتحقق ذلك الشىء ، اعتبر تحققه نتيجة لازمة لأمنيته ، وعلى العكس من ذلك ، لو لم يتحقق اعتبر ذلك دليلا كافياً على أنه لم يتمناه ؛ فإن مات أبوه أو أخوه ، استدل من موته على أنه تمنى ذلك من قبل ، واعتبر نفسه — من ثمة — مسئولا عن موته . أى أن المنطق اللاشعورى يسيطر على تفكيره فى كلا الاتجاهين : السلبى والموجب .

ولكن النمو العام يجلب معه نمواً فى القدرة الموضوعية ، وما نمو تلك القدرة إلا التنازل تدريجياً عن الاعتقاد فى القدرة الذاتية المطلقة . (١) ويكتشف الطفل وجود العالم الخارجى منذ عهد الرضاعة إذ يتعلم تحت تأثير الحرمان من ثدى الأم أن من الأشياء اللذيذة ما ليس من ذاته ، وفى الوقت نفسه أن من الأشياء البغيضة المؤلمة ما هو من الذات (كالجوع والعطش) ولا يمكن تنحيته بمجرد التمنى أو بأية وسيلة سحرية أخرى (كالصراخ وتقطيب الوجه) . وبالتدريج يميز الطفل بين عالم خارجى وعالم ذاتى ، ويدرك تحت تأثير الإخفاق المتكرر والتعامل الفعلى مع الأشياء والأشخاص عجزه عن تنفيذ كثير من الرغبات ، ويتضاءل فى نفسه إحساسه بالمطلق .

وإن أكبر خطوة فى الطفولة الأولى فى سبيل الاعتراف بالعالم الخارجى والتنازل عن الإحساس بقدرة الذات المطلقة ، تتم عندما يسيغ الطفل السلطة

(١) Sandor Ferenczi, The Problem of Acceptance of Unpleasant Ideas,in Further Contributions to Psycho-Analysis.

الوالدية ، وينكر على نفسه الرغبات الطبيعية فيكبتها فى اللاشعور . حينئذ يحل اعتقاد الطفل بقدرة أبيه (أو من يقوم مقامه) المطلقة محل الاعتقاد بقدرته هو المطلقة . ذلك ارتقاء فى القدرة الموضوعية لاشك ، ولكنه ارتقاء نسبى فحسب ، طالما أن الطفل فى هذه الفترة مغمور بكل كيانه فى الروابط الشخصية، وطالما أن كل شىء بالنسبة إليه مركز فى الأشخاص . فهو وإن كان قد تخلى عن نسبة الحوادث إلى إرادته هو، إلا أنه يتصور أنها ناتجة عن إرادة المحيطين به . فإذا كان تفكيره فيما مضى مستنداً إلى الاعتقاد بأن ذاته مركز الكون (ego-centrism) فهو الآن مستند إلى الاعتقاد بأن الإنسان مركز الكون (anthropo-centrism) على حد تعبير الأستاذ « بياچيه » . وعلى ذلك يفسر الطفل كل ما يحدث حوله « نتيجة لكون والديه (أو من يقوم مقامهما) غاية فى الطيبة أو غاية فى الخبث ، ولمحبتهما أو لقسوتهما عليه ، والأمور تجرى كى ترعى الناس جزاء خير أتوه ، أو عقاباً لهم على شر جنوه . » [١]

هذا الأسلوب فى التفكير وما يستند إليه من حياة انفعالية سبق تبيانها هو الذى يحدد تصور الطفل لأبيه إلهاً ، وارتباطه به ارتباطاً « دينياً » كما يتبين مما يلى .

« تأليه » الأب

يرى « بوفيه » [٢] أن فكرة الطفل عن أبيه تطابق فكرة الله كما وردت فى اللاهوت الأصيل ، فالطفل ينسب إلى الأب الكمالات نفسها التى يفترضها اللاهوت فى الله : القدرة المطلقة ، والعلم المطلق ، والخير المطلق (أعنى الكمال الخلقى أو القداسة) . ويرى أن الطفل يصل إلى ذلك التصور للأب من تلقاء

(١) Suzanne Isaacs, Essential Needs of Children, The New Era, Nov. 1946.

(٢) P. Bovet, Le Sentiment Religieux et La Psychologie de l'Enfant.

نفسه وبدون تلقين من أحد ، بل بدون استدلال منطق . فالطفل حتى الثالثة أو الرابعة يعلم أن أباه قادر على كل شىء ، وأنه من ثمة مسئول عن تحقق أية رغبة من رغباته فضلا عن كونه — كما أسلفنا — مسئولا عما يجرى فى العالم الطبيعى من حوادث. ولا يخطر ببال الطفل أن أباه يجهل أمراً ما ، ولذلك لا يفتأ يسائله، ويلح عليه فى التساؤل، حتى إذا قال الأب « لا أعرف » غضب لذلك أشد الغضب، لأن « لا أعرف » معناها لديه « لا أريد » .

ويمعن بوفيه فى المقارنة بين اللاهوت الطفلى والعقائد الدينية ، عقائد الوجود الشامل والأبدية ، فيرى أن الطفل قد يتصور وجود الآباء فى كل مكان ، وكما لا يخضعون لقوانين المكان فهم كذلك لا تنطبق عليهم قوانين الزمان . ويستدل على ذلك بقول « لوتى »[1] فى مذكراته : « كنت قد تجاوزت الثالثة من عمرى بقليل ، وكانت أمى فى الثانية والأربعين ، تقريباً . ولكننى كنت خالى البال من أية فكرة عن عمرها ، ولم يخطر لى أبداً أن أتساءل إن كانت صغيرة أم عجوزاً . . . فى ذلك الحين كانت هى فحسب ، كانت وجهاً فريداً لم أفكر قط فى أن أقارنه بأى وجه آخر . كانت وجهاً يشيع فى نفسى البهجة والأمن والحنان ، وينبعث منه كل خير بما فى ذلك الإيمان والعبادة . . . إن أمى هى الشخص الوحيد فى العالم الذى لا أتصور أبداً أن الموت سيفرق يوماً بينى وبينه . »

إن الآباء فى نظر الأطفال الصغار مستقلون عن الزمان، أى أنهم لا يموتون، وبتعبيرنا نحن الراشدين هم مخلدون . ومن الصعب على أى طفل أن يتصور أن والديه كانا غير موجودين فى وقت ما ، أو أن حياتهما هذه ستنتهى . وإن صفة الوجود الشامل (فى كل مكان وزمان) تعزز لديهم صفة العلم المطلق دون أن يستند ذلك إلى استدلال منطق ، لأن تصور الطفل للوالدين على ذلك النحو أسبق من نشأة التفكير المنطق . الأب والأم أكمل الناس ، وقد يشاركهما

(١) P. Loti, Le Roman d'Enfant, p. 21.

غيرهما من الكبار بعض صفات الكمال دون جميعها .

ونحن نتفق مع « بوفيه » فى كون الطفل الصغير يتصور الأب مطلق القدرة ، مطلق العلم . وحيث أن فكرة الزمن لا يتمثلها الطفل إلا فى سن متأخرة ، وحيث أنه لا يكتشف الموت باعتباره نهاية لا ينجو منها الأقربون ، لم يكن غريباً أن يعجز عن تصور الميلاد والموت بالنسبة للوالدين ، وأن يتصور هذين على العكس من ذلك فى وجود دائم شامل .

ولكنا لا نوافق « بوفيه » على أن الطفل ينسب للأب دائماً صفة القداسة أو الخير المطلق . ذلك أنه إن كان يتصور أباه قادراً على حمايته ، وإشباع كافة رغباته ، فهو يوقن فى نفس الوقت بأنه قادر على هجره وإيذائه . وإذا كانت أمور العالم تجرى على ما يرام ، فما ذلك إلا لأن الأب يضمر نوايا خيرة ، أما إن لم تسر الأمور كما ينبغى ، فلابد أن ذلك لأن الأب أراد سوءاً . وفضلا عن ذلك فنحن نعلم أن الطفل يضمر لأبيه ميولا عدوانية تدميرية ، إن تم له كبتها فلا يملك أن يمنع « إسقاطها » فى الخارج ، فيتصور — من حين لآخر ، صراحة أو رمزاً — أن الأب يضمر له العداء . ومن هنا كان الخوف الدائم من عقاب الأب ، أو بالأحرى من الثأر (جزاء تخيلاته العدوانية) ، الأمر الذى يزيد الطفل سعياً إلى استرضاء أبيه وكسب مودته والمغالاة فى حبه .

وإذا كان « بوفيه » قد رأى غير ذلك ، فرد ذلك إلى أمرين : (أولا) أنه بدأ بتحليل اللاهوت الدينى وحاول تلمس عناصره الثلاثة فى تصور الطفل للأب ، أى أنه استند إلى الاستدلال حين كان ينبغى أن يستند إلى الملاحظة الواقعية التتبعية . (ثانياً) أنه اكتفى بنظرة سطحية لشعور الطفل ، ومثل هذه النظرة تبين لنا فعلا أن الطفل ينسب لأبيه الخير المطلق لأن شعوره الظاهرى نحوه شعور الحب والتقدير . فلو نفذ بوفيه إلى أعماق الطفل اللاشعورية لاكتشف الجانب السلبى من مشاعره نحو الأب ، ولتبين أن الطفل إن كان لا يصرح بارتيابه فى تنزه أبيه عن الشرور فما ذلك إلا لأنه فى محاولته الكبرى

للتكيف للواقع المؤلم ، تم له كبت مشاعره السلبية . والتحليل النفسي لتخيلات الطفل يبين لنا أن الكبار (بما فيهم الوالدان) كثيراً ما يظهرون في صور بشعة : عفاريت ومردة وحيوانات مفترسة ، وكلها ترمز إلى الجانب السيء الذي يتوهم الطفل وجوده فيهم تحت تأثير مخاوفه منهم ، وردٌّ فعل لمشاعره السلبية نحوهم .

ولكن الذي لا شك فيه أن الطفل لا يرى أباه كما هو في الواقع ، وإنما ينسج له من خياله وبحكم دوافعه صورة لا تطابق ذلك الواقع ، صورة « إله » هو مركز الكون ، ومن ثمة فإن شعوره نحوه يكون شعوراً « دينياً » في جوهره . وهو دائماً أبداً شعور لا يشوبه الازدواج (أو التناقض) العاطفي ambivalence . ويختلف الأطفال فيما بينهم من حيث مدى غلبة أحد مقومَيْ ذلك الشعور (الحب والأمن ، أو البغض والخوف) . ومهما يكن الأمر فالأب دائماً إله يؤمن الطفل بقدرته المطلقة وعلمه الكامل . ويضفي عليه هالة من الجلال والغموض ، حتى ليتصف بما يتصف به أي « تابو » مهيب . وهذه الأمور جميعاً هي جوهر أي شعور ديني .

إن تصور الطفل لأبيه ليشبه إلى حد كبير تصور القبائل البدائية لجدها الأكبر ، تلك القبائل التي يملأها الهلع إزاء بطش قوى الطبيعة . وإزاء النفس « الأماره بالإثم والعدوان » فتدفعها الحاجة الملحة إلى عون خارجي أن تتصور الجد خارق القوى مطلق الصفات ، وتتشبث بهذا التصور ليتحقق لها الأمان النفسي .

وكما أن موقف الطفل من الأب ينطوي على الصراع الذي ينتج عنه كبتٌ لرغباتٍ موجّهةٍ ضده ، كذلك الشعوب البدائية تضمر العدوان لجدها الأكبر ، وهذا يولد الخوفَ من الثأر ، وعن ذلك الخوف تنشأ الحاجة إلى استرضائه بمختلف الوسائل ، وذلك هو الأصل في العبادة . ولم يعد خافياً تلك المحاولات الجاهدة تبذلها الشعوب البدائية ، كل بطريقتها الخاصة ، لاسترضاء أرواح الأموات من الأسلاف .

وقد فطن واضعو اللغة إلى ما يشوب الحب البنوي من روح دينية : فاللغة

الفرنسية تتخذ كلمة واحدة للدلالة على البر بالوالدين وعلى تقديس موضوعات الدين ، تلك الكلمة هى "piété" ، وتطلق كلمة "pieux" على الإبن البار بوالديه وعلى الشخص التقى فى آن واحد . والكلمة اللاتينية "pietas" تدل على الشعور الدينى نحو الوالدين ، كما تدل على الشعور البنوى نحو الله . وفى اللغة العربية الفعل « ربَّ الأمر » أصلحه ، ويقال ربّى الصبى ، ومن نفس المصدر كلمة « رب » بمعنى إله .

« تأليه » الأب إذن اتجاه نفسى تلقائى لا بد منه ، هو امتداد طبيعى للاعتقاد السحرى فى قدرة الذات المطلقة ، وتمهيد طبيعى أيضاً للشعور الدينى نحو الله . ونحن نتفق فى ذلك مع نتائج التحليل النفسى ، التى يستند إليها الأستاذ « ريكمان » فى قوله بهذا الصدد : « لدى الطفل معتقدات سحرية عن قدرة أفكاره ورغباته الخاصة — وليس من اليسير علينا نحن الراشدين أن نتذكر تلك المشاعر ، ولكن من المؤكد أننا جميعاً كنا فى وقت ما نملك تلك الأفكار السحرية . ثم يطرأ تغير : إذ نتخلى إلى حد ما عن هذه المعتقدات عن أنفسنا ، ولكنا ننسب تلك القوى لآبائنا ثم بعد ذلك لله . » (١)

معارضة الطفل لفكرة الله :

يبقى الطفل على تشبثه باعتقاده بألوهية الأب ، حتى بعد أن يألف الاستماع إلى اسم « الله » . وعلى الرغم من الصفات الطيبة التى يخلعها المربون عليه كى يجتذبوا اهتمام الطفل به ، فهو لا يتحول بسهولة عن موقف الخضوع والتقديس لأبيه . وما ذلك إلا لأن تأليه الأب ليس مجرد اعتقاد نظرى أو تصور ذهنى ، إنما هو اتجاه نفسى برمته ، هو تنظيم للحياة الوجدانية كلها حول نواة هى فكرة الأب . ولا يتحول الطفل عن ذلك الاعتقاد نتيجة تلقين أو إقناع عقلى ، وإنما يتم ذلك التحول بعد عملية تطور تلقائى . وإن أى مساس بهذا الاعتقاد قبل أن تتهيأ النفس للتخلى عنه تهتز له كل كيان النفس الطفلية .

(١) J. Rickman, Men Without God.

يعلم الطفل عن الله أول ما يعلم عن طريق اللغة ، أداة التكامل الاجتماعى. ترِد الكلمة إلى سمعه فيما يرِد إليه من كلمات يفوه بها من يحيط به. فيكون موقفه منها فى بادئ الأمر موقف عدم الاكتراث . ولكن سرعان ما يلمس الطفل ما يحيط بالكلمة من هالة انفعالية، ويحس فى استجابات الكبار لها شيئاً من رهبة وخوف، فيداخله القلق والريبة قِبَل ذلك الغائب الذى لا يراه، والذى يحظى باهتمام إلهه (أعنى أبيه) وتبجيله. وقد يردد الطفل — مسايرةً لوالديه — عبارات التبجيل أو التخويف متضمنة اسم الله ، دون أن يعنى ذلك أن فكرة إله أعلى قد اندمجت فى تكوينه النفسى وأصبحت موضوع خبرة دينية . فالله فى بادئ الأمر ، إسم يدل على شىء غريب يجهله الطفل ويرتاب فى حسن نيته نحوه ، ولا يتصوره إلا على نحو تصوره أى شىء غير مرئى ، أى دون أن يخلع عليه صفات الربوبية التى لا تزال وقفاً على الأب ، ودون أن يوجه نحوه طاقته الوجدانية التى لم تتحول بعد عن أبيه، ذلك «الإله الأرضى الذى لا إله غيره» .

إن أية فكرة جديدة تثير فى مبدإ الأمر الحيرة ، ولا يمكن أن تتقبلها النفس للوهلة الأولى ، بل لا يمكن أن يهتم بها الفرد ما لم تكن مسبوقة بخبرة معينة بها . وقد رأينا أن الطفل لا يكترث بفكرة الله بادئ ذى بدء ، لأنه يكون خلواً من أى خبرة تمهد لها — سارة كانت أو أليمة — ولكنه حالما يفطن إلى ما تنطوى عليه استجابات الكبار لها من انفعالات معينة ، تتكون لديه خبرة معينة عنها تأخذ فى الاتساع ، وحينئذ يبدأ اهتمامه بها . على أن هذه الخبرة الأولى لا تكون — فى العادة — خبرة سارة ، بل خبرة أليمة تنبو عن السياق النفسى ، فتثير الدهشة، وتكون عاملا مهدداً للتكامل النفسى الراهن . ومن هنا يكون أول اهتمام للطفل بالله مبعثه القلق أو عدم الارتياح . وذلك ما تنم عنه أسئلته المتكررة : عن ذات الله ، وشكله ، ومكانه ، وأفعاله ، وغير ذلك من أسئلة لا تهدف إلى الاستطلاع بقدر ما تسعى إلى تخفيف القلق الذى تستثيره فى النفس فكرة الله .

ويأخذ الاهتمام عدا الاستفسار شكلا أصرح فى الدلالة على مجافاة

فكرة الله للتيار النفسي المنسجم ، ذلك هو التهجم على ذات الله ، والاعتراض على وصف الكبار له بصفات الكمال التي لا يتصور الطفل وجودها فى غير أبيه . ويثبت ذلك ما حدث للطفلة (رقم ١) إذ كان بوسعها أن تنام وحدها فى حجرة مستقلة دون أن تخشى شيئاً ، ولكن الأمان يزايلها بمجرد أن علمت من الأم أن ثم « إلها » لا يغادرها أينا كانت . لقد كانت تنعم بعطف الأم وحدبها ، وتثق بقدرتها على حمايتها من كل سوء . لقد كانت الأم هى « الله » الحق ، فطبيعى أن يملأها الخوف ويزايلها الأمن وقد أكدت لها الأم أن ثم « إلها » آخر أقوى منها ، إلها خفياً يطالعها وجهه المخيف إذ هى وحدها فى ظلام الليل .

والطفل (رقم ٢) الذى غُمت نفسه عندما حدثته أمه عن وجود الله فى قلبه ، والذى ودّ لو لفظه من بطنه ، فى حين أنه يود لو أكل أمه أكلا وابتلعها ابتلاعاً .

قد يداخلنا الشك فى أن معارضة الطفل لفكرة الله فى هذه السن ليست اتجاهاً عاماً لدى جميع أطفال هذه المرحلة ، فنرى أن ما ذكرناه ليس إلا حوادث فردية ، ولكن ملاحظات غيرنا من الباحثين فى بلاد نائية تؤيد ما ذهبنا إليه . فقد روت « إديث ممفورد » أن أماً أخذت تحدث ابنتها عن الله الخير الذى هو الحب ، والذى يرعاها فى الظلام ، إلخ . . .

وبعد أن فرغت الأم من حديثها قالت لها ابنتها : « أرجوك يا أماه ، ابعدى الله عنى ، ودعى الشمعة لى بدلا منه » . وروت أن طفلة أخرى قالت لأمها : « أصحيح يا أماه أن الله يوجد فى كل مكان ؟ وأنه يوجد معنا فى هذه الحجرة ؟ » ثم همست فى أذن أخيها « افتح الباب وأخرجه من هنا » .(١)

وهذه كاتبة أخرى ، « سيلفيا سيدنى » ، تورد فى كتابها « فكرة الموت عند الطفل » حديثاً دار بين طفل فى السادسة والنصف من عمره وبين أمه إذ يتناولان الطعام سوياً :—

(١) E. Mummford, The Dawn of Religion In The Mind of The Child, p. 25.

الطفل: تقول الآنسة « س » (معلمته بالمدرسة) إنه يوجد إله، ولكنني لا أعتقد أن هناك إله .

الأم : صحيح يا رتشاد ؟

الطفل: لا يوجد إله لأن أحداً لم يره . فكيف يعرفون أنه موجود ؟

الأم : هل قلت ذلك للآنسة « س » ؟

الطفل: لا . ولكنني قلت للأطفال الآخرين . . . تقول الآنسة إنه لا بد أن يكون هناك إله لأنه صنع العالم ، ولكنني لا أظن أن العالم قد صُنع . أظن أنه هكذا جاء فحسب . ربما كان بوسع الطيار أن يعرف ، لأنه عال فى السماء .

الأم : لا أظن أن الله فى الهواء .

الطفل: فوق فى السماء — ولكننا لم نره قط على الأرض . (١)

• • •

ومهما حاول الآباء تلطيف الفكرة وحشوها « بالمسوّغات »، فلن يطمئن الطفل لله فى مبدأ الأمر . ذلك أن الاطمئنان حالة نفسية لابد أن يخبرها الطفل خبرة فعلية ، ولا يشيعها فى النفس حديث أو تأكيد ، بل إن الاقتناع العقلى بوجود إله خيرٍ لا يكفى لإشاعة الأمن. فليس بوسع أى طفل أن يطمئن إلى شخص أو إلى شىء ما إلا بعد تراكم خبرات سارة من قِبله وانسياب آثارها فى نفسه، وذلك أمر يتطلب وقتاً غير قصير . مثال ذلك أن طفلة بدأت منذ سن باكرة تتردد على مدرسة الأحد ، وتستمع إلى الدروس التى تدور حول الله الكامل ، ولكن هذه الطفلة التى كان قلبها يعمر بالحب لوالديها ، وبالغيرة عليهما ، لم تكن تريد الله منذ البدء، ولكن كان عليها أن تقبل الأمر الواقع ، وتغالب ضيقها بالله ، وتتحين الفرص كى تثبت خطأه ، حتى قطفت لها أمها ذات يوم فرع شجرة فصاحت فى تهلل الانتصار : « أنظرى ، نوعان من الورق على نفس

(١) S. Sydney, The Child's Discovery of Death, p. 175.

الفرع . ها قد أخطأ الله الخيّر ». ولكن الأم بينت لها أن الفرع كان مكوناً من فرعين صغيرين ، وفصلت أحدهما عن الآخر مؤكدة لابنتها أن « الله الخيّر لا يخطىء أبداً » . ولكن الطفلة أردفت فى غيظ مشيرة إلى قدمى أخيها الكسيح : «على كل حال إنه هو الذى أصاب قدمى چان بالكساح» . وعندما تشرق الشمس كانت الطفلة تحدث نفسها: «طبعاً، لأن أهل القرية جميعاً فى حاجة إلى المطر ، يأتى الله الخيّر بالشمس . »

ولكن الطفلة لم تلبث أن أيقنت أن والديها ليسا كل شىء فى هذه الحياة ، وأن هناك قوى تراهما ضعيفين ضئيلين . فقد أصيب چان بحمى التيفود ، ومات كلا الجد والجدة . هنالك شرعت تدعو الله من كل قلبها الوجل ، وتلاشت استفساراتها واعتراضاتها العدوانية [١] . إن تقبل هذه الطفلة لفكرة الله لم يتم إلا فى أعقاب محاولات جاهدة لإبعادها ، وكان أشبه شىء بالتسليم لخصم عنيد ، والرضوخ له بعد التأكد من قوته الفائقة على قوة والديها ، وبعد أن تيقنت أن حياتها مستحيلة بدون مصالحة ذلك الخصم . فليس غريباً إذن أن ينطوى أى إيمان على دوافع مضادة .

وثم مثال من تجربتنا الخاصة ، هو الطفل رقم (٥) الذى ظن أنه قد سلّم بفكرة الله ، ورأيناه ينافح عنها فى مناقشته معنا ، إلا أن دوافع التمرد والنقمة عليها كانت تغلبه من وقت إلى آخر فتظهر سافرة فى عبارات معادية يفوه بها ضد القرآن «كلام الله »، أو ضد «الشيخ »، أو ضد الله نفسه أحياناً . وعلى ذلك فلا نستطيع الجزم — فى سن مبكرة ، أعنى قبل سن السابعة — بأن الطفل قد ارتضى نهائياً فكرة الله ، وصالحها ، وأفلح فى كبت دوافعه السلبية ضدها .

وقد مر بنا أن الطفل إذ يسمع عن الله لأول مرة لا يهتم به، ولا يكون شعوره نحوه غير عدم الاكتراث الذى إن دل على شىء فإنما يدل على أن إيمانه

---

(١) P, Bovet, Le Sentiment Religieux, p. 44-45.

بألوهية الأب لم يتزعزع بعد، وأن كلمة « الله » لا تعدو أن تكون لفظاً لم يكتسب بعدُ أي دلالة انفعالية أو عقلية بالنسبة إليه . ولكنا نراه فجأة ينهال علينا بالأسئلة والاستفسارات عن ذات الله ، ونستشف من ذلك اهتماماً هو فى جوهره قلق أو عدم ارتياح ، أو اختلال فى التوازن الديناميكي يسعى الطفل إلى إصلاحه. ثم يمضى خطوة أبعد فيعرب صراحة عن إنكاره لوجود الله ، أو يسلم بوجوده ولكنه لا يخفى عِداءه له ، كما حدث لشريف (رقم ٥) إذ يواجه جدته بعدائه لله، وللطفل (رقم ٦) إذ يهدد بقتل الله بالمسدس ويباهى بأنه لا يخاف منه. هذا الموقف الإنكارى (أو العدائى) الصريح خير دليل على زيادة اهتمام الطفل بفكرة الله ، أى ازدياد مشاعر القلق نظراً لإلحاح الفكرة عليه إلحاحاً يزيد التوازن النفسى اختلالا ، وينذر بقرب وقوع الكارثة ، ألا وهى انهيار « ألوهية الأب » ، دعامة النفس الطفلية .

إن إنكار الله إذن خطوة أقرب الى التسليم به من عدم الاكتراث به . ذلك أن عدم الاكتراث بأمر ما ، أو الجهل به، معناه بُعدُ الأمر عن البال بعداً تاماً ، فى حين أن الإلحاح على إنكاره أمارة اهتمام وانشغال به . وذلك يؤيد المبدأ العام الذى قرره « فرويد »، وهو أن النفى للواقع المؤلم مرحلة وسطى بين كبته وبين قبوله . أى أن النفى الصريح لفكرة بغيضة ليس بكبت ولا هو بقبول لها ، إنما هو خطوة نحو ذلك القبول . ويعلل ذلك بأن إنكار الواقع المؤلم له أثر مهدئ للخوف الذى يثيره فينا، ومن ثمة يُعد المرء لقبوله . فبفضل تلك العملية (نفى الواقع) يتيسر للواقع الخارجى الغريب (ومن ثمة المعادى) أن يحتل مكانا فى الشعور على الرغم من « الألم » الذى يسببه . فالنفى مرتبة من مراتب الانتصار على القوى الكابتة التى تؤدى إلى الإغفال التام لكل ما هو بغيض أليم ، وبفضل النفى لا يعود الألم مجهولا ، وإنما يصبح موضوع إدراك فى صورة النفى، ولا يبقى بعدئذ غير خطوة واحدة لإزاحة آخر عقبة فى طريق تقبل الفكرة البغيضة وتأييدها . وليس «فرويد» وحده هو الذى يقرر ذلك ،

بل إن « فرنتزى » Ferenczi يزيد الأمر إيضاحاً حينما يقرر أن تأييد فكرة بغيضة « ليس شيئاً هيناً ، بل هو عملية نفسية مزدوجة — هو أولا : محاولة لنفى كونها حقيقة واقعة، ثم محاولة ثانية لنفى ذلك النفى. وهكذا فإن الإثبات ، أى الاعتراف بالشر ، يمكن اعتباره نتيجة حكمين سالبين . » [١] .

والخلاصة أن فكرة الله هى من أفكار الواقع الخارجى التى يبغضها الطفل فى سنه تلك الباكرة، وأنه كى يمضى فى النمو والتكيف لذلك الواقع لا بد أن يحتمل قدراً من الألم ، فهو يقبل فكرة الله ولكن بعد مرحلة إنكارية يكون الطفل خلالها مشغولا بمحاولة إدماجها فى تكوينه النفسى .

وما دام الله غير مرئى، فإن الطفل ينسج — مدفوعاً بمشاعره تلك — صوراً خيالية عنه ، هى فى غالب الأمر صور بغيضة ، خصوصاً إن كانت البيئة تقحم اسم الله فى التهديد أو الترهيب . والحق أن معظم الأطفال يعرفون الله أول ما يعرفونه لا من خلال الترغيب فحسب ، بل من خلال الترهيب كذلك . وهكذا تسهم البيئة فى جعل فكرة الله من أفكار الواقع البغيضة حين تقرنها بالقسوة والجبروت والموت . ومن العوامل التى تجعلها كذلك أيضاً ، أن الطفل يكتشف أن الله مسئول عن بعض الأمور البغيضة إلى نفسه ، كموت عزيز عليه ، أو مولد غريم جديد . ثم إنه يسأل عن مكان الله وشكله فيما يوجه من أسئلة إلى والديه « العليمين بكل شىء »، وغالباً ما لا يحظى بإجابات شافية ، بل كثيراً ما يُنهى عن ذلك صراحة . حينئذ يساوره — بسبب تلك السرية — ارتياب فى «حسن نية» ذلك الكائن الخفى ، وشك فى الاعتقاد بقدرة الوالدين المطلقة ، وكلا الأمرين مثار للقلق .

كل العوامل السالفة الذكر موانع انفعالية دون تقبل الطفل لفكرة الله فى بادىء الأمر ، ولكن ثم مانع عقلى لا بد أن نشير إليه :

---

(١) The Acceptance of Unpleasant Ideas. A chapter in : Further Contributions to Psycho-Analysis.

ذلك أن الأسلوب الطفلى فى التفكير يفرض على الطفل أن يعزو الحوادث إلى إرادة أبيه . وما دامت إرادة الأب سبباً كافياً لتفسير حوادث الكون، فلا حاجة بالطفل إلى علة أخرى (كالله) يفسر بها تلك الحوادث .

« تأليه الأب » إذن ضرورة انفعالية وأخلاقية وعقلية حتى سن الخامسة تقريباً، وهو البذرة التى تُنبت الإيمان بالله لدى الأطفال فى أى مجتمع مؤمن به .

تداعي ألوهية الأب

يكتشف الطفل مع نمو إدراكه للواقع، واتساع علاقاته، أن لقدرة الوالدين حدوداً وفى علمهما ثغرات . أما وقد أصبح يرى أن من الحوادث ما لا دخل للإرادة الأبوية فيه (بل ما يتم بالرغم منه)، فطبيعى أن تنحسر موجة التفكير الطفلى الذى يتصور إرادة الإنسان مركز الكون (التفكير الـ anthropo-centric) . حينئذ لا تصبح إرادة الأب كافية لتفسير كل ما يحدث، وبخاصة وأن الأب ذاته يؤكد ـ مسلكاً وقولاً ـ أن ثمة كائناً أو كائنات أقوى منه، وأكثر منه قدرة على الإنعام بالخيرات أو الابتلاء بالأذى . هنالك يساور الطفلَ الشك فى كمال أبيه المطلق (أى فى ألوهيته)، وحيث أن الأب مركز عالم الطفل ودعامة حياته الوجدانية، فطبيعى أن يؤدى ذلك إلى أزمة نفسية تختلف طولاً وحدةً باختلاف طبائع الأطفال، ونوع علاقاتهم الوجدانية بالوالدين. ومن المؤكد أن هذه الأزمة تحدث حوالى السنة الرابعة من العمر، وقد تدوم مع الهدوء التدريجى إلى ما قبل السنة السابعة من العمر .

تأخذ الأزمة شكل تبدد ـ تدريجى ـ للأوهام السابقة بخصوص ألوهية الأب . على أن حادثاً معيناً يكشف للطفل على نحو نهائى نقص الأب وعجزه

أمام قوة عليا ، حادثاً قد يبدو أنه نقطة انتقال فجائى من الدين الأبوى إلى الدين الإلهى ، ولكن الحقيقة أنه يكون بمثابة الحادث الذى يحسم الانتقال بعد تطور باطنى سابق عليه . فالتغير ليس تغيراً فى رأى أو عقيدة أو شعور بسيط ، بل هو شىء أعمق من ذلك : هو تنظيم جديد للحياة النفسية برمتها ، تفكك «للذرات» النفسية — إن صح هذا التشبيه — من حول « نواة » هى الأب ، و « تبلور » جديد لها حول « نواة » أصلح للطور الجديد ، هى « الأب السماوى » .

والمثال التالى يبين كيف ينهار عالم أفكار الطفل على أثر اكتشافه أن الاعتقاد بمطلق علم الأب (أو الأم) وهم باطل . تقول « إدموند جوس » :

« فى سن السادسة ، وقعت عدة حوادث صغيرة قليلة الشأن . وعلى الرغم من ظاهر تفاهتها ، فقد لعبت فى تاريخ تطورى العقلى دوراً رئيسياً . كان من عادة أمى أن تذكُر أبى فى غيبته . كنت أخلط بينه وبين الله ، فكنت أعتقد أنه يعرف ويبصر كل شىء . وذات مساء — وكنت فى السادسة من عمرى — بينما أنا وأمى فى الصالون الصغير إذ دخل أبى وقص علينا واقعة معينة ، وأذكر أننى كنت واقفة أمام المدفأة وقد تطلعت عيناى إليه . وما كاد يتم القصة ، حتى وليت ظهرى له فى ارتباك وشرعت أتأمل النار . لقد تواتنى صدمة كالعاصفة ، ذلك أن أبى لم يكن صادقاً فيما ذكره . فقد كنت وأمى من شهود الواقعة التى كانت فى ذاتها أمراً تافهاً ، وكنا نعلم أن ملابساتها على خلاف ما ذكر ، صححتها أمى فى رفق ، فأمَّن أبى على تصحيحها .

لم تكن لتلك الحادثة قيمة تُذكر فى نظر أبى ، أما بالنسبة لى فقد كانت اكتشافاً مذهلا لا ريب فيه : إن أبى ليس كالله ، وليس بكل شىء عليما . على أن الصدمة لم تكن بسبب الارتياب فى صدقه ، ولكن بسبب الشعور الرهيب بأنه لم يكن عليما بكل شىء كما كنت أعتقد من قبل . . .

لقد تبدد اعتقادى بعلم أبى المطلق وبعصمته ، من يدرى ربما لم يكن يعلم

إلا النذر اليسير ما دام لم يعرف واقعة هى من الأهمية بحيث إذا لم يعرفها فلا أهمية لكل ما يعرفه ،إن أبى ، ذلك الإله ، تلك القوة الطبيعية ذات النفوذ الشاسع ، قد سقط فى نظرى ، وهوى إلى مستوى الإنسان العادى . . . » (١) .

وفيما يلى وصف لأزمة أخرى تولدت عن اكتشاف الطفل لأول مرة أن اعتقاده فى مطلق القدرة الوالدية كان وهماً من الأوهام . وهو مأخوذ من حياة كاتب ألمانى يتحدث عن إحدى ذكرياته فى سن الرابعة ، حين التحق بالمدرسة لأول مرة :

« هنالك ، أذكر أنه داخلنى لأول مرة شعور بالرهبة من الطبيعة . ومن ذلك الشىء الخفى الذى يتصوره الإنسان وراءها . يمر الطفل بفترة غير قصيرة من حياته يهيأ له طوالها أن العالم بأسره طوع والديه (أو على أقل تقدير ، طوع والده الذى يراه محوطاً بالغموض) ، حتى ليسألهما صفاء الجو كما يسألهما دمية سواءً بسواء . تنقضى تلك الفترة حالما يكتشف — لشد دهشته — أن ثمة أحداثاً لا تأتى من والديه كما لا تأتى منه هو .

حينئذ ينقشع فى نظر الطفل قدر كبير من ذلك السحر الصوفى الذى كان يحيط بذلك الرأس المقدس ، رأس أبيه . ولا يبدأ الإنسان يستقل حق الاستقلال إلا بعد هذه اللحظة . وذلك ما حدث لى عند ما هبت عاصفة مرعبة مصحوبة بإعصار وصاعقة ، عاصفة فتحت عينى على ذلك الأمر ... (وصف العاصفة) انتصبت الخادمة واقفةً ، وصاحت فى رعب كأصغر الأطفال : " الله الخير غاضب " ثم أخذت تعظنى " ولتعلم أنكم جميعاً لا قيمة لكم " . وعلى الرغم من أن تلك الصيحة انبعثت من فم قليل الشأن ، غير أنها دفعتنى إلى أن أصعِّد البصر فيما فوقى وفوق كل ما يكتنفنى من أشياء ، لقد قدحتْ فى نفسى شرارة الدين .

وبعد عودتى من المدرسة إلى البيت ، ألفيت الحزن مخيما : فشجرة الكمثرى

---

(١) نقلها بوفيه عن : E. Goss, Père et Fils

لم تفقد ثمارها فحسب، بل جميع أوراقها أيضاً ، وشجرة الخوخ التى كانت تكفى الأسرة والجيرة جيعاً ، تجردت من أجمل فروعها ، فبدت جدعاء كتعاء... حينئذ أدركت — على حين غرة — لم كان أبى يختلف إلى الكنيسة كل أحد ، ولم كان علىّ كلما ارتديت قميصاً جديداً أن أقول « بارك الله فيه » . وتعلمت أن أذكر سيد الأسياد . إن خدامه الغضبى ، الرعد والبرق والبرد والعاصفة ، أولئك فتحوا أبواب قلبى على مصاريعها ، ليحتله الله بكل جلاله . . .

وذات مساء ، كان صفير الريح ينبعث فى قسوة من المدخنه ، والمطر يخبط السقف فى عنف ، إذ هُم بسبيل وضعى فى فراشى ، حينئذ استحال فجأة الدعاء المحفوظ الذى كنت أردده بطرف شفتى إلى تعبد خاشع حقاً . هكذا انقطع الحبل الروحى الذى كان — حتى ذلك الحين — يصلنى بوالدىّ دون غيرهما . بل أصبحت بعد ذلك أشكو إلى الله أبى وأمى كلما اعتقدت أن ظلماً لحقنى منهما . » (١)

وقد لاحظنا من جانبنا أن كثيراً من الأسئلة التى يوجهها الأطفال إلى آبائهم فى سن الرابعة لا يوجهونها بدافع « الرغبة فى المعرفة » بل بدافع الرغبة فى «معرفة إن كان الآباء يعرفون». أى أن الأطفال بمثل هذه الأسئلة يعربون عن الشكوك التى بدأت تساورهم بخصوص علم الآباء المطلق . وقد ثبت منذ زمن بعيد أن الطفل يمر فى سن السادسة تقريباً بفترة عقلية فلسفية ، فترة من الاستطلاع « الميتافيزيقى » لأصل الأشياء، والإنسان الأول ، ومولد الأرض ، بل مولد الله نفسه ، وأصل حياة الفرد ومولده ومصيره ، والفروق بين الجنسين ، والعلاقة بينهما ، والتوالد ، إلخ . . . فإذا كان ذلك الاستطلاع الميتافيزيقى ينبثق فجأة فى هذه الفترة ، كان دليلاً على سبق اهتمام الطفل بتلك المشاكل ، وعلى أن لديه لها تفسيرات « جاهزة » تلقائية ، تفسيرات بدأ يدرك أنها غير كافية فشرع يستعين بالكبار ؛ وكل ذلك

(١) ذكره « بوفيه » فى كتابه Le Sentiment Religieux ص: ٣٨ — ٣٩— ٤٠ نقلا عن Hebel.

ينم عن تغير وشيك فى اتجاه الطفل الفكرى .

ونخطىء خطأ جسيما ، إن اعتبرنا تلك الأزمة بزوغاً للاستطلاع العقلى فحسب ، أو تحولا يطرأ على الاتجاه الفكرى . إنما هى أزمة تطور شاملة كأزمة المراهقة ، سببها تبين المرء منافاة أحكامه المطلقة السابقة للوقائع والمشاهدات ، واضطراره من ثمة لمراجعة أفكاره واتجاهاته السابقة . وهذه المراجعة اضطراب يؤلم النفس. حقاً إن الأزمة ضرب من الاختلال يصيب التوازن النفسى الديناميكى، ولكنه الاختلال الذى لا مناص منه فى أى عملية تطور فى المجال البيولوجى أو الغريزى أو النفسى أو الاجتماعى . وكما أن الانتقال من حال الصلابة إلى السيولة — فى مجال الطبيعة — لا يحدث فجأة ، بحيث لا يستطيع المرء أن يقول إن المادة عند درجة حرارة كذا أصبحت سائلا صرفاً وأنها كانت قبلها مباشرة صلبة تماماً ، كذلك الحال فى الأزمة الدينية الأولى ، لا نستطيع أن نقول إن الطفل يأتى عند نقطة معينة فيقتلع من ذهنه الاعتقاد بألوهية الأب ليحل محله الاعتقاد بأب آخر مطلق الكمال ، ويحول شعوره الدينى إلى الموضوع الجديد .

إنما الذى يحدث تحول شامل بطىء نتيجة تطور داخلى وتفاعل بين الذات وبين عوامل خارجية . فالطفل يسمع عن الله إذ هو مطمئن إلى قدرة أبيه المطلقة ، قانع به كسند وجدانى ، دون أن يشعر نحو الله شعوراً خاصاً ، ثم يداخله بالتدريج نتيجة تراكم خبرات متعددة شعور معين نحو الله ، وفى الوقت عينه يتراجع الاعتقاد فى ألوهية الأب ، وقد يعرب الطفل مع ذلك عن معارضته لفكرة الله من آن لآخر . وهكذا نجده عند مرحلة التحول وقد تداخلت عناصر المرحلة السابقة وعناصر المرحلة المستقبلة . فأى تصور للتحول على أنه انتقال فجائى حاسم ، هو تبسيط مخل لا أثر فيه لديناميكية الواقع النفسى .

وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن تغير الاعتقاد (حلول الله محل الأب) ليس سوى مظهر خارجى لتغير أشمل ، هو بمثابة « مد نفسى » شامل يجلب تقدماً انفعالياً وعقلياً فى آن واحد وبدون تمييز أو انفصال بينهما . وفضلا عن ذلك فإن

الاعتقاد بكمال الله ونقص الأب يتم بالتبادل التدريجى : كلما تضاءلت الصفة الإلهية للأب ، زاد تقدير الطفل لله . والطفل – من تلقاء نفسه وبحكم سعيه الطبيعى للتكيف للواقع – يحتمل ذلك التغيير على ما فيه من ألم . وخير عون له على ذلك حبه لأبيه ، ورغبته الملحة فى التشبه به ، أو بالأحرى فى « إساغة » شخصيته ، بكل ما تنطوى عليه من مشاعر واتجاهات ومعايير وأفكار (من بينها فكرة الله) ، ويعمد كى تسهل إساغته لفكرة الله إلى تمثل ما تتضمنه من صفات الخير والطيبة والرحمة وغير ذلك من صفات تضفى عليه شيئاً من الأمن ، وينحى عن الشعور ما توهمه فيها من صفات الشر والقسوة والخبث ، ويغلّب المشاعر الموجبة على المشاعر العدوانية التى طالما وجهها نحو الله . والبيئة ذات أثر عظيم فى « تسويغ » فكرة الله ، سواء بمعاملتها الرقيقة للطفل ، أو بإلحاحها على الجانب الرحيم الطيب من ذات الله .

وهكذا تدخل الفكرة إلى حياة الطفل النفسية ، وتستقر فى غمارها لتصبح بدورها عاملا موجِّهاً نموها التالى . وهنا نقرر أن « إساغة » الطفل لفكرة الله يتم على نحو تكيفه لأبيه : فالأب من عناصر الواقع المؤلمة التى لابد من مصالحتها ، والطفل فى البدء يضمر له – كما يضمر لأى واقع معاكس – رغبات عدوانية ، ويتصوره فى صورة عدو شرير . ولكن سرعان ما يكبت تلك الرغبات العدوانية ، ويغلب عليها ما يكنه له من حب وإعجاب . وحينئذ يصير الأب مركز حياته الوجدانية ، ويصبح عاملا فعالا فى نموه . على أن الله إذ يحل محل الأب لا يكون موضوعاً جديدا بمعنى الكلمة ، بل يكون بمثابة امتداد لشخصية الأب ، أو بمثابة الأب الكامل حقاً الذى ليس الأب العائلى سوى صورة شائهة له .

الفصل السابع

أطوار فكرة الله فى الطفولة

الله « الأب الكامل »

إن الطفل إذ « يُسيغ » فكرة الله لا يقرن بها معانى جديدة، وإنما يخلع عليها ما كان يخلعه على أبيه من صفات الكمال . فالانتقال فى نظرنا ليس انتقالا من الإيمان بالأب إلى الإيمان بالخالق أو بالعلة الأولى، إنما هو انتقال من الإيمان بألوهية الأب إلى الإيمان بأبوة الله . وبذلك، نخالف الاتجاه التقليدى الذى يرى أن الطفل ينسب إلى الأب الكمالات الإلهية التى يستقيها من التربية الدينية ، ونرى على العكس من ذلك أنه ينسب إلى الله الكمالات التى كان ينسبها إلى الأب ، علماً بأن هذه الكمالات لم يستمدها من تلقين أو توجيه خارجى ، ولكنه تصورها فى الأب على نحو تلقائى دون أن يصوغها فى شكل معتقدات شعورية محددة . فالطفل يحب أباه على نحو ما ، هذا الحب يُترجَم فى لغة الفكر إلى تأليه أو تقديس . وكذلك الحال فيما يتعلق بنقل صفات الأب إلى الله، إذ لا يتم ذلك بعملية استدلال منطقية، إنما الذى يحدث أن الطفل « يحوّل » مشاعره الدينية عن أبيه إلى الله (الأب الكامل) فتترجم من تلقاء نفسها إلى تصورات (ضمنية) لله هى فى مجموعها الاعتقاد الجديد .

ونحن نتفق فيما وصلنا إليه مع الأستاذ « بوفيه » الذى يقول :

« نحن بصدد عملية paternisation لله، لا divinisation للوالدين . » أى أن المرء فى تطوره الدينى لا يبدأ بتصوره الأب على نحو تصورٍ سابقٍ لله، بل هو

على العكس من ذلك حين يؤمن بالله يتصوره على نحو تصوره السابق للأب. ويضيف بوفيه كذلك :

« عندما تزعزع الأزمةُ العظيمة عند الطفل دينَ الوالدين ، ينبثق دين الأب السماوى . »(١) .

وإن استعراض الحالات حتى سن الثامنة ليكشف لنا هذه الحقيقة بوضوح . فالله هو الذى يبعث لنا الغذاء والكساء ، وهو الذى يعاقب من نعجز عن معاقبته (كالمربية أو الأب) ،إلخ . . . أى أنه يؤدى نفس وظائف الأب ولكن بقدرة أكبر وعلى نحو أبرع . وإذا كان الطفل ينزه الله عن النقائص ، فلا يبلغ تنزيهه درجة تصور الروحانية لله ، وإنما يكون مجرد نفى لصفات الضعف التى يشاهدها فى الأب والكبار . فالله شخص ولكنه ضخم ، وهو يحصل على النقود ولكنها نقود لا تنفد ، وهو موجود فى حيز ولكنه يقيم فى بلد نائية أو هو عال فى السماء علواً شاهقاً لا يبلغه « أى سلم » ، وهو يعاقب المذنبين ولكن « بعصا كبيرة جداً » ، وهو يستجيب لرغباتنا أكثر مما يستجيب الأب ، أى أنه أكثر تدليلا لنا من الأب ، وهو أقدر من الأب على اكتشاف أخطائنا وإنزال العقاب بنا ، ومن هنا كان لا بد من استعطافه أملا فى أن يحقق أمانينا الطفلية وأن يجنبنا عقوباته . ولهذا فإن الدعاء أو الصلاة فى حياة الطفل إلى ما قبل الثامنة تقريباً يكون مجرد تخييلات «phantasies» أو أحلام يقظة يصدق عليها ما يصدق على الأحلام عموماً ، من حيث كونها تحقيقاً خيالياً لرغبات طفلية : أكل ، ونزهة ، والحصول على لعبة ما ، والنجاة من ضرب الأم بسبب ذنب اقترفه الطفل ، وحماية الأم (أو أى فرد يحبه الطفل) من الموت ، إلخ . . . وتؤدى الصلوات وظيفة أخرى هى تخفيف ما قد يعانيه الطفل من إحساس مؤلم بالذنب . فالترديد الآلى لعبارات محفوظة ، أو التكرار النمطى لطقوس معينة ، أو التنفيذ الحرفى

---

(١) Bovet, Le Sentiment Religieux... p. 46.

لنصيحة أبوية أسديت إليه على أنها رغبة إلهية ، أو التضحية من أجل شخص آخر ، كل ذلك محاولات للتكفير عن ذنب حقيقى أو موهوم .

وطبيعى أن اعتقاد الطفل بتلك الصلة الوثيقة بينه وبين الله ، بحيث إذا دعاه استجاب ، وإذا كفّر عن ذنب عفا عنه ، يدل على أن سمات طفلية لا تزال تشوب تفكيره ، أى أنه لا يزال يعتقد — ضمنياً — بقدرة أفكاره ورغباته وإن كان تحققها يتم بوساطة هى الله . وإذا كان الطفل فى هذه المرحلة يعزو الأحداث الطبيعية إلى إراد الله ، فليس يعنى ذلك إطلاقاً أنه يدرك الله باعتباره علة فاعلية على نحو تصورنا نحن للعلة . فالطفل لا يزال يعتقد بقدرة الأفكار المطلقة ، غير أن هذه القدرة بعد أن كانت منسوبة إلى الأب ، أصبحت الآن منسوبة إلى الله . الله إذن يؤثر تأثيراً سحرياً من بعيد . والدين علاقة شخصية بذلك الإله ، ولم يتسع بعد ليصبح تصوراً شاملا للكون .

* * *

كان الطفل فى المرحلة السابقة لا يكف عن تصور الله تصوراً ناقصاً معيباً ، فينسب له الرضوخ لإرادة « سيدنا محمد » ، واستذكار الدروس ، وإنجاز الواجب المدرسى » ، وانتظار آخر الشهر كى يقبض المرتب ، والعجز عن إرسال المطر ، وكان يتهمه بموت هذا ومرض ذاك وغير ذلك من أمور يراها شروراً . أما الآن فهو يعلى إرادته فوق كل إرادة ، ويتصوره أبا مطلق القدرة : يسيطر على أقدار الناس ، وينتقم من الظالمين ، وينتصف للضعفاء ، ويحقق الأمانى ، ويعاقب على الخطأ ، ويستجيب للدعاء .

وكانت مشاعر الطفل نحوه فى المرحلة السابقة مشاعر سلبية فى صميمها : الخوف ، العدوان ، الريبة . وكان يسعى إلى تقبل فكرة الله هياباً وجلا ، وكانت تصوراته له ملائمة لتلك الانفعالات . وكان اختفاء الله يزيده إمعاناً فى موقفه السلبى ، إذ يراه دليل نية شريرة ، أى أن اختفاء الله لم يكن فى نظره احتجاباً ، ولكن تربصاً وترصداً .

ولم يكن تساؤله المستمر عن مكان الله وشكله بدافع الرغبة فى المعرفة بقدر ما كان بدافع الخوف والحاجة إلى الأمن . أما فى هذه المرحلة ، فقد كتبت الغلبة للانفعالات الموجبة (الحب والإجلال) وأصبحت علاقة الطفل بالله يسودها الأمن والثقة . ولذلك لم يعد احتجاب الله يقلقه بنفس الدرجة . ونلاحظ أن الطفل بعد السابعة من العمر قلما يتساءل – من تلقاء نفسه – عن احتجاب الله ، وإن فعل جاء تساؤله أقل تشبعاً بانفعالات القلق ، أوجاء بدافع الرغبة فى رؤية الله واستكناه سره العظيم .

وإن الطفل – إذ يتقبل فكرة الله نهائياً فى هذه المرحلة – يُسكت فى نفسه كثيراً من الأسئلة والاعتراضات التى ما ونى عن ترديدها فى المرحلة السابقة ، وبعد أن كان يضيق بتحفظ الكبار فى الرد على أسئلته واعتراضاته ، وينسج من ذهنه إجابات شخصية خيالية ، إذا به الآن يتخلى عن بعضها ، ويلتمس الإجابة عن بعضها الآخر فى الإجابات «الجاهزة» التى تتضمنها التعاليم الدينية . وبذلك لا تعود به ثمة حاجة كبيرة للتأمل الشخصى فى هذه الأمور .

معنى ذلك أن تقبل الطفل لفكرة الله كما اقترن بكبت انفعالى ، فهو يقترن أيضاً بقدر من التعطيل العقلى . وكأن ذلك التعطيل تضحية يحتملها الطفل فى سبيل حبه الناشىء لذلك الأب الجديد ، وكأنه توفير لقدر من الطاقة يكفل الانطلاق فى ميدان خارجى هو ميدان الواقع الاجتماعى والطبيعى على حد سواء ، ذلك الانطلاق الذى يتميز به الطفل فى مرحلة الطفولة المتأخرة .

بل إن الطفل – بحكم تلك العاطفة الناشئة – ليمعن فى تنزيه الله حتى ليبرئه من أعمال هى من صميم وظائفه فى نظر الكبار ، كالموت ، والمرض ، والمظاهر الطبيعية المرعبة . وذلك رد فعل لاتجاهه السابق : فهو فى سبيل تنقية فكرة الله من كل الشوائب التى سبق أن ألحقها بها ، يغلّب صفة الخير المطلق على صفة القدرة المطلقة . فكان – مثلا – يبغض الله لأنه سبب الموت ، أما وقد

أصبح يحبه فالموت لم يعد فى حسبانه من فعل الله . وهو لا يدرى أنه بذلك يحد من سلطان الله . والتفسير الذى أراه لهذه الظاهرة هو أن الطفل فى هذه الفترة لا يكون فى حاجة إلى إله عظيم للكون بقدر ما يكون فى حاجة إلى أب رفيق امه هو . يترتب على ذلك أمر هام، هو : أن إيمان الطفل بالله ليس اعتقاداً أو فرضاً عقلياً ، إنما هو اتجاه وجدانى أقرب إلى حاجات الطفل ودوافعه الذاتية منه إلى فهم المجتمع له ، وأن فكرة الله إشباع تخييلى لحاجة الطفل إلى أب مثالى .

الله وفكرة العِلّيّة

دين الطفل حتى سن الثامنة (تقريباً) مجرد علاقة شخصية ، علاقة وجدانية (فى صميمها) بينه وبين كائن خفى يتصوره بطريقته الخاصة . أما العقائد والأفكار اللاهوتية التى قد تلقنها البيئة إياه فى هذه السن فلا تصير جزءاً حقاً من تكوينه الفكرى الخاص إلا فى مرحلة متأخرة . فليس أثر البيئة فى نشأة الشعور الدينى وتطوره هو فى التلقين النظرى والتدريب الآلى ، ولكنه فى التفاعل بين الطفل وهذه البيئة . وبناء على ذلك فإن فكرة الله تنشأ نتيجة وجود موقف إنسانى يشتمل طفلا له ديناميكيته التلقائية ، وبيئة لها تراثها الثقافى الذى يأتلف من أفكار عدة من بينها فكرة الله ، وهذه الأفكار هى بدورها قوى أو ديناميكات . أما التأثير التعليمى فيأتى فى مرحلة متأخرة بعد أن تكون بذرة الله قد نبتت بمقتضى طبيعة الموقف السالف الذكر ، لا بمقتضى تعاليم أو آراء وأقوال تلقى على الطفل قصداً وعلى نحو موجه .

هذا يفسر لنا لماذا كان التطور الذى يعترى فكرة الله يتبع نموذجاً واحداً فى خطوطه الرئيسية لدى الأطفال عموماً على اختلاف بيئاتهم . وتتضح وحدة النموذج هذه أكثر ما تتضح فى فترتين : الطفولة الأولى حتى سن السابعة تقريباً ، والمراهقة . فى هاتين الفترتين تكون الغلبة فى تغيرات الشعور الدينى لتأثير

الديناميكات الذاتية ، فى حين أن الفترة المتوسطة بينهما هى فترة انشغال فى الاندماج فى النموذج الاجتماعى القائم أى فترة انسحاب القوى التلقائية رضوخاً لمؤثرات المجتمع الخارجية .

ونحن فى نهاية السنة السابعة من العمر – تقريباً – نجد أنفسنا أمام طفل هذه حالته : طفل مستقبِل للتأثير الخارجى . ولا يُفهمن أن الاستقبال هنا موقف سلبى محض ، إنما هو حالة انشغال نشط فى الاندماج فى الواقع الخارجى . يتحول اهتمام الطفل عن ذاته إلى الخارج ، إلى العالم الطبيعى ودنيا المجتمع . ولا أقول إن الطفل هنا قد قطع كل صلة له بالأسلوب الطفلى فى التفكير (الأسلوب السحرى) ، ولكنا لا نعدو الحقيقة إن قلنا إن موجة ذلك التفكير قد انحسرت ، وظهرت طلائع موجة التفكير الموضوعى وإن لم تغمر حياة الطفل العقلية بأسرها . وهذا النمو العقلى لا يتم بمعزل عن النمو الدينى . وهنا نعيد ذكر التشبيه الذى أوردناه قبل ذلك ، ألا وهو أن النمو النفسى يحدث على نحو تقدم المد الهائل الذى يشمل الجوانب جميعاً ، انفعالية وعقلية . فإذا ما انبثق التفكير الموضوعى فى غمار ذلك المد ، كان له أكبر الأثر فى بروز الله كعنصر هام فى تصور الطفل للكون بعد أن كان مجرد موضوع لعلاقة شخصية محض . وذلك ما سنحاول بيانه على مرحلتين :

أولا : أثر فكرة الموت فى نشأة العلية العلمية .

ثانياً : أثر العلية العلمية فى تصور الطفل لله .

أثر فكرة الموت فى نشأة التفكير المنطقى :

يرجح « بياچيه » وجود علاقة وثيقة بين نمو فكرة الموت وبين النمو العقلى عامة [١] . فقد وجد أن اهتمام الطفل فى سن باكرة بفكرة الموت يقترن بنشأة فكرة الصدفة ، الأمر الذى يعتبر ترقياً عقلياً أكيداً ، فإن من أهم الفوارق

The Language and The Thought of The Child, p. 175. (١)

بين تفكير الطفل وتفكير الراشد أن الأول لا يقبل فكرة الصدفة ولا يجد لها محلا فى سلسلة الأحداث المترابطة . فالطفل لا يستطيع أن يتصور شيئاً يحدث دون سبب كاف، وهو يحاول دائماً أبداً أن يجد لكل شىء سبباً ، حتى لما قد يعتبره الراشدون من قبيل الصدفة، أى ناتجاً عما يدعوه « العلِّية الإحصائية » (statistical causality) . أما لماذا يعتبر إدراك فكرة الصدفة (أو الحظ) ترقياً، فذلك لأنها مرحلة انتقال وسطى بين العلِّية الذاتية والعلِّية العلمية .

أسلفنا أن الطفل فى مبدإ نموه العقلى ينسب الحوادث إلى رغباته وأفكاره، ثم إلى رغبات والده بعد ذلك . هذه النظرة العلمية للأشياء ترتبط ارتباطاً وثيقاً باعتقاد الطفل بالقدرة (السحرية) المطلقة للأفكار والرغبات ، وهو اعتقاد يعتبر من أخص مميزات التفكير الطفلى الذى وصفه « بياچيه » بالتفصيل تحت اسم « التركيز فى الذات » [١] (ego-centricity) . وقد لاحظ « بياچيه » أن تفكير الطفل فى مرحلة التركيز الذاتى ، يخلو من فكرة الموت . جهل الطفل إذن بفكرة الموت يقترن باتجاه فكرى طفلى يصور له أنه أو أباه مركز ذلك العالم، وأن الحوادث إنما تقع طبقاً لإرادته ويبدو ذلك فى صورة محسوسة من الفقرة التالية من ذكريات الطفولة لأحد كتاب القرن السابع عشر :

« فى البدء كان كل شىء يبدو جديداً غريباً ، غاية فى القدرة والإمتاع والجمال . . . ما كنت أعلم أن ثمة خطايا أو شكاوى أو قوانين . كل شىء كان مستريحاً حراً خالداً . ما كنت أدرى شيئاً عن مرض أو موت، أو عن أجر أو نقود تُقتضى لأداء جزية أو شراء خبز . . . الزمان كله أبدية وسبت مقيم ....

القمح دقيق نقى لا ينفد . . لن يُحصد ولم يُبذر . . كنت أظنه هكذا قائماً منذ الأزل إلى الأبد . . لم أكن أعلم أن الناس يولدون وحيا هم

---

(١) L'Idée de La Causalité Chez l'Enfant.

يموتون ، بل الأشياء جميعاً تستقر أبداً فى أماكنها . كانت الأبدية كوضح النهار ، ومن خلف الأشياء جميعاً يطالعنا شيء لا نهائى : يداعب الأمل، ويستثير الرغبة . كانت المدينة كأنها عدن أو فى السماء .

الدروب دروبى ، والمعبد معبدى ، والقوم قومى ، ملابسهم .. وذهبهم.. وفضتهم.. ملك يمينى ، وكذلك عيونهم المتألقة وجلودهم الرقيقة ووجوههم المشرقة . السماوات سماواتى .. وكذلك الشمس والقمر والنجوم .. والعالم بأسره ملك لى ، وليس من أحد غيرى يشاهده ، وينعم به . ما كنت أعلم عن ضياع مُملكة أو حدود وأقسام ، بل هذه وتلك جميعاً ملك لى بكنوزها وأصحابها . ثم أفسدتنى الضجة الكبرى ، وعُلِّمتُ حقائق ذلك العالم المرة . » (١)

فى ذلك التأمل الاسترجاعى لمشاعر الطفولة الأولى تحليل دقيق لحالة التركز الذاتى التى تحدث عنها « پياچيه » ، أو « النرجسية » التى تحدث عنها « فرويد » . ويتبين من ذلك التحليل أن نزعة التركز الذاتى تنطوى على جهل بالواقع . ولكن ذلك الجهل ليس فراغاً أو عدماً كما نفهمه نحن الكبار ، بل هو مضمون عقلى موجب يوجه تفكير الطفل وجهة معينة . وليس فى ذلك المضمون وجود لفكرة الموت ، وحيث لا موت فلا حدود زمانية ، لا معنى للبداية أو للنهاية « كأن ثمة شيء يطالعنا من خلف الأشياء جميعاً » ، « يداعب الأمل ويستثير الرغبة » . وحيث أن العجز عن إدراك فكرة الموت من خصائص تفكير الطفل الغارق فى اللانهائية ، فطبيعى إذا ما اقتحمت فكرة الموت ذهنه أن يتغير أسلوبه السحرى فى التفكير ، وأن تصاغ حياته العقلية صياغة جديدة . (٢)

هذه الصياغة الجديدة بينها لنا « پياچيه » حين قال إن إدراك الطفل

---

(١) Traherne, Centuries of Meditations, p. 72.

(٢) لنا عودة إلى ذلك الموضوع فى فصل « نشأة فكرة الموت وتطورها » .

لظاهرة الموت يجعله يتنبه إلى أن من الحوادث ما يقع دون أن يكون للدوافع النفسية دخل فيه، وبذلك يقضى على مبدإ العِلِّية السحرية الذى يخضع له التفكير فى الطفولة الأولى . بيان ذلك أن الموت حادث يصيب شخصاً ما على الرغم منه وعلى الرغم من أولئك الذين يحبونه . وبذلك يكون للطفل بمثابة الدليل على أن الفكرة أو الرغبة ليست كما كان يتوهم مطلقة القدرة . ولكن «سيلفيا سدنى» ترى أن الطفل لا يصل إلى هذه النتيجة (أعنى عقم الأفكار) إلا بشرط أن تكون الغلبة لعنصر الحب فى شعوره نحو الشخص المتوفى وأن يكون عنصر البغض مكبوتاً : فالموت لا ينفى العلية (السحرية) فى هذه الحالة ، إذ يبقى ثمة احتمال أنه حدث (على نحو سحرى) نتيجة بغض إنسان ما للشخص المتوفى . وإنما يقوم الدليل الحاسم فى حالة الحب فقط ، فحينئذ يتبين الطفل أن الحب ليس بوسعه دائماً أن يحول دون موت من نحب . هنالك يساوره الشك فى قدرة الأفكار السحرية ، وعندما تنتفى العلية السحرية يصبح بمقدور الطفل أن يفكر تفكيراً منطقياً، أى طبقاً للعلية العلمية .[1]

وكأن واضعى المنطق قد تنبهوا إلى أن اكتشاف الموت (العِلِّية الإحصائية) هو مبعث التفكير المنطقى ، فدرجوا على أن يستهلوا تعليم المنطق التقليدى بالقضية « كل إنسان مائت ». وخلاصة ما اتفق عليه « بياجيه » و « سيلفيا » أن إدراك الطفل للعلية العلمية رهن بظهور فكرة الموت ، وأن ذلك لا يحدث قبل سن السابعة .

أثر العِلِّية فى تصور الطفل لله :

وحيث أن إدراك الطفل للموت يُكسبه مبدأ عقلياً جديداً ، هو مبدأ العلية ، وحيث أن العلية (كأية فكرة أخرى) عندما تندمج فى الحياة

(١) اكتشاف الطفل للموت ، تأليف سيلفيا ، ص : ١٥٥ .

العقلية تُكسب المرء اتجاهاً جديداً يظهر صداه فى كل جانب ، كان من الطبيعى أن يظهر صدى ذلك أيضاً فى تصور الطفل لله . وذلك ما تؤكده الملاحظة : إذ لم أصادف لدى أى طفل قبل سن السابعة فكرة الله باعتباره علة – بمعنى الكلمة – وسن السابعة هى السن التى حددها « پياچيه » (وأكدت ذلك بحوث « سيلڤيا ») مبدأ للتفكير المنطقى الذى يستند إلى مبدإ العلية المنطقية . وإذا كان الطفل قبل ذلك ، ينسب إلى الله ما يجرى من أحداث ، فلم يكن ذلك إلا من قبيل نسبته الأحداث فيما مضى إلى إرادته، ثم إلى إرادة أبيه بعد ذلك . أعنى أن الأمر لم يكن إرجاع معلول إلى علة ، بل إرجاع حادث إلى رغبة شخص ما دون تدخل فعلىّ من جانبه ، أى كانت العلية لا تزال علية سحرية ، ولم يكن الطفل مهتما بالربط بين الحوادث الخارجية ربطاً علياً حقاً.

ولكنا رأينا الطفل بعد ذلك يُشغل بالعالم الخارجى ، ويتنبه إلى ما يوجد بين الظواهر الخارجية من روابط ضرورية لا تتوقف على إرادة فرد ما ، فيحاول بدوره إذا رأى ظاهرة ما أن يلتمس علتها فى عالم الظواهر نفسه ، ولا يعود يقحم إرادة الله إلا عندما يعجز عن المضى فى الاستقصاء العلىّ للظواهر . وكلما زاد حظ الطفل من المعرفة الموضوعية ، تأخر لجوؤه إلى الله ، فليس الطفل حتى هذه السن – فى تَنظمه لسلسلة العلل والمعلولات – بمنجىً من إقحام حلقة لا تقتضيها العلية العلمية ، مما يدل على أنه لا يتحرر تماماً فى هذه السن من التفكير السحرى .

وخير مثال لتطور فكرة الله من حيث علاقتها بفكرة العلية ، الطفل رقم (١٤) فقد رأيناه فى سن الخامسة بعيداً عن الاهتمام بتتبع الظواهر الخارجية من حيث علاقاتها المتبادلة ، قانعاً بردها جميعاً إلى رغبة كائن واحد هو الله « الأب المثالى » ، بل لا يهمه اكتشاف طبيعة ذلك التأثير :

يمرض شخص ما فيرى طفلنا أن الله هو الذى ألحق المرض به ، وما كان الله ليفعل ذلك لو لم يكن ذلك الشخص ارتكب إثماً ؛ ويشفى شخص آخر

وحيث أن الشفاء خير ، يستنتج الطفل أن الله أراد ذلك لأن ذلك الشخص خيِّر . فالمرض أو الشفاء ظاهرة لا تهم الطفل من حيث كونها ظاهرة طبيعية مستقلة عن رغبات الإنسان ودوافعه ، بل إن الاتجاه السحرى يغلب على تفكير الطفل ، ومن شأن ذلك الاتجاه أن يصرف المرء عن التحليل الموضوعى للظواهر بصفتها ظواهر مستقلة عن رغباتنا ودوافعنا .

تظهر طلائع التفكير الموضوعى بعد سن السابعة ، فنرى الطفل يعزو المرض إلى اضطراب جسمى ، والاضطراب الجسمى إلى إفراط أو قذارة فى الأكل ، وإلى هذا الحد يتمشى التفسير مع العلية العلمية . ولكن موجة التفكير السحرى لا تكون قد انحسرت انحساراً تاماً ، فلا يفوت الطفل أن يعتبر المرض فى نهاية الأمر جزاء من الله على ذنب اقترفه المريض . وكذلك الحال فى شفاء المريض : يعزوه الطفل إلى أثر دواء جيد ، والدواء أعده طبيب ، ولكن ما كان لهذا الدواء أن يكون ذا أثر فعال إلا لأن الأم أرادت ذلك ، وهى خيرة فلا بد أن يستجيب الله لها . وهكذا تزداد بالتدريج حلقات العلل الطبيعية وتتأخر حلقة الله عن ذى قبل . لم يعد الطفل يقنع برد الحوادث جميعاً إلى العلية السحرية ، وإنما يبذل الجهد أولا فى استيفاء سلسلة العلل الطبيعية (القريبة) ثم يضع الله فى نهايتها (باعتباره العلة البعيدة) .

وكأننا بالطفل يتنازعه تياران : تيار التفكير السحرى المتراجع ، وتيار التفكير العلمى المتقدم ، والطفل يحاول انتشال فكرة الله من التيار الأول ليضعها فى سياق التيار الثانى ، أى أنه يحاول أن يدمج فكرة الله فى تصوره للكون تصوراً طبيعياً . ولكنه لا يفلح فى ذلك بادىء ذى بدء ، إذ يبقى الله مؤثراً فى الحوادث بناء على رغباته وبناء على دوافع الأشخاص ، لا بناء على ضرورة طبيعية هى نظام الكون . ومع ذلك فإن مجرد تنبه الطفل إلى علاقة الله بالعالم الخارجى — على أى نحو كانت تلك العلاقة — أمارة تقدم فى تصوره لله .

الخلق :

لا يحتل الله مركزه من تصور الطفل للكون قبل أن يصل إلى فكرة خلق العالم . وينبغى أن ننبه هنا إلى أن الطفل يردد كلمة الخلق بمفهومين : خلق أفراد الإنسان ، وخلق العالم جميعاً . أما خلق الأفراد فليس غير مشكلة الميلاد ، وحيث أن الطفل يجهل حتى سن متأخرة التفسير الطبيعى للميلاد فهو ينسبه إلى العلة التى يلجأ إليها دواماً كلما أعجزه التفسير (أعنى الله) . أما كيف أتم الله فعل الميلاد فأمر يختلف تصور الطفل له باختلاف السن- نجده فى الثالثة أو الرابعة يتصور أن الله يشق البطن ويضع الطفل الذى يخرج فيما بعد كما يخرج الطعام .وقد يتصور فى سن الخامسة أن الله يرسل مزيداً من الطعام إلى الأم ، فيتحول الطعام إلى طفل صغير يأخذ فى النمو حتى يكبر فيخرج من البطن . وذلك التفسير الأخير- على الرغم من سذاجته- أكثر موضوعية من التفسير السالف الذكر ، ففيه إدراك مبدئى لظاهرة النمو الطبيعى بدون تدخل شخص ما تدخلا مباشراً ، فى حين أن التفسير الأول يدل على أن الطفل ليس لديه أى إدراك للتغير التلقائى فى الطبيعة ، وإنما الظواهر جميعها نتيجة تدخل مباشر لشخص ما .

ويسجل الطفل فى السابعة تقدما جديداً حين يشغل بالإنسان الأول : كيف ولد ، أو كيف خلق – على حد تعبيره . نقول إن ذلك تقدم لأنه دليل على أن الطفل لم يعد قاصراً على الاهتمام بنشأته هو أو بنشأة ذلك الفرد أو ذاك ، وإنما اتسع اهتمامه بحيث شمل الإنسان جميعاً . وحين يصل إلى هذا الحد ، لا يعود فعل الميلاد كافياً لتفسير نشأتنا ، لأن الطفل عندما يسأل : « وكيف خُلق أول إنسان؟ » كأنه يقول : «إن أسطورة الميلاد من أم لم تعد تكفينى » . وهنالك يصبح أمام مشكلة كونية لا إنسانية ، ولا يحل هذه المشكلة غير « الله » . إذن فمشكلة الميلاد هى الجنين الذى يأخذ فيما بعد شكل مشكلة الخلق .

وبعد أن يتحقق للطفل فصل فكرة الخلق عن فعل الميلاد، يصبح بمقدوره

حقاً أن يفكر فى الله بصرف النظر عن صلته بالإنسان . أى أن ربط الله بالإنسانية جمعاء خطوة تمهيدية تفضى إلى التفكير فى صلة الله بالعالم كله ، ولا تتم تلك الخطوة قبل سن الثامنة أو التاسعة . حقاً إن البيئة تنهال على الطفل بقصص الخلق قبل هذه الفترة ، ويردد الطفل وراء المربين هذه القصص ، ولكنه لا يفهم الخلق بمعناه الحق قبل هذه السن . فإذا ُخبِّر بخلق آدم مثلا فى سن الخامسة – وآدم هو الإنسان الأول – فآدم بالنسبة إليه ليس إلا فرداً كأبيه وُلد كما ولد الأب. أى أن الخلق هنا ليس خلق الإنسانية بل مولد فرد معين . تستطيع البيئة أن تلقن الطفل أعقد نظريات الراشدين ، ولكن الطفل فى تصوره لها لن يكون إلا طفلا يفكر فى مستوى طفلى . وقد يوفق المربون فى تلقين الطفل القصص والتعاليم التى تناسب مرحلته من النمو ، وحينئذ قد يجد فى الدين التقليدى ما يشبع حاجاته الراهنة . وقد يخطىء المربون فى تعرف اهتمامات الطفل الدينية فى هذه المرحلة أو تلك، فيقدمون له تفسيرات دينية غير ملائمة ، وحينئذ إما أن ينبذها كما ينبذ أية فكرة لا تتسق مع تكوينه النفسى المتكامل ، وإما أن يتقبلها – على مضض – مجاملة للأهل وضماناً لاستمرار عطفهم ، ولكنه تقبل مؤقت يخفى معارضة مكبوتة يفصح عنها الطفل فى فترة تالية من النمو كفترة المراهقة .

° ° °

على أن الطفل عندما يُشغل بمسألة خلق الله للعالم، لا يأتى بنظرية فى الخلق من عنده ، وإنما يستمدها من المحيط الثقافى . ولكن الأطفال جميعاً يتفقون على أن الخلق ليس من عدم ، وذلك لأنهم عاجزون عن تصور بداية مطلقة أو نهاية مطلقة : هنالك دائماً شىء ما ، أما الخلاء المطلق أو العدم فلفظ ليست له دلالة فى ذهن الطفل ، وهو فى ذهن الرجل يدل على مجرد نفى لصفات وجودية ، والنفى لا يتضمن العدم . بل إن الطفل القادر على استقصاء العلل الموضوعية إلى أقصى حد ، يضطر إلى تنصيب كائن ما فى نهاية السلسلة تمشياً

مع المبدأ « لكل معلول علة » ، وعجزاً عن تصور حد أول . وإن أقر معنا الطفل بأن الله هو العلة النهائية التى ليس فوقها علة ، فإنما إقراره ذلك مجرد رضوخ للواقع ، ومن المحقق أن ذهنه لا يتوقف عن التساؤل « وماذا بعد ذلك ؟ »

إن ظهور فكرة الخلق دليل على أن الطفل قد تم له التوفيق بين فكرة الله (التى نبعت من التفكير الطفلى) وبين التفكير الموضوعى ، أى دليل على أنه قد وجد لها مكاناً فى تصوره للكون وبذلك تصبح منسجمة مع الاتجاه الفكرى الجديد . ذلك أن فكرة الله عند بدء ظهورها تتضمن صفة جوهرية هى القدرة على كل شىء ، القدرة السحرية التى لا تتقيد بنظام ولا تخضع لأية ضرورة . الله (ذلك الأب المثالى) أقرب إلى أن يكون « ساحراً معجزاً » منه إلى أن يكون « صانعاً مدبراً » . وبتعبير آخر إن فكرة الله فى أول نشأتها تنطوى على ما يناقض الضرورة الطبيعية . والطفل يشعر بذلك شعوراً ضمنياً ، ولا يقوم الأمر فى ذهنه مقام العقيدة الشعورية الواضحة . ويأتينا تأييد ذلك من حديث الطفل (رقم ١٤) فى سن الثامنة عن القيامة ، إذ يتبين منه أن « القيامة » من فعل الله وحده . ولا دلالة لها فى ذهنه أكثر من كونها نهاية عهد النظام الطبيعى ، وبدء عهد جديد لا يخضع الكون فيه لغير إرادة الله المطلقة من كل قيد أو إلزام .

وإن الطفل الذى ارتضى فكرة الله وارتبط بها وجدانياً ليصدم حالما يتبين أن ثم عِلّية علمية ، أى ضرورة طبيعية تهدد القدرة السحرية لله ، فيحاول التوفيق بين هذه الضرورة وبين فكرة الله . وعن هذا الصراع العقلى يتولد تصور جديد لله ، هو « الله علة النظام الطبيعى » . فما أشبه نشأة ذلك المعنى الجديد بنشأة معنى « الله الأب المثالى » الذى تولّد بدوره عن الصراع بين تصور الطفل لأبيه مطلق القدرة ، وبين إدراكه لظواهر واقعية تنفى هذه القدرة .

وإن انتقال الطفل من فكرة « الله الأب » إلى فكرة «الله الخالق» ارتقاء فى التفكير الدينى من مرحلة تكون فيها صلة الطفل بالله صلة فى مستوى وجدانى

صرف إلى مرحلة تكون الصلة فيها فى مستوى عقلى إذ يصبح الله ضرورة للتفسير . وهو فضلا عن ذلك ارتقاء وجداني ، ففى المرحلة الأولى يكون الله حكراً له أو للإنسان ، فعلاقته به من ثمة علاقة نرجسية محورها ذاته أو جنسه ، علاقة أنانية طفلية أساسها الأخذ . أما فى المرحلة الثانية فليس الإنسان كل شيء ، وليس الله لخدمة ذلك الإنسان فحسب، فهنالك العالم ، وبذلك نكون بصدد موقف ثلاثى يضم الله والطفل والعالم. ولا يصبح الطفل مهتما بالاحتكار الأنانى لله ، بل يكون فى حاجة إليه كى يفسر له العالم (الذى أصبح يشغل قسطاً كبيراً من اهتمامه) .

الله والروحانية

لعل فكرة الروح هى الفكرة الوحيدة من بين الأفكار الدينية التى يكتسبها الطفل بأسرها من التلقين ، ذلك أنه عاجز عن تصور كائن لامادى . قد يتقبل الطفل روحانية الله فيما يتقبل من تعاليم الدين ، ولكنه لا ينى عن تصور الله تصوراً حسياً يمضى فى سبيل التجريد على نحو تدريجى : فالله فى بادىء الأمر إنسان عادى تتشكل صورته وتتكيف بحسب مشاعر الطفل نحوه ، بل يكون أحياناً طفلا لا يختلف عن الأطفال إلا من حيث احتجابه عن الأنظار ، وهو أحياناً عجوز مسن (بابا نويل مثلا عند صغار المسيحيين أو شيخ معمم عند صغار المسلمين ، وقد وفرت المسيحية على أطفالها جهد تكوين صور خيالية له فزودتهم بعديد منها) .

على أن الطفل وإن كان لا يجرد الله من المادية منذ البدء ، إلا أنه يحاول — منذ أن يحول إليه طاقته الوجدانية — تنزيهه عن صفات النقص دون أن يرقى به ذلك التنزيه إلى تصور اللامادية المطلقة : فالله طفل ، ولكنه كبير أو مجد أو مطيع لا يخطىء ؛ وهو طالب ، ولكنه ليس بالروضة بل بكلية الحقوق ؛ ثم إنه لا يرسب ، وليس كزملائه طالباً فحسب بل يملك الكلية كلها ؛ وهو موظف بالحكومة (كأبيه) ، ولكن النقود التى يربحها لا تنفد فيشترى كل ما يريد ؛ وهو دائماً أبداً محتجب

لا نراه . وقد يكون الاحتجاب هذا دليل عجز من جانب الله فى نظر الطفل ، الذى سرعان ما ينزه الله عن ذلك العجز ويعتبر الاحتجاب بإرادته ، بل قد يمضى إلى أبعد من ذلك (حالما تتوطد علاقته بالله على أساس الود والتبجيل) فيعتبر احتجابه دليلا على القدرة والإعجاز ، بعد أن كان دليل عجز أو تربص وسوء نية [١] .

بعد أن يفصل الطفل فكرة الله عن فكرة الأب ، قد يتخلى عن تصوره لله شخصاً إنسانياً ، ولكنه لا يستطيع أن يجرده عن المادية والمكانية . لكنه يستطيع — بجهد إرادى — أن ينفى الخلقة والتكوين الجسمى عن ذات الله . وحينئذ نراه يعرض عن الاجابة على سؤالنا « ما شكل الله؟ » إذ يرد قائلا « لم أره ، لا أعرف شكله . . . لا شكل له . . . لا يستطيع أحد أن يعرف شكله » . وهذه الردود وإن لم تتضمن وصف الله بأنه روح ، إلا أنها تدل على أن الطفل يبغى تنزيه الله عن المادية ، وإن كان عاجزاً عن تصور الروحانية له .

والخلاصة أن « روحانية الله » لا يمكن أن تتجاوز عند الطفل حد الاعتقاد بعدم إمكان رؤية ذات الله ، وتنزيهه عن صفات الجسمية والنقص والتحديد ، وضرورة اختفائه ضماناً لكماله .

أما الله باعتباره الطاقة التى ينطوى عليها الكون ، أو جماع القوانين التى يلتزمها العالم الطبيعى ، أو المثل الأعلى الذى تتشبه به الكائنات ، أو الغاية التى يسعى إليها الأحياء ، فهذه جميعا أفكار ميتافيزيقية لا قِبَل للفرد بتأليفها قبل أن يشرف على اكتمال النمو العقلى .

---

(١) راجع حديث الطفل رقم (٥) .

الله كضرورة أخلاقية

أسلفنا أن نمو التفكير الموضوعى يجلب معه توسعاً فى « لاهوت » الطفل ، إذ تنشأ فكرة خلق العالم التى تُكسب الله صفة كونية بعد أن كان مجرد سند وجدانى فى علاقة شخصية . ونضيف هنا أن الطفل فى الطفولة المتأخرة – نتيجة اتساع خبرته بالواقع ، وتعقد صلاته الاجتماعية – ترتقى أخلاقيته إذ تبعد عن مستوى اللذة أو المتعة ، وتقترب من فكرة الواجب ، ويزداد إدراك الطفل للمسئولية وفكرة العدالة . ولسنا هنا بصدد تفصيل القول فى الشعور الأخلاقى ، فالذى يهمنا هو أن نمو الحس الأخلاقى يُكسب دين الطفل مسحة أخلاقية : فيزداد اهتمامه بما ينطوى عليه من وصايا ، ويصبح الكتاب السماوى لا مجموعة من القصص الدينى فحسب بل بالأحرى مجموعة قوانين عادلة يحكم بها الله كى تهدينا إلى الخير ؛ ولا تعود عقيدة الجنة والنار ضرباً من التخيلات (أعنى تحقيقاً خيالياً لرغبات طفلية) بل ضرورة أخلاقية تحتمها حاجة الطفل إلى الضبط والتعويض ، ويحتمها أمر آخر هو العدالة الإلهية . ويصبح الله فضلا عن كونه سنداً وجدانياً ، سنداً أخلاقياً أيضاً ، أى عوناً للطفل على مناهضة نوازع الشر فى نفسه . وكما تبيّن الطفل – قبل ذلك – ضرورة الله لاكتمال تصوره للعالم الطبيعى ، يتبين هنا ضرورته لاكتمال تصوره للخير وما يتصل به من ضرورة الثواب والعقاب ، إلخ . . .

وتنم أحاديث الأطفال فى أخريات طفولتهم عن اهتمام شديد بالله من حيث هو منصف للأخيار ، معوّض لهم عما لاقوا من حرمان ، ومن حيث هو منتصف للضعفاء ، منتقم من الظالمين . ولا شك أن تصور الطفل لله على ذلك النحو خير عون له على تقبل ما قد يتعرض له من آلام الواقع ، وما قد يضطر إليه من تضحية أو حرمان .

ولهذا فإن الصلاة وغيرها من ضروب النشاط الدينى ، تكون لدى كبار

الأطفال أكثر جدية منها لدى صغارهم . فهى قبل أن يبلغ الأطفال هذه المرحلة الأخلاقية فى شعورهم الدينى لا تكون نشاطاً دينياً حقاً ، إنما تكون أقرب إلى اللهو أو النشاط الاجتماعى . فمن الطبيعى أن تكون صلاة الطفل فى هذه المرحلة توسلا حقاً إلى الله أن يعينه على نوازع الشر فى نفسه ، وأن يشد أزره فى طاعته ، وأن يمنحه التأييد والرضى .

وعندما يكتسب الدين هذه الصفة الأخلاقية يصبح الخير الأسمى أوامر من عند الله . وهكذا يقترن تطور الشعور الدينى بتعديل فى فكرة الخير الأسمى . فهو فى المرحلة النرجسية الأولى اللذة ، وهو فى مرحلة تأليه الأب التزام أوامره ، وعند ما تنشأ فكرة الله، يصبح الخير الأسمى التزام أوامر الله إرضاء لله نفسه بصرف النظر عن الأب . والدليل على ذلك ما لاحظناه من أن أشنع جريمة فى نظر أطفال التاسعة وما بعدها ، هى « سب الدين » . فالقيم الدينية هنا تعلو على قيم الأسرة ، ومعنى هذا أن أخلاقية الأسرة تابعة لأخلاقية الدين : مثال ذلك أننا فى العاشرة نطيع الأب لأن الله يريد ذلك ، فى حين أننا كنا فى الخامسة أو السادسة من العمر نطيع الله لأن أبانا يريد ذلك . وهذا التحول مظهر رقى اجتماعى ، إذ هو ارتقاء من مستوى التكيف الاجتماعى للأسرة إلى مستوى التكيف الاجتماعى للملّة .

لقد اقترب الله — عن ذى قبل — من نفس الطفل ، وما ذلك إلا لأن الطفل قد اقترب من ذات نفسه ، وبدأ يفطن إلى الصوت الأخلاقى الداخلى ، وأصبح الله صدى لذلك الصوت ، أو ضميراً علوياً يوافيه حين يعجز ضميره الداخلى عن صد تيار الغرائز . وذلك يبين لنا أن فلسفة « كانت » تنطوى على حدس سيكولوجى نافذ ، إذ تعتبر الأخلاق — لا العقل — الطريق الذى يوصلنا إلى الله ، وإذ تقرر أن تحليل « الأمر المطلق » أو « فكرة الواجب » تؤدى حتما إلى فرض وجود الله باعتباره ضرورة أخلاقية . وكذلك الطفل الكبير ، لا يقوم إيمانه على ضرورة منطقية بل على ضرورة أخلاقية .

ويتصل بذلك التطور الأخلاقى للدين وضوح اعتقاد الطفل بفكرة الشيطان الذى يزداد ترديد الأطفال لاسمه حوالى سن العاشرة . لقد ألِف الطفل أن ينسب دوافعه المحظورة إلى كائن خارجى ، فالاعتقاد بالشيطان صدى لحاجة الطفل إلى التنصل من تلك الدوافع . ولكن معظم الأطفال فى سن العاشرة — سن التطور الأخلاقى السالف الذكر — يفطنون إلى أن الشيطان ليس كائنا خارجياً ، بل هو منبع الشر فى نفوسهم . لم تعد تجوز على الطفل حيلة «الإسقاط» ، فإذا به وجها لوجه أمام نزواته الذاتية التى ينكرها أشد الإنكار ، ويحار فى أمرها ، ويعتبرها جزءاً معادياً فى داخلية نفسه . ولذلك فإنه يحتفظ باسم الشيطان للدلالة على ذلك الجزء من نفسه . أى أن الشيطان يفقد صفته الهذائية فى ذلك الجزء من نفسه هذه السن لدى الأطفال الأسوياء .

ولكن الطفل المشكل قد يرى الشيطان حقيقة خارجية ، أى أنه لا يتخلص من الهذاء الطفلى . ذلك أنه لا يزال يعيش فى عالم العفاريت والغيلان التى اكتنفت طفولته الأولى ، ولا يزال خوفه من الواقع حائلا دون الاندماج فيه ، والبعد عن الواقع مُذكياً لمخاوفه الهذائية . وكذلك حال الأطفال ضعاف العقول . أما الطفل السوى المتوسط الذكاء فينمو إدراكه لواقع الحياة بالتدريج ، ويعزز نموه ذاك ما يلقاه من عطف وتوجيه رقيق من بيئته . وكلما نما إدراكه للواقع ، قربت الشقة بين عالمه الداخلى (عالم المشاعر والأخيلة) وبين عالم الواقع الخارجى (الذى يعمره الناس ، لا الشياطين والملائكة والمردة) ، ذلك العالم القائم على الحقائق الاجتماعية ، حيث يستطيع الطفل أن يجد له مكاناً . هنالك تتزحزح الشياطين من العالم الخارجى ، وتصبح مجرد رموز لنزعات داخلية ينكرها الطفل ويناهضها ويستعين بالله (السند الأخلاقى) على مغالبتها .

ويتعارض مع فكرة الشيطان فكرة الملاك ، الذى يتصوره معظم الأطفال نتيجة عملية تأليفية : يجردون الجوانب الميثولوجية من الأم ، ويفصلونها عن الجوانب الإنسانية ، ويؤلفون منها صورة قدسية هى الملاك . ولكن دراستى

لتصورات فتيات فى إحدى المدارس الابتدائية، بينت أن بعض الفتيات — ابتداء من سن العاشرة — يرون الملاك رجلا يشخص صفات الجمال والطهارة والرحمة. ومهما اختلفت تصورات الأطفال للملاك، فهو لدى الجميع تجسيم لصفات الخير والرحمة والطهارة الأخلاقية. حقاً إن جل هذه التصورات مستمد من تعاليم الدين، ولكن مما لا شك فيه أنها تستجيب لحاجات نفسية لدى الأطفال وإلا لفظتها أذهانهم.

أثبتنا من قبل أن تقدم التفكير الموضوعى عند الطفل يصحبه تراجع لصفة الله الوجدانية (الأبوية)، وبروز لصفته الكونية، وقد أثبتنا هنا أن تقدم الحس الأخلاقى (وهو فى الحقيقة مظهر لتقدم التفكير الموضوعى)، يصحبه تراجع لصفة الله الكونية وتقدم لصفته الأخلاقية. ومن ناحية أخرى: إذا كنا قد أثبتنا من قبل أن بروز الصفة الكونية لله ينمى لاهوت الطفل، وينقله من حال اللاهوت الضمنى (الذى يكاد يقتصر على فكرة واحدة هى الله، لم تتبلور مشاعره نحوها لتكون عقائد شعورية متميزة)، إلى حال اللاهوت الواضح (الذى يتضمن —فضلا عن فكرة الله أب الإنسان— فكرة خلق الله للعالم، وفكرة تدخل الله فى أحداث ذلك العالم)؛ فإنا قد أثبتنا هنا أن بروز الصفة الأخلاقية لله يزيد اللاهوت الطفلى ثراء، فيصبح عالم الدين مملكة بأسرها يتربع على عرشها الله «القاضى العدل» ويأتمر بأمره — فضلا عن العالم الأرضى — الملائكة ويناهضه الشياطين، وهناك الجنة والنار، وبتعبير آخر هناك فكرة الثواب والعقاب والبعث.

وإن كنا قد أثبتنا — فى مجال الشعور الدينى — أن التفكير الأخلاقى مرحلة متأخرة بالنسبة للتفكير الكونى، فإنا نجد تأييداً لهذه النتيجة من مصدرين آخرين: أولهما البحوث السيكولوجية فى تطور التفكير، تلك التى تثبت أن إدراك الطفل للعالم الخارجى أسبق من إدراكه لما يدور بنفسه من أمور. وثانيهما

تاريخ الفلسفة الذى يؤكد لنا أن الإنسانية شُغلت بتأمل العالم الخارجى (macro-cosmos) قبل أن تشغل بتأمل العالم الداخلى (micro-cosmos) .

الله والحس الاجتماعى

أشرنا عند الحديث عن ظهور الصفة الأخلاقية للدين ، إلى ما ينطوى عليه ذلك من ترق اجتماعى ، إذ يعلى الطفل القيم الدينية فوق القيم العائلية . ونضيف هنا أننا لاحظنا أن الأطفال بعد سن الثامنة ينم حديثهم أو سلوكهم عن أنهم بدأوا يفهمون أن الدين ليس عقيدة شخصية أو عائلية ، بل هو عقيدة مجتمع بأسره . يحدث ذلك لا من جراء النمو العقلى وما يجره من نمو الحس الاجتماعى فحسب ، بل من جراء زيادة اتصال الطفل بالمظاهر الاجتماعية للدين : الصلوات الجامعة ، والأعياد ، والمواسم الدينية ، والموالد ، ودروس الدين فى المدراس ، إلخ . . . وهكذا بعد أن كان الدين علاقة بين الطفل والله ، يصبح رابطة تربطه بالمجتمع عن طريق الله . أى أن الله يصبح ضرورة اجتماعية ، ويغدو تقبل قواعد الدين — على أى نحو كان — أمراً لا مناص منه لاندماج الطفل فى ذلك المجتمع ، كما يغدو الدفاع عن تلك القواعد مظهراً لارتباط الطفل الوجدانى بالمجتمع . ويظهر صدى هذا التطور لا فى فكرة الله فقط ، بل فى سائر الأفكار التى يتألف منها لاهوت الطفل . فالجنة لم تعد « تخييلات » هى تحقيق لرغباته الطفلية الأنانية ، بل لم تعد المكان الذى يتمنى أن ينفرد فيه بأمه أو بأسرته ، وإنما تصبح بمثابة المكان الذى يعتقد (يتمنى) أنه سيضم كل من يدينون بدينه لينعموا سويا بالراحة وحب الأب السماوى فضلا عن الحب المتبادل فيما بينهم .

ولكن فى الوقت نفسه الذى يتنبه فيه الطفل إلى أن الدين يربطه بقوم معينين ، يتنبه إلى أنه يفصله عن قوم آخرين لهم دين مغاير . فإذا كان ظهور

صفة الدين الاجتماعية مظهر ارتقاء فى التكيف الاجتماعى ، فهو من ناحية أخرى مظهر لفرقة اجتماعية .

ولكن ذلك أمر لا مناص منه ، لأن الطفل لا يستطيع أن يقفز مرحلة من مراحل النمو ليبلغ غاية النضج دفعة واحدة ، وإنما كل مرحلة تؤهل لما بعدها . فهو كى يحقق التكيف للمجتمع المحدود لابد أن يسبق ذلك تكيُّفُه لأسرته ، وكذلك لا بد له كى يحقق التكيف للإنسانية أن يحقق أولا التكيف للمجتمع المحدود ، ملّة كانت أو وطناً . والبيئة عامل مهم فى ذلك التطور ، وعليها أن تعين الطفل على أن يغادر المرحلة الدنيا فى الوقت الملائم ، ليتم عملية التطور . ولكن يحدث أحياناً أن يقف المجتمع حجر عثْرة فى سبيل التطور الطبيعى. مثال ذلك أن يغالى فى تمجيد صفات مرحلة معينة وبذلك يقيد الطفل بها ويثبته عندها . فإذا كان المجتمع غير ناضج من حيث تكيفه للإنسانية جمعاء ، وكان متعصباً لقيم دينية معينة ، أو قيم قومية خاصة ، كان من المرجح أن يطبع الأطفال بطابع التعصب لهذه القيم ، ويكون اهتمام الجيل الجديد بالفوارق بين مجتمعه والمجتمع الآخر أكثر من اهتمامه بالروابط التى تصله بأفراد مجتمعه . فالتعصب إذن ليس خاصية تلقائية ، ولكنه أسلوب شاذ فى التكيف الاجتماعى ، لاتقتضيه طبيعة النمو ، وإنما يفرضه الوضع الثقافى على الأفراد فرضاً .

والدليل على هذا أن من أهم عوامل تمرد المراهقين على الدين اكتشافهم — بعد درجة من النضج العقلى — أن التعصب للدين والتحامل على الأديان الأخرى ، هما من هذاءات الطفولة التى ينبغى أن تبدد فى حملتهم الثورية على المجتمع ومعاييره البالية . فنرى حماس بعضهم فى التعامل مع الأصدقاء من غير دينهم تعاملا مقصوداً ينطوى على الرغبة فى معاندة أهل دينهم ، وكسر النطاق الذى طوقوهم به منذ طفولتهم . بل إن كثيراً من الأطفال الأذكياء يفطنون إلى غرابة التفرقة الدينية وتعارضها مع القيم التى تلقنها البيئة إياهم ولما يتجاوزوا الطفولة بعد ، ومن هؤلاء الطفل (رقم ١٤) ، والطفل (رقم ١٢) .

كل ذلك يدلنا على أن الأوضاع الثقافية التى تسود المجتمع ، لو تطهرت من هذا التعصب والاعتقادات الفاسدة prejudices ، ضمنا جيلا أكثر قدرة على التكيف الاجتماعى . ذلك أن التعصب إن كان يحقق التماسك بين أفراد عقيدة ما ، فهو التماسك القائم على دوافع سلبية : الخوف من أفراد العقائد الأخرى ، والارتياب فيهم ، وإضمار العدوان لهم . وما ذلك بتماسك ، إنما هو إجراء دفاعى ضد عدو موهوم .

أما التماسك الحق فهو الذى يقوم على دوافع موجبة ، ألا وهى المحبة المتبادلة بين أفراد العقيدة الواحدة . تلك المحبة تزيدهم شعوراً بالأمن وبالتالى تزيدهم ثقة بأنفسهم ، ثقة هى خير كفيل بالقضاء على مشاعر الارتياب من المجتمعات المغايرة .

والتاريخ خير دليل على ما أرى : فإن التسامح المذهبى إنما يسود فى عهود المذهب الذهبية ، حين يكون متمكنا من القلوب ، واثقاً من نفسه ؛ فى حين أن الطغيان المذهبى يبدأ حين يحس المذهب أن عوامل الفناء أخذت تدب فى كيانه .

ولنعد للطفل ثانية : إن إدراكه القيمة الاجتماعية للدين هو فى ذاته ارتقاء وتقدم ، وإن هذا الإدراك يتضمن إدراكاً للفوارق الدينية . وليس معنى هذا أن الطفل فى سن التاسعة يدرك الفرق بين عقائد دينه وعقائد الأديان الأخرى . ولكن كل ما هنالك أنه يفطن إلى فكرة الخلافات الدينية ، أما الخلافات ذاتها فلا يدرك منها غير القشور – يدرك الطفل مثلا أن المسيحيين هم الذين يذهبون إلى الكنيسة فى حين يؤم المسلمون الجامع ، أو أن « الآخرين هم الكفار ونحن المؤمنون » ، أو أن « هؤلاء مصيرهم إلى الجحيم ونحن إلى النعيم » ، أو هؤلاء لا يصومون رمضان ونحن نصومه ، وهكذا . . . ومعنى ذلك أن التعصب الدينى فى الطفولة المتأخرة ليس تعصباً لمذهب أو عقيدة ، بل هو تعصب لجماعة بالذات . وبتعبير آخر – تعصب الطفل للدين هو تعصب له ، لا فى

ذاته ، ولكن من حيث هو الرابطة التى تربطه بمجتمعه .

لقد بينا حتى الآن أن الله فى مبدإ الأمر كائن خارق عجيب بالنسبة للطفل ، يكاد يكون فى ناحية ونحن والعالم فى ناحية أخرى ، وتكاد صلة الطفل به تكون صلة وجدانية وسحرية . ولكن نمو التفكير الموضوعى يجعل الطفل يعقد صلة بين الله وبين العالم الطبيعى . ثم إن ارتقاء الحس الأخلاقى يقرب الله من داخلية الطفل ، كما أن الترقى الاجتماعى يفسح له مكاناً فى العلاقات الاجتماعية . ونخلص من هذا الاستقراء بنتيجة أخيرة هى :

يحاول المرء مع النضج النفسى أن يقرِّب فكرة الله من الواقع (الطبيعى والنفسى والاجتماعى) .

الفصل الثامن

فكرة الموت عند الطفل

نشأتها وتطورها

من تقاليد المدنيات الحديثة محاولة إخفاء مشاهد الموت عن الأنظار ، وجعلها بمنأى عن الملأ . ليس هذا فحسب، بل إنها لتمعن فى هذا السلوك حتى لتحاول إبعاد فكرة الموت عن أذهان النشء. وما تلك الشبكة المعقدة من طقوس الوفاة ومراسم الدفن والحفلات الجنائزية إلا حيلة محبوكة الأطراف لصرف الذهن عن الموت ذاته للانشغال بأمور من صميم الحياة . وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن حقيقة الموت مصدر رعب للإنسان ، ومثار قلق يتطلب ضرورة التماس مختلف الوسائل لتخفيفه. هذا الرعب أو ذاك القلق يجعل الناس حريصين على حجب حقيقة الموت عن أذهان الأطفال ، ظناً منهم أنهم أكثر من الكبار رعباً وقلقاً من الموت . وهكذا نجد أن فكرة الموت تخضع لما تخضع له فكرة الجنس من خطر وسرية ، ويحوطها ما يحوط بها من رهبة وقلق . وإلى ذلك قصد الأستاذ « فلوجل » حين قال : « إن الناس يتحدثون عن شخص ميت كما يتحدثون عن امرأة ساقطة » ، أى فى حرص وتستر وشيء من الرهبة .

ذلك هو الجو العام الذى يكتنف حقيقة الموت قبل أن تندمج فى خبرة الطفل، وهو جو كفيل بأن يشبعها بشحنة انفعالية قوامها القلق الذى لا ينطوى على أى فهم عقلى . إن صلة الطفل بالموت تبدأ صلة انفعالية ، ولا ترقى إلى المستوى المعرفى إلا فى مرحلة متأخرة . ذلك أنه يمضى على الطفل حين من الدهر قبل أن يدرك أن لهذه الحياة التى يحياها نهاية ، بل قبل أن يخطر بذهنه أن الناس

يموتون بمعنى أن حياتهم سوف تنتهى . وقد تتاح له فرصة مشاهدة موت قريب ، أو الاستماع إلى حديث الأهل عن موت هذا الشخص أو ذلك ، ولكن حيث إن ما يراه ويسمعه ليس إلا مظاهر حسية صرفة ، وحيث إن الموت ذاته لا يمكن أن يكون موضوع خبرة مباشرة ، فإن تصور الطفل له فى بادئ الأمر لا ينطوى على أى معنى من معانى الفناء أو الرحيل الأبدى ، بل يكون على العكس من ذلك تصوراً يتألف من عناصر لا تخرج عن مظاهر الحياة . فاستجابة الطفل الصغير لفكرة الموت استجابة الرعب لا تدل على أنه يدرك حقيقة الموت كما يدركها الكبار .

وإن أى شخص سوىّ مكتمل النموّ يتضمن إدراكه للموت العناصر الآتية :

١ ــ أنه نهاية طبيعية لهذه الحياة .

٢ ــ أنه مصير محتوم لا للحيوانات فحسب بل للناس أيضاً .

٣ ــ أنه مصير للذات أيضاً وليس للغير فقط .

فهل نجد هذه العناصر أو أحدها لدى الطفل فى طفولته الأولى ؟ إن الملاحظة قد دلتنا على أن الموت عند الطفل يتضمن المعانى الآتية :

أولاً ــ الموت عقوبة :

ترد كلمة الموت إلى سمع الطفل فى سياق العبارات التهديدية التى يوجهها الكبار إلى الصغار (أو يتبادلها الكبار فيما بينهم على مسمع من الطفل) ، فيقترن الموت فى ذهنه بمعنى العقوبة التى يتصورها فى السن الباكرة مجرد آلام وأوجاع جسمية يحسها الميت ، وذلك تصور يناقض فكرة الموت عند الكبار . على أن الطفل قد يصل إلى فكرة « الموت عقوبة » على نحو آخر ــ كأن يشاهد شخصاً يحتضر ، ويعانى آلاماً معينة ، أو كأن يسمع عما يلاقيه الميت من آلام قبل موته أو بعده . حينئذ يستنتج بمنطقه اللاشعورى أن الميت لا بد أن يكون قد قارف ذنوباً استحق عليها هذه الآلام التى يسمونها « الموت » . وقد تزداد معلومات الطفل عن الموت مع تقدمه فى السن مع تزايد الأحداث الواقعية . فيعلم أن الميت

يدفن فى حفرة عميقة ، فيهال عليه التراب ، وتنهشه الديدان ، وقد يهيأ له أن وحوش الأرض كالثعابين تبتلعه ، أو أن النمل يأكل جسده ؛ ولكنه دائماً أبداً متوهم أن الميت يحس كل هذه الأمور ويعانيها ، ومن أجل ذلك يرتعد فرقاً من الموت لا لكونه « موتاً » ولكن – على العكس من ذلك – لكونه تألماً وعذاباً « بالحياة » .

وحيث إن الموت عقوبة ، والعقوبة لا ينالها إلا من أذنب ، فالموت إذن ليس مصيراً عاماً ، إنما هو كارثة تصيب المذنبين فحسب ، بل إن بعض هؤلاء بعد أن ينالون قدراً من اعقاب يعودون إلى الحالة الطبيعية ، أعنى حالة البعد عن الآلام والمظاهر السالفة الذكر .

ثانياً – الموت مرض :

يقترن الموت فى أذهان معظم الأطفال بفكرة المرض ، أى أن معناه لديهم توقف أو اضطراب فى بعض الوظائف الحيوية المألوفة . ولذلك كنا نجد الموت يرد فى تخيلات الطفل مقترناً بصور الأطباء والمستشفى والأدوية . وحيث إن الموت مرض فإن الشفاء منه ليس أمراً مستحيلاً ، كما أن الإصابة به ليست أمراً محتوماً على الجميع . معنى هذا أن فكرة «الموت مرض» شأن فكرة « الموت عقوبة» لاتنطوى على العناصر التى يتضمنها معنى الموت عند الكبار . وقد يكون المرض عقاباً ، وبذلك تتداخل معانى الموت وتمتزج فى ذهن الطفل .

ثالثاً – الموت حادث طارئ :

الموت نتيجة حادث غير طبيعى (كاصطدام أو غرق) ، أو نتيجة عدوان بالضرب . وفى هذه الحالة لا يخرج الموت عن معنى القتل ، ولهذا السبب كان أمراً طبيعياً أن يقترن الموت دائماً فى تخيلات الطفل « بالإسعاف » . وذلك فهم ذو دلالة جوهرية إذ يخرج بالموت عن نطاق الظواهر الطبيعية الضرورية ،

أو يصوره بمثابة حادث شاذ طارىء. ومرة ثالثة فالموت ليس مصيراً عاماً ، كما أنه ليس نهاية ضرورية .

رابعاً — الموت نوم :

غاية ما يفهمه الطفل الصغير من الموت فضلاً عن الآلام والعقاب والمرض ، أنه توقف للوظائف الحيوية كما هو الحال عند النوم ، إذ تغلق الحواس عن مشاهد العالم الخارجى (فلا نرى ، ولا نسمع ، ولا نأكل ، وقد لا نتنفس)، وإذ نعجز عن بذل النشاط (فلا نلعب ، ولا نجرى ، ولا نضرب ، إلخ . . .) . وحيث إن النوم أمر مؤقت ، كان الموت بهذا المعنى أيضاً غير مطابق للموت بمعناه لدى الكبار .

مراحل تقبل فكرة الموت

نخلص من ذلك إلى أن فكرة الموت عند الكبار نتاج نهائى لتطور طويل ، وأنها تناقض طبيعة التكوين النفسى للطفل فى المرحلة الأولى من نموه ؛ بل إن الموت بمعناه — الطفلى — فكرة بغيضة إلى النفس . وكلما زاد إدراك الطفل لحقيقتها زاد بغضه لها ، ومن ثمة ازداد محاربةً لها بوسائل الحرب النفسية ، من كبت ، إلى تحوير للمعنى وتشويه له ، إلى تخفيف له بإضافات معينة ، وهكذا . . . ولا يمكن للفرد أن ينضج ما لم يتقبل حقيقة الموت النهائية . ولكنه لا يستطيع أن يُصدم بها دفعة واحدة ، ولذلك فهو يسيغها على مراحل ، وكل مرحلة منها تعدّه لتقبل المعنى الذى يلائم المرحلة التالية . وهكذا نلمس وجه الشبه بين تطور موقف الإنسان من الجنس sex وتطور موقفه من الموت : كلا الجنس والموت مثار للقلق ، وكلاهما يتطلب من المرء اتخاذ مختلف الإجراءات الدفاعية (كالكبت ، والتابو ، والرمزية ، والتهرب ، والتكوين العكسى reaction-formation) ؛

وحقيقة كلٌ النهائية لا يسيغها المرء إلا بعد عملية نمو طويلة تتألف من مراحل كل مرحلة منها تعد للمرحلة التالية .

يبدأ اهتمام الطفل بالموت حوالى السنة الثالثة ، ويأخذ ذلك الاهتمام شكل أسئلة يتوجه بها لوالديه— يسأل عن « فلان » الذى مات أخيراً : متى يعود وما ذا يحدث له ؟ وما السبب فى أنه مات؟ ويسأل عن أمه : هل ستموت كغيرها ؟ وكم من الزمن تبقى ميتة ؟ وماذا تفعل فى غيبتها ؟ إلخ . . . وهذا الاهتمام ليس دليلاً على جهل كلى بالموت ، بل هو على العكس من ذلك دليل على أن الطفل قد تكونت لديه خبرة معينة بالموت ، وإلا كان موقفه موقف عدم المبالاة التامة . وليس الاهتمام دليلاً على خبرة عقلية فحسب (أيا كانت ضآلتها وخطئوها) ، بل هو دليل أيضاً على القلق ومن ثمة الطمع فى أن يعينه الكبار على تخفيفه . ومعلوم — كما أسلفنا — أنه يندر جداً أن يسمح للطفل بمشاهدة مشاهد الدفن ، أو أن يحظى من الكبار بإجابات شافية عن أسئلته المتعلقة بموضوع الموت ؛ ولذلك يلعب خياله دوراً كبيراً فى تكوين فكرته عن الموت ، ويتلقف من أحاديث الناس عناصر يفهم بعضها فهماً شائهاً ، ويدرك بعضها الآخر بتفكيره الحسى ، وينسج من هذه العناصر جميعاً تصوراته للموت .

ثم يحدث بعد ذلك أن يعرب الطفل — على نحو ما — أنه ينكر حقيقة الموت ، وكأنما هو بذلك يحارب خطراً وشيك الوقوع ، أو يتهرب من واقع مرير . فالطفلة (رقم ٣) مثلاً بعد أشهر من بدء انشغالها بفكرة الموت نتيجة وفاة شخص تعرفه ، تقول لأمها : « عند ما تموتين سأنتظرك عند فلان حتى تعودى ، وسوف أصب عليك صفيحة جاز حتى تصحين » . إن الطفلة قد أحست بالخطر وخشيت أن تحرم من أمها ، فهى تنكر هذا الأمر إنكاراً جاهداً . ولكنها بعد ذلك وفى مناسبة أخرى تتساءل : « أمن يموت أبوه أو أمه يضربه الناس ؟ » . وكأنما الطفلة — على الرغم من إنكارها الموت إنكاراً تخيلياً — تحس إحساساً خفياً أنه كارثة لابد من وقوعها . وعلى أية حال فإن الانشغال بإنكار حقيقة الموت

علامة على قرب الاعتراف بها . وقد أسلفنا عند الحديث عن تقبل الطفل لفكرة الله ، أن إنكار الواقع البغيض يهيء النفس لقبوله ، فهو يقلل من حدة القلق الذي يسببه ، ومن ثمة يزيد النفس قدرة على مجابهته .

والطفل لا يستسلم دفعة واحدة ، فهو حينما يجد أن الإنكار لا يغنى شيئاً ، وأن الإشكال يبقى مع ذلك قائماً ، يضطر إلى تقبل الموت ولكن بمعان تنافى حقيقته : فهو مرض يُحتَمل البرء منه ، وهو رحيل يعقبه عودة ، وهو فراق إلى حين يعقبه لقاء ، وهو نوم ثم يقظة ، إلخ ... والطفل بهذه التصورات إنما يعلل النفس بأن الموت حادث مؤقت ، ولكنه لا يلبث بعد أن تتزايد خبرته واتصالاته بالواقع أن يرى الموت رحيلاً لا لقاء بعده . ولكنه — مع ذلك — لا يكون قد فطن بعد إلى أن الموت ظاهرة عامة ، إنما هو أمر فردى حدث لهذا وذاك ، وربما يحدث لزيد أو لعمرو من الناس . أى أن الموت برغم أنه أصبح ظاهرة واقعية غير أنها مجرد ظاهرة اتفاقية لا تخضع لقانون مطرد . وبناء على ذلك لا يستنتج الطفل من وفاة أناس معينين أن الموت مصير عام للناس جميعاً ؛ لأن مثل هذه النتيجة المنطقية لا يصل إليها المرء إلا حين يدرك اطراد الظاهرة الطبيعية ، أما مجرد الحدوث الاتفاقى فلا يستنتج منه الطفل أكثر من احتمال حدوثها لآخرين .

هذه النتيجة تتفق تماماً مع ما وصل إليه الأستاذ « بياچيه » فى بحثه عن فكرة العلِّية عندالطفل ،إذ يرىأن العلِّية العلمية تسبقها خطوة تمهيدية هى ظهور العلية الإحصائية ،أى فكرة الاتفاق أو الصدفة . وهذه الأخيرة رهن بظهور فكرة الموت عند الطفل باعتباره الحادث الاتفاق الحق فى نظره . ويرى بياچيه أن فكرة الصدفة هذه تظهر حوالى سن السابعة . وقد رأينا — بدورنا — أنه ما من طفل قبل سن الثامنة يدرك إدراكاً واعياً حقيقة « كل إنسان مائت » . وهذه السن هى التى عينها « بياچيه » مبدأ للتفكير المنطقى الذى يستند إلى إدراك العلِّية العلمية . ونحن نتفق أيضاً مع « سيلڤيا سيدنى » التى قررت أن عبارة « كلنا مائتون » لا تكون لها دلالتها قبل سن الثامنة.

« كل إنسان مائت » ، ذلك اكتشاف خطير يصيب الطفل حتما بهزة انفعالية ، وتستحوذ على انتباهه مشاهد الموت : الاحتضار ، والمرض الذى يفضى إلى الموت ، والجنازات ، وما يعقب الموت من حياة أخرى فيها الجنة وفيها النار . ونلاحظ أن انشغال الطفل بهذه الأمور جميعاً إنما هو انشغال بحواشى الموت وما يحيط به لا بجوهره ، وهو — فضلاً عن ذلك — انشغال يصرفه عن أمر آخر هو أن الموت ظاهرة بيولوجية عامة . لقد أصبح الموت ظاهرة إنسانية عامة ، ولكنه لا يصير ظاهرة موضوعية كونية إلا فيما بعد .

ذلك تساوق طريف بين تطور فكرة الله وتطور فكرة الموت . لقد تبين لنا أن الله فى بادئ الأمر « أب شخصى » للطفل ، ثم هو للناس جميعاً ، وأخيراً يكتشف الطفل صلته بالكون فى مجموعه . وذلك الاكتشاف رهن بنمو التفكير الموضوعى الذى يستند إلى العلّية العلمية . وكذلك الحال مع فكرة الموت : الموت فى بادئ تقبل الطفل له حادث شخصى اتفاق ، ثم هو ظاهرة إنسانية عامة ، وأخيراً يكتشف الطفل أنه ظاهرة بيولوجية عامة .

ويقرن الطفل منذ البدء فكرة الله بفكرة الموت . الموت فى مبدإ الامر حادث ينبو عن النظام الطبيعى ، هو من فعل الله . وذلك أن الطفل قبل أن يتقبل فكرة الله باعتبارها فكرة كائن كامل خيِّر ، ما كان ليتردد فى أن ينسب إليه ذلك الفعل الخارق البغيض . وذلك يؤكد لنا أن كلا من فكرتى الله والموت لا محل لها (فى بادئ الأمر) فى تصور الطفل للكون ، فكلاهما تنطوى على ما يناقض النظام الطبيعى . ولكن عند ما يجد الطفل لله مكاناً فى تصوره للكون ، يجد للموت مكاناً مماثلاً ، ويبقى الله مسئولاً عن ظاهرة الموت ؛ ولكن المسئولية هنا لم تعد مسئولية الساحر الذى يؤثر من بعيد دون مراعاة لقانون أو نظام (أى تأثيراً اتفاقياً طبقاً للعلّية الإحصائية) ، وإنما أضحت مسئولية العلة الفاعلية التى تؤثر طبقاً لنظام (أى طبقاً للعلّية العلمية) . وقد رأينا أن الطفل بعد أن يرى الله كائناً خيراً دون أن يكون قد ارتضى بعدُ فكرة الموت ، فهو يبرئ الله من فعل الموت .

ولكنه لا يلبث أن يسوى قلق الموت ويرتضى حقيقته رضوخاً لواقع الأمر ، وحينئذ لا يرى تناقضاً فى الجمع بين عدل الله ومسئوليته عن الموت ، فيعود إلى نسبة الموت إلى الله .

وخير مثال لذلك التداخل الديناميكى فى تطور فكرتى الموت والله والعلّية ، الطفل (رقم ١٤) ، فنراه فى سن العاشرة وقد تقبل حقيقة الله نهائياً كما ارتضى حقيقة الموت ، بل إنه وصل إلى حد أن يجد مبرراً لموت الناس جميعاً ، أى فكرة الجزاء . ومعنى ذلك أنه لم يعد يقنع بموقف الرضا الاستسلامى ، وإنما يبذل جهداً إيجابياً من عنده فى تبرير ضرورة الموت الأخلاقية . ولا يغيبنّ عن الأذهان أن ذلك حدَث عند ما أصبحت فكرة الله بدورها ضرورة أخلاقية . وفى هذه السن بالذات ، التى ينسج الطفل فيها عقائد الله والموت والجزاء والعالم الآخر إلخ . . . بعضها مع بعض لتصبح مركباً اعتقادياً واحداً يسند بعضه بعضاً ، يحق لنا أن نقول إن الطفل قد أصبح له « لاهوت دينى » . وأما قبل ذلك فالدين مجموعة من التصورات المتفرقة . وما أشبه ذلك التطور من التخييلات الانفعالية المتقلبة ، إلى التصورات العقلية الثابتة (أى العقائد) إلى تبلور هذه فى فكرة واحدة متكاملة منها جميعاً ، ما أشبه ذلك التطور بتطور أى مذهب فلسفى يبدأ مجموعة من التخيلات والظنون ، فتصبح هذه تصورات متشعبة لمختلف جوانب الكون ، فتأتلف مذهباً واحداً متكاملاً يكون بمثابة نظرة شاملة للكون فى مجموعه .

ونعود إلى تطور فكرة الموت فنقول : إن الطفل لا يدرك الموت باعتباره ظاهرة بيولوجية كونية تشمل الأحياء جميعاً قبل سن العاشرة . ويبقى بعد ذلك الطور الأخير من فكرة الموت ، أى اعتباره مصيراً حتمياً للذات أيضاً . لقد كان الطفل يخاف الموت لأنه يُبعد الأم أو الأب أو من يحب ، وعلى الرغم من خوفه هو من الموت فما كان بوسعه أن يتصور أن حياته هذه سوف تنتهى . وكما كان فى سن باكرة (برغم مشاهدته أناساً يموتون) يستبعد أن تموت أمه أو أن يموت أبوه ، فهو هنا أيضاً برغم يقينه أن الناس جميعاً مائتون يستبعد أن يكون مصيره إلى الموت ، ولا

يتقبل هذه الحقيقة أو يرتضيها إلا فى نهاية فترة الطفولة المتأخرة . ومن العسير جداً تحديد السن التى يتم فيها ذلك بالضبط ، فالفروق بين الأطفال فى هذا الشأن جد كبيرة . ولكن من المؤكد أن ذلك لا يحدث فجأة ، ففى أعماق النفس منذ سن باكرة حدس خفى بأن الموت مصير الذات ، وكأنما الطفل فى انشغاله بالموت كظاهرة خارجية يؤجل الخطر ، ويحاول إبعاده عن نفسه . وثم مشاهدة تؤيد ذلك :

يقرن كثير من الأطفال فكرة الموت بالشيخوخة ، ويفهمون أن الشيخوخة تنطوى على الموت فى حين أن الطفولة ضمان ضد الموت . سئل طفل فى سن الخامسة إن كان يخاف الله فأجاب : « أبداً ، هم لا يأخذون الصغار ، أنا لسه صغير . تعرف عندى كام ؟ عندى خمسة بس . » إن الطفل فى هذه السن يخاف الله لأنه يستطيع أن « يقتل » ، ولكنه يعلل النفس بأنه لا يزال طفلاً بعيداً عن الموت ، وعليه فليس ما يدعو إلى الخوف من الله . وسئل طفل آخر عن عمر زوج أمه وهو رجل مسن فأجاب : « فاضل له أربع سنين ، خمسة ، حاجة بسيطة ويموت . أبويا أكبر منه ، سنه خمسين سنة . » هذا الطفل يرى الشيخوخة قريبة من الموت ، حتى ليقيس العمر لا بعدد السنين التى عاشها الشيخ المسن ، بل بعدد السنين التى تبقت له من العمر .

وقد لمست من كثير من الأطفال تشبثاً بقصر الموت على الشيخوخة ، وتشبثاً أحياناً بأن الأم (أو الأب) لم تصر بعد عجوزاً ، حتى ليتبادر إلى الأذهان أن ذلك الاعتقاد يستند إلى حاجة شديدة للتأمين ضد الموت . إن ذلك الاعتقاد ضرب من التخييل الثابت الذى يحقق للطفل (أو لمن يحب) النجاة من الموت . هذا ونجد أطفالاً يتشبثون بطفولتهم ، ويضايقهم أو يخيفهم أن يتقدموا فى السن ، وما ذلك إلا لشعور خفى يساورهم ، هو الخوف من الشيخوخة أى من شبح الموت . وقد لمست ذلك على وجه الخصوص لدى الأطفال المشكلين ، إذ لا يزالون برغم عدوانهم أو نشاطهم الظاهر على تعلق طفلى بالوالدين ، وكأنهم يحتمون بطفولتهم من الانفصال (المرعب) عن الوالدين ، سواء بالاستقلال شأن الناضجين ،

أو بالموت شأن العجائز . وسوف نبين – عند الحديث عن الموت من الناحية اللاشعورية – أن الانفصال عن الحبيب قد يكون هو والموت شيئاً واحداً. والمهم أن آخر مراحل تقبل فكرة الموت ، هو الاعتقاد أنه مصير محتوم للذات كما هو مصير محتوم على الأحياء جميعاً . عند ما يصل الطفل إلى هذا الحد من التفكير، يكون قد تقبل حقيقة الموت بتمامها ، وأصبح بوسعه التكيف لها تكيفاً إيجابياً ، لا بالهرب أو الإنكار . وذلك أمر لا يتحقق للطفل قبل سن العاشرة .

الموت واللاشعور

عرضنا فى بحثنا السالف للموت كما يظهر فى تفكير الطفل الموجَّه، وهو عرض لا يكشف لنا غير الجانب الشعورى من فكرة الموت ، ولا يتجاوز الوصف الخارجى لها . وحيث إن الفكرة – كما أسلفنا – مركَّب نفسى معقد ، وأن المعنى ليس سوى « واجهة » عقلية تستر وراءها عمليات نفسية تَعقِد فى أعماق النفس روابط عدة بين فكرة الموت وبين عديد من أفكار الطفولة ، وجب علينا أن نكشف عن المضمون الكامن لفكرة الموت ، مهتدين فى ذلك بالبحوث التحليلية ، وعلى وجه الخصوص ببحث « سيلڤيا سيدنى » .

دلتنا الملاحظة على أن فكرة الموت من أكثر الأفكار تشبعاً بالانفعال ، ودلتنا فى نفس الوقت على أن الظروف النفسية التى اكتنفت دخول الفكرة إلى الذهن لا تكفى وحدها كى تفسر وجود هذه الشحنة الانفعالية الهائلة . وذلك ما دفعنى إلى أن أهتدى بسيكولوچيا الأعماق اللاشعورية فى هذا الشأن ، تلك التى تبين أن فكرة الموت تشحن بالانفعال نتيجة ارتباطها بأمرين : قلق الميلاد ، والدوافع العدوانية . وفيما يلى بيان ذلك بشىء من التفصيل.

الموت والميلاد :

تقترن فكرة الموت بخبرة الميلاد عن طريق معان ثلاثة (على وجه الخصوص) من معانى الموت، وهى : (ا) الافتراق ، (ب) النوم ، (ج) الذهاب إلى قبر (تابوت أو أرض أو ماء) .

الموت عند الطفل ارتحال ، لا ارتحاله هو بل ارتحال شخص آخر (الأم أو من يقوم مقامها) . وقد قال «فرويد» إنه يقر فى لاشعور كل منا أننا مخلدون، فنحن –لاشعورياً– لايسعنا أن نتصور أننا سنموت وإن تصورنا أن الناس جميعاً يموتون . ومن السهل أن نلمس ذلك بأنفسنا وبدون حاجة إلى تحليل نفسى عميق ، وبناء على ذلك كان الموت عند الطفل يعنى رحيل الأم أو الأب ، وكان بغضه له بوصفه خطراً يهدده بالحرمان منهما والوحدة دونهما . هذه الأنانية فى تصور الأطفال للموت تنم عنها أحاديثهم ، فقد سمعت طفلة تسأل أمها : « عند ما تموتين ، هل يضربنى الناس ؟ » ، وتسأل مرة أخرى : « عند من أعيش عند ما تموتين ؟ » . ولا نعدم كذلك الأمثلة على عدم اكتراث الطفل ببقاء الوالدين لشخصيهما . مثال ذلك أن الطفل (رقم ٥) الذى تحبه جدته وتعيش على مقربة منه، هددته أمه ذات مرة عند ما ضاقت به ذرعاً «أسكت وإلا مت وتركتك» ، فرد على الفور « إن ذلك لا يهمنى لأن جدتى هنا سوف تطعمنى » . ونفيد من ذلك عبرة تربوية ، هى أنه على قدر اطمئنان الطفل إلى أفراد بيئته ، وعلى قدر نجاحه فى تكوين علاقات مودة مع أناس غير والديه ، يقل قلقه إزاء الموت .

ومن أهم مثيرات قلق الموت عند الطفل خوفه من أن ينام وحيداً ، الأمر الذى يسبب اقترانات فى «تخييلات» الطفل على النحو التالى : اقتران الموت بالنوم الانفرادى ، ومن ثمة نجد الأطفال إذ يذهبون إلى الفراش ، يلحون على الأم أن تبقى إلى جوارهم ، ويغمرونها فى هذه اللحظة بالذات بسيل من الأسئلة كى يحتفظون بها إلى جوارهم أطول وقت ممكن ، وبتعبير آخر ، كى يؤخرون لحظة

الفراق (أو الموت). وهذا يفسر لنا ورود رغبة الزواج فى «تخييلات» الطفل فى هذه السن الباكرة مقترنة بالخوف من الوحدة والرغبة فى النوم دائماً إلى جوار الأم. وكثيراً ما يرد ضمن تخييلات الطفل الرغبة فى أن يرافق الأم فى قبرها، ويصاحب ذلك زوال الخوف من الموت لأنه لم يعد سبباً للفراق . يقول طفل [١] فى سن الخامسة « لنمت يا أماه كى نذهب سوياً إلى الجنة » ، ويقول آخر فى سن الثامنة تقريباً ، « لا أريد أن أنام وحدى عند ما أموت ، لو قدر لى أن أنام مع أمى —فذلك غير مسموح به الآن، ولكن ربما سمح به عند ما أموت — لسرنى كثيراً أن أموت ، وربما كنت قبل أن أولد أنام معها ... » [٢] . ويقول كاتب أمريكى فى بحث حديث له :

« . . . كنت وأنا طفل صغير أخاف الموت أشد الخوف منذ سمعت عنه . وكنت أتمنى أن أكون استثناء للقاعدة العامة بل إنى لم آلف فكرة الحياة الأخرى . ولكن عند ما رأيت أمى ساجية فى القبر ، لم أعد أشعر بأدنى خوف من الموت . لم أعد أبالى أرقدتُ هنالك إلى جوارها أم لم أرقد ، ومنذ ذلك الحين لم يعاودنى أدنى خوف من الموت . وأذكر أننى لاحظت حينذاك أن القبر لم يكن من العمق كما كنت أظن . . . بيد أننى عند ما رأيت الجثة تهبط إلى القبر أردت أن أصيح "قف" » [٣] .

وتحلل سيلفيا هذه المذكرة قائلة إنها تكشف بوضوح عن اقتران اشتهاء المحارم (incest-wish) بتخييل « القبر — الرحم ونومة القبر »، الأمر الذى جعل الكاتب يرتضى الموت ويرى أن من الجائز — قياساً على ذلك — أن نتصور أن الخوف الشعورى من الموت الذى يبدأ منذ الطفولة الباكرة إنما هو خوف من رغبة مكبوتة فى الاتصال بالمحارم ، أو فى العودة إلى « حياة الرحم » . وآية ذلك أنه

(١) الطفل (رقم ٥) .

(٢) سيلفيا ، ص ١٤٢ .

(٣) نقلته سيلفيا فى ص ١٤٤ من كتابها عن كتاب "Becher, H., The Sorrow of Bereavement"

بمجرد أن أصبحت رغبة الكاتب السالف الذكر شعورية على أثر مشاهدته الأم مسجاة فى قبرها ، حتى زايله الخوف تماماً من الموت .

ونحن وإن كنا نتحرز من الانسياق مع تيار التحليل النفسى فى هذا الشأن، نظراً لأن المواد التى استندنا إليها فى بحثنا لا تخول لنا أن نحملها أكثر مما تحتمل، فإن لدينا من الشواهد ما يدل على أن الطفل لا يقتصر على ربط الموت بالقبر ، بل ترد فى تخييلاته الحفر، والأماكن المظلمة المغلقة ، والمياه ، والصناديق ، كبدائل من القبر . الطفل شريف (رقم ٥) فى الخامسة من عمره يشير فى حديثه إلى ذهاب الشخص عقب موته إلى « الخزانة » ، ويشير إلى أنه « يؤكل كما يؤكل الخروف » ، وإلى « الإلقاء فى الماء » . فى حديث واحد يسفر قلق الموت عن نفسه فى «تخييلات» عدة هى ما يراها التحليل النفسى صوراً رمزية للرحم. ولدينا كذلك شواهد تثبت أن الطفل قد يتصور « ابتلاعاً » أية عودة إلى باطن جسم ما ، وذلك يقترن بتخييل هو تعبير عن الأمل فى العودة إلى الحياة من جديد، أى أن يولد ثانية . ولعل ذلك يفسر لنا بعض عقائد الشعوب البدائية ، مثل عقيدة الميلاد من جديد . وثم مبرر لتلك العقيدة ، فضلاً عن المبرر الانفعالى (أعنى العودة إلى الاتحاد بالأم) ، هو توفر أوجه الشبه بين الحياة قبل الميلاد والحياة بعد الموت. فنحن نبدأ وننتهى فى اللاشيئية والغموض والشتات — نبدأ ولا حول لنا ، وننتهى ولا حول لنا . فحياتنا القصيرة يحدها النوم فى البدء والمنتهى ، يأتى التفكير السحرى فيجعل الشيئين المتشابهين متماثلين ، ويحيل المتماثلين شيئاً واحداً . يتم ذلك على النحو التالى :

« تحدث الأشياء على نحو تفكيرنا (رغبتنا) ، الأشياء التى تحدث تشبه تلك التى نفكر فيها أو نتمناها ، الشىء الذى يحدث هو ما تمنيناه ، الميلاد والموت شىء واحد . » فالموت والحياة قبل الميلاد شىء واحد فى تفكير الطفل التخييلى (المحكوم بالقوى اللاشعورية) ، أعنى أن ذلك ليس اعتقاداً وصل إليه بالتفكير الموجه ، إنما هو مجرد رغبات تتحقق فى مستوى تخييلى .

على أن "التوحيد" بين الموت والميلاد ليس اعتقاداً خاصاً بالموت بقدر ما هو اعتقاد خاص بنهاية الحياة فحسب . والأطفال يعتقدون أن الحياة إذ تنتهى بالموت تعود فتبدأ من جديد بالإسعاف أو بالعلاج أو فى الجنة أو النار (والاعتقاد فى هذه الحالات صريح واضح) ؛ أو بالميلاد (والاعتقاد فى هذه الحالة ضمنى لاشعورى) . ويتولد عن "التوحيد" بين فكرتى الموت والميلاد اعتقاد آخر هو التناسخ (re-incarnation) . وقد عرض لذلك « إرنست چونز » فهو يقول :

« لدى كثير من الأطفال رغبة قوية فى أن يصيروا آباء لآبائهم ، بل إنهم قد يعتنقون اعتقاداً خرافياً ، هو أنهم بقدر ما يكبرون يصغر آباؤهم حتى تنقلب الآية مع الزمن ويأخذ كل مركز الآخر . وواضح أن هذا البناء الخيالى العجيب الذى يحتمل أن يكون أحد مصادر عقيدة التناسخ ، متصل أوثق اتصال بالاشتهاء الجنسى للمحارم ، حيث هو صورة مغالية لرغبة أعم هى أن يكون الطفل أباً لنفسه . وهو يستند أيضاً إلى شعور الطفل العدائى نحو والديه ، ويحقق رغبته فى تعديل الوضع الحالى ، حتى يتسنى له أن يحتل مركز السيطرة على أولئك الذين يسيطرون عليه حالياً .

ويتكون هذا التخييل من عدة عناصر – التبادل التدريجى فى الحجم ، توسع الاعتقاد الخيالى بأن الطفل هو الأب الفعلى لأبيه ، أى بأنه يضارع جده . . . يخيل لأطفالنا – شأن البدائيين الراشدين – أنه عند ما يموت شخص عجوز ، لا يلبث أن يعاود الظهور طفلاً وليداً . » [١]

يرى « إرنست چونز » إذن أن تناوب الأدوار بين الجيلين (الأب والطفل) يتصل اتصالاً وثيقاً بعقيدة التناسخ ، وأن كليهما نابع عن فهم الموت على أنه نهاية حياة تعقبها حياة جديدة . ويؤيد ذلك الرأى ملاحظات « هوكارت » لعادات الموت عند بعض الشعوب البدائية ، إذ هى عبارة عن قلب عادات الحياة :

---

(1) E. Jones, Papers on Psycho-Analysis, 1938, The article on ; "The Phantasy of The Reversal of Generations", p. 520.

أتالا فى القبر — للرسام تريوسون

إن لتخييل الاتحاد بالحبيب فى القبر فتنة عميقة . . سوف تستهوى الإنسان دائماً . . وليس الاتحاد فى القبر رغبة تداعب أفئدة الراشدين فحسب ، فالأطفال بدورهم تكمن فى نفوسهم الرغبة عينها .

« الرجوع من المدفن على نحو مقلوب ... الحديث المعكوس ، قلب الأسلحة ، وهكذا . . . إن الحى بذلك القلب إنما يقلد الأموات حيث أن جميع الأشياء لديهم مقلوبة : فنهارنا ليلهم ... ويبدو أن كل شىء تحت الأرض مقلوب إلى أسفل. »

وتعلق « سيلڤيا » على ذلك بقولها :

« أو ليس الطفل فى الرحم مقلوباً أيضاً ؟ » فهى تبغى أن تعقد الصلة بين هذا التقليد البدائى ، وبين الاعتقاد فى أن الموت عودة إلى الرحم ثم ميلاد من جديد.

وإنا من ناحيتنا ، قد وجدنا لدى عدد غير قليل من الأطفال «تخييل» مصاحبة الأم إلى القبر . ولست أبغى أن أقفز وأستدل من ذلك على الاشتهاء الجنسى للأم ، ولكن مشاهداتنا تخول لنا أن تقرر أن قلق الموت يتلاشى وتحل محله رغبة الموت إن كان يؤدى إلى انفراد الطفل بالأم ، ويضمن له الاستمتاع الدائم بها . وعلى العكس من ذلك ، يعرب الطفل عن زهد تام فى الجنة — على الرغم مما تحوى من ملذات طفلية — إن علم أنه سيذهب إليها وحده[1] . وإن من الأطفال من لا يعتبر الجنة مكان الاستمتاع بالملذات الجسمية بقدر ما يعتبرها المكان الذى لا ينفد منه العطف ، ولا يحوم فيه شبح الافتراق .

ذلك التعبير الساذج عن الدوافع الطفلية يلقى ضوءاً ساطعاً على ظاهرة ترددت فى مختلف الآداب العالمية على ما بينها من آماد وأبعاد ، تلك هى ظاهرة جنون « الرغبة فى توسد الثرى إلى جوار الحبيب folie à deux » . فقد التقى روميو وجولييت فى القبر ، وقفز هاملت إلى قبر أوفيليا حيث تبارز مع أخيها من أجلها ؛ ودفن قيس إلى جوار ليلى بعد أن تغنى فى شعره بشوقه إلى تلك النهاية ؛ وعندما حكم فرعون على راداميس أن يموت فى قبره حيا ، أبت حبيبته عايدة إلا أن تشاركه هذا المصير ؛ وتحكى مختلف أغانى الشعوب والقصص الخرافية مآسى العشق التى تنتهى عادة باجتماع الأحبة فى القبور ، ويتواتر حديث العشب الذى ينمو أزواجاً متعانقة

(١) راجع حديث الطفل (رقم ٧)

فوق القبر ؛ ويردد الشعراء الرومانسيون من « پو » إلى « كيتس » نفس الأمور .

وليس من شك بعد ذلك أن لتخييل الاتحاد فى الموت فتنة عميقة ، سوف تستهوى الإنسان دائماً . وليس الاتحاد فى الموت رغبة تداعب أفئدة الراشدين الناضجين من الناس فحسب ، فقد رأينا أن الأطفال بدورهم تكمن فى أعماق نفوسهم الرغبة عينها .

وفى الصفحة التالية رسم تخطيطى يوجز على نحو مبسَّط مختلف الاقترانات التى تنعقد فى نفس الطفل بين فكرتى الموت والميلاد[١] .

الموت والعدوان :

أوضحنا كيف تعقد فكرة الموت صلات عميقة معقدة بالدوافع المتعلقة بفكرة الميلاد ، وكيف تتشبع الفكرة من ثمة بالطاقة الانفعالية ، وبقى علينا أن نبين كيف تتشبع بها أيضاً نتيجة ارتباطها بمختلف الدوافع العدوانية . يبين التحليل النفسى أن فكرة الموت تدخل ضمن مركَّب الدوافع العدوانية نتيجة اعتبار الطفل الموتَ العاقبة القصوى للعدوان (حيث أن الموت هو الأمر الذى يحيق بالأشياء التى ينصب عليها البغض) . وقد رأينا أن كثيراً من الأطفال يعرِّفون الموت بأنه القتل ، والميتَ بأنه المقتول . وذلك دليل على أنهم يفهمون الموت على أنه نتيجة عدوان . ولا يختلف هؤلاء الأطفال فى هذا الشأن عن كثير من الشعوب البدائية ، إذ الموت لديها حادث غير طبيعى ، مردّه إلى إرادة إنسانية شريرة . وبناء على اقتران الموت بالدوافع العدوانية يكون أصله البغض الإنسانى ، فى الموت خروج على قانون الطبيعة ، وخضوع لقانون الثأر « lex talionis » ، وكل من القانونين يناقض الآخر .

ومن أهم العناصر المقومة لمركَّب " الموت والعدوان " الحيوانات ، وقد بين «فرويد» ما لها من دلالة خاصة فى «تخييلات» الطفل ، فبوسع الطفل — دون مانع

(١) منقولة عن سيلفيا سيدنى .

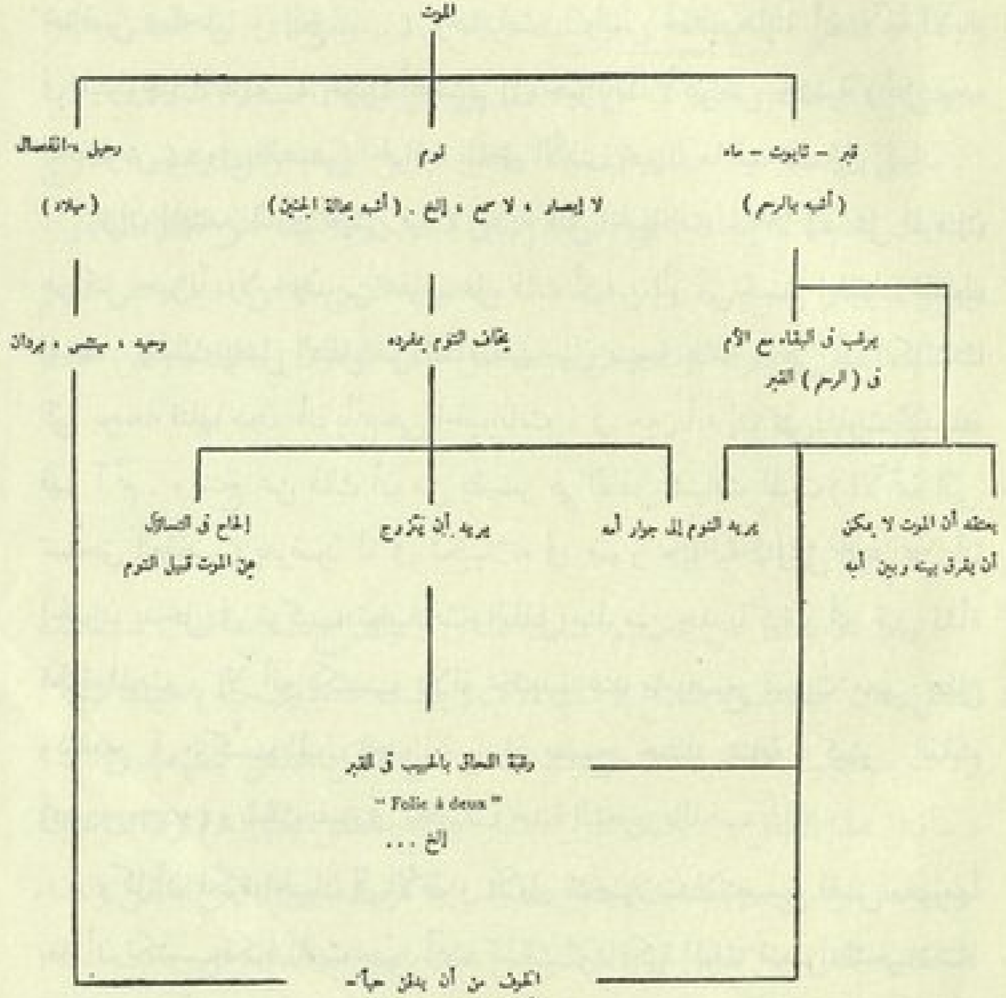

رسم تخطيطي يوجز اقترانات فكرتي الموت والميلاد

أو حرج ــ أن يشاهد أعضاء الحيوانات التناسلية ، فى حين تقوم العقبات دون مشاهدته نفس الأعضاء عند أفراد الإنسان . وفضلاً عن ذلك يتراءى له والداه فى أحلامه حيوانات كبيرة ، وأشقاؤه هواماً صغيرة (صراصير ، ديدان ، خنافس ، نحل ، إلخ . . .) وحشرات . وليس بخاف علينا أن الآلهة الآباء فى الميثولوجيا القديمة ، يحولون أنفسهم إلى حيوانات لأغراض جنسية (على وجه الخصوص) ، وفى القصص الخرافية يلحق الأذى بحيوان ما فيتحول إلى إنسان .

وإن المجتمع الذى نعيش فيه لا يحرم قتل الحيوانات ، فلا إثم على المرء إن هو قتل حيواناً ، ولا خوف من عقاب على ذلك أو من ثأر من قِبَل الحيوان المقتول نفسه . ولذلك يصل الطفل من تلقاء نفسه إلى نتيجة هامة ، هى أن الكائنات التى بوسعه قتلها دون أن يأثم هى الحيوانات ، فى حين أنه إن تمنى الموت لإنسان فهو آثم . وينتج عن ذلك أن من يضمر لهم الطفل تمنيات الموت (الآثمة التى تستحق العقاب) يعرضون له فى تخيلاته فى صور حيوانية . وعلى الرغم من أن الحيوان يدخل فى تركيب «تخيلات» الطفل منذ سن جد باكرة ، أى قبل نشأة فكرة الموت ، إلا أنه يكتسب دلالة جديدة عند ما يصبح للموت معنى عقلى ويندمج فى مركَّب الميول العدوانية ، إذ يصبح حينئذ بمثابة كبش الفداء (scape-goat) وبذلك يفيد فى تخفيف حدة الشعور بالذنب .

وكما أن فكرة الحيوان فى الأطوار الأولى للتخيلات لا تتضمن نفس مفهومها بعد أن تكتسب فكرة الموت معنى آثم ، كذلك ترِد فكرة الموت ضمن «التخيلات» الباكرة دون أن تتضمن المعنى الذى يكون لها فيما بعد (المعنى الحقيق) . ذلك أن الميول العدوانية تشحن فكرة الموت بانفعال أعمق ينساب فيها من حيث هى فكرة ، أى من حيث هى مجال اكتُشِف اكتشافاً عقلياً . والتخيلات العدوانية فى الطور الباكر من النمو النفسى قد تشتمل على فكرة القتل دون الموت .

والعدوان الذى يقرنه الطفل فى هذا الطور بفكرة الموت المبدئية هو عادة عدوان فمى (ذئب يبتلع شخصاً ، ساحرة تدبر أكل شخص ، إلخ ...) قد يتخيله الطفل

دون أن تلزم عنه فكرة الموت . ونحن نعلم أن الآباء يعبرون عن حبهم لأطفالهم الذين هم فى ذلك الطور بأن يقلد الواحد منهم حيواناً ما ، فيحبو على أربع ويتظاهر بأنه سيأكل الطفل ، أو يدع الطفل يقوم بنفس الدور ويهجم عليه زاحفاً أو فاغراً فاه صائحاً « أنا ذئب » إلخ . . . وتتردد فى لغة العشق عبارة « بودى أن آكلك » تعبيراً لا عن العداء ، بل عن شدة الحب والاشتهاء .

وعلى الجملة فالأحوال النفسية الطفلية ، من التهام وقتل ومحبة ، تمتزج وتتشابك تشابكاً لا ينفك . فى المرحلة الأولى إذن يكون الموت هو العدوان بالفم ، والعدوان بالفم إما حب وإما انتقام ، والعدوان الفمى (من حيث هو متمم للاشتهاء الفمى) يقرن الموت (من حيث هو عاقبة العدوان) بالميلاد (من حيث هو عكس الموت) .

رغبات الموت ومخاوف الموت :

يعبر الأطفال عن غضبهم بسلوك عدائى . والصراخ سلاح فعال يستخدمه الطفل حالَ الغضب ، سلاح لا يملك الأب (بوصفه عدواً وضحية) حياله شيئاً . والأب يستجيب عادة لذلك السلوك العدائى من قِبَل الطفل بالتهديد قائلاً : « سأقتل هذا الطفل » ، وذلك يبرر اعتبار صراخ الطفل تعبيراً عن رغبات موت أولية ضد الوالدين. ويكتشف الطفل منذ سن باكرة أن تعبيراته عن البغض والعداء لا تجديه نفعاً ، بل تقابل على العكس من ذلك بتعبيرات العداء من جانب البيئة. وعليه فإن مخاوفه لا ترجع فحسب إلى ما يضمره من تمنيات موت ، بل قد تستمد مباشرة من إحساسه بعداء غيره ونقدهم له ، ذلك العداء الذى يراه فى غيره من خلال مرآة دوافعه الفجة .

والأمثلة كثيرة على وضوح تمنيات الموت فى أقوال الأطفال ، كما أن الخوف من الثأر الذى تولده تلك التمنيات يظهر سافراً من وقت إلى آخر .

ذلك أن الأطفال لا يستطيعون أن يكبتوا فى بادىء الأمر مشاعرهم المزدوجة

المتناقضة نحو والديهم كبتاً تاماً . فالخوف المتصل من الموت عند الطفل قد يكون رد فعل لإلحاح الشعور بالذنب المتولد عما يضمره من رغبات عدوانية (تمنيات موت) استثيرت أول ما استثيرت رد فعل للخذلان الموضوعى « objective frustration » : عند ما يحال بين الطفل وبين إشباع حاجة من حاجاته ، أو إجابة رغبة من رغباته ، يضايقه ذلك أشد الضيق ، فيستفز فيه ميلاً عدوانية ضد المتسبب. ولكن قد يزول سبب المضايقة، ويبقى الضيق مع ذلك فى نفس الطفل نتيجة إلحاح الشعور بالذنب الناجم عن الرغبة العدوانية .

ويحسن بعد الشرح السالف أن نوجز الاقترانات التى يشتمل عليها مركّب الموت والدوافع العدوانية فى رسم تخطيطى كرسم اقترانات الموت والميلاد، وينبغى ألا يغيب عن البال هنا أيضاً ، أن ذلك الرسم التخطيطى يبسّط تبسيطاً زائداً مركباً ديناميكياً هو غاية فى التعقيد[1] .

---

(١) الرسم التخطيطى مأخوذ عن كتاب « اكتشاف الطفل للموت » تأليف سيلفيا سيدنى .

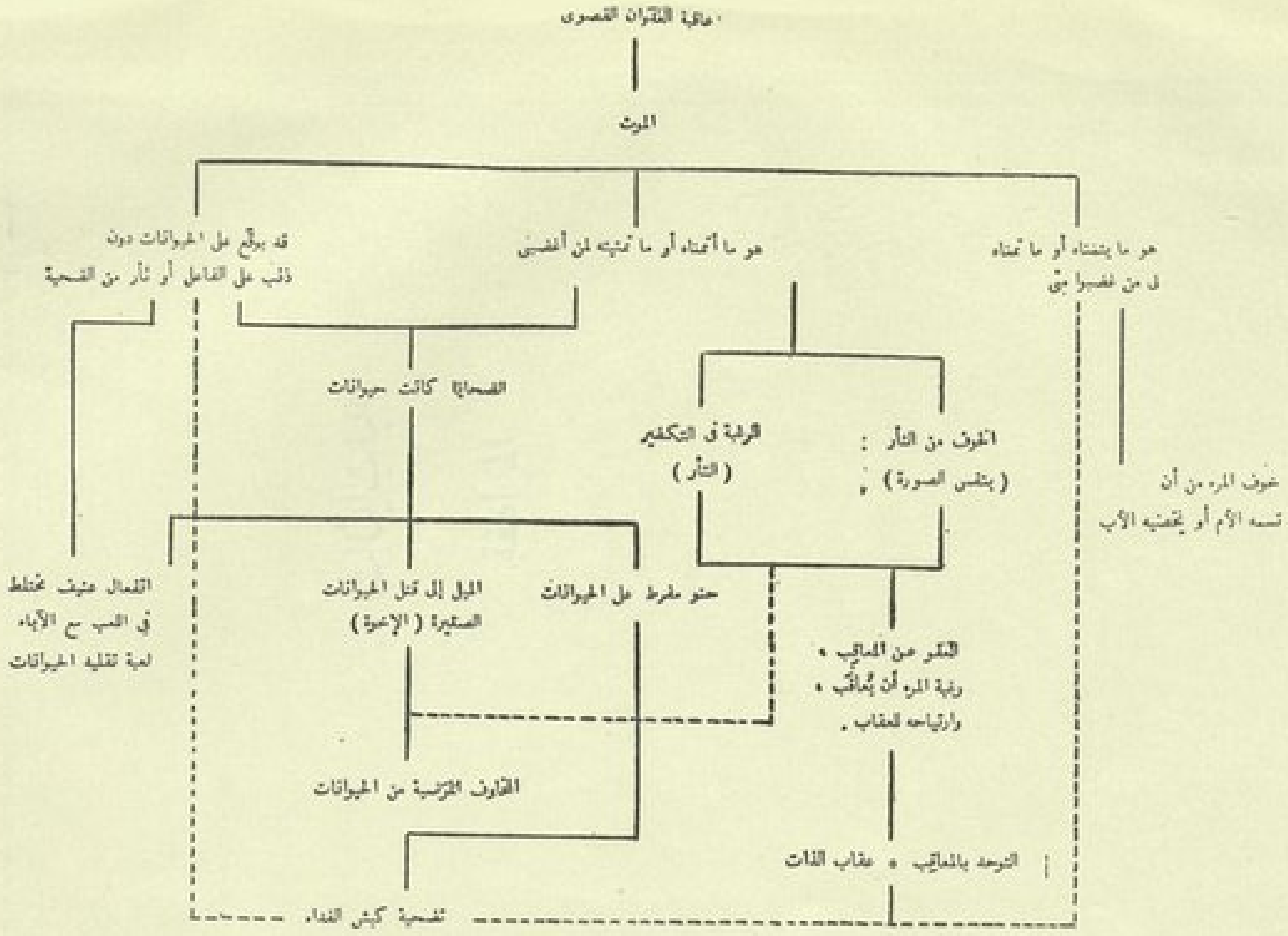

رسم تخطيطى يوجز اقترانات فكرتى الموت بمشاعر العدوان

الباب الثالث

المراهقة

تمهيد

ابتدأ بحثى للدين عند المراهقين نتيجة اتصالى الشخصى بعدد كبير منهم أيام كنت أقوم بتدريس الفلسفة بالمدارس الثانوية، وكانت موضوعات الفلسفة مثاراً لمجادلات الطلبة فيما بينهم، ومناقشاتهم لى. وكثيراً ما تقدموا لى بمشاكل دينية حيرتهم وأثارت قلقهم. وكانت ثمة فرصة ملائمة للاطلاع على ما يقوم به البعض — فضلاً عن الاهتمام العقلى — من نشاط دينى عملى. وقد لفت نظرى أن تلك الاهتمامات الدينية على اختلاف أشكالها تنطوى على حمية انفعالية فائقة، سواء أكانت اهتمامات فى جانب الدين أو مضادة له، مما جعلنى أعتقد أن الدين فى فترة المراهقة ذو أهمية حيوية خاصة. وعلى أساس ما تجمع فى ذهنى من أمور متعددة متفرقة، وضعت استفتاء مستهدفاً الوصول إلى فهم منظم للظواهر الدينية فى المراهقة. وقد قمت بتوزيع ذلك الاستفتاء على مراهقين معظمهم من الطلبة فى المدارس الثانوية، وأقلهم فى الابتدائية وكليات الجامعة. وراعيت أن تكون المدارس من بيئات وأنواع مختلفة: فمنها المدارس الحكومية، ومنها المدارس الحرة، ومنها مدارس مدنية، ومنها مدارس هيئات دينية، ومنها مدارس تسير على النظام الحكومى المصرى، وأخرى تسير على نظام أوروبى أو أمريكى. وجميع المراهقين مصريون.

وقد كان عسيراً علىّ أن أقوم بتوزيع الاستفتاء على مختلف طلبة هذه المدارس وطالباتها. فالموضوع شائك والناس يرتابون فى بحث من هذا النوع، ولولا صِلاتى الشخصية بأناس يؤمنون بقيمة عملى لما تيسر لى أن أوزع العدد الذى وزعته من الاستفتاء. ومن أمثلة العقبات التى صادفتها أن إحدى ناظرات المدارس نُمِى إلى علمها أن استفتاءً ما وزعته إحدى المدرسات فسارعت إلى جمعه من الطالبات وصادرته ولم يفتها بطبيعة الحال أن توجه اللوم للمدرِّسة. وكان علىّ أن

أنتظر أكثر من عام ليتجمع لدى مائة وعشرون إجابة من المئات التى قمت بتوزيعها : ستون من البنين ، ومثلها من البنات . وقد قنعت بذلك العدد فى بادىء الأمر واستخلصت منها مادة تحليلية لا بأس بها . بيد أن النتائج التى وصلت إليها بدت لى غير كافية من الوجهة الإحصائية ، فقمت بعملية توزيع جديدة استغرقت أكثر من عام آخر . وبذلك بلغ عدد الأجوبة الصالحة فى النهاية مائة من البنين وسبعين من البنات. وأصبح ممكناً بعد هذه الزيادة أن أصل إلى نتائج إحصائية يمكن الاعتماد عليها ، وأن أقدم تصنيفاً للاتجاهات الدينية ما كان ليتيسر لى بالعدد الأول .

وقد جعلنا أسئلة الاستفتاء فى مجموعات ست : الأولى عن تصور المراهق لله وموقفه الوجدانى منه ، والثانية عن الملائكة والشياطين وتصوره لهما إن كان لا يزال يؤمن بهما ، والثالثة عن الموت والحياة الأخرى بما تتضمنه من فكرة الخلود وفكرتى الثواب والعقاب ، والرابعة عن النشاط الدينى ، والخامسة عن تربيته الدينية ، والسادسة عن التحول الدينى الذى قد يطرأ على الشعور الدينى إبان المراهقة . وقد قصدنا وضع هذه المجموعة الأخيرة فى نهاية الاستفتاء حتى لا نصدم شعور المتدينين من المراهقين ، ونتفادى إثارة قلقهم وما قد يجره ذلك من استخفاء وتذرع بالمقاومة . وراعينا أن يكون الاستفتاء من الشمول بحيث يكشف لنا فضلاً عن التصورات والاعتقادات النظرية اتجاهات المراهق الوجدانية قِبَل مختلف موضوعات الدين ، وبحيث يوقفنا على اتجاهاته الانفعالية العامة ، وموقفه من الحياة بالإجمال ومن الناس عموماً ، حتى يتاح لنا أن نفهم الشعور الدينى فى السياق العام للواقع النفسى الشامل .

ولما كنا نعلم أن من الصعب على أى فرد — وخصوصاً فى مرحلة المراهقة الانتقالية — أن يحدد اتجاهه الدينى تحديداً مضبوطاً ، لم نعمد إلى سؤاله على نحو مباشر إن كان مؤمناً أو ملحداً أو شاكاً بين ذلك ، ولكنا جعلنا الأسئلة من التعدد بحيث تتيسر لنا معلومات تكفى لاستخلاص اتجاهه الدينى . بل قد

طلبنا من المراهق أن يفيض فى الإجابة إن أراد، وألا يقف عند منطوق السؤال ، ولا عليه إن هو مضى فى سرد تأملاته أو ذكرياته . واستطعنا بفضل ذلك أن نصل إلى تصنيف مقبول لمختلف الاتجاهات الدينية الغالبة ، وأن نكشف أى تخبط أو تناقض يقع فيه المراهق دون وعى منه ، وأن نفيد من ذلك فى الوقوف على ما يبذله من جهد لإخفاء حقيقة شعوره الدينى — لا عن الناس فحسب بل عن نفسه كذلك — وفى تمييز ما يؤمن به حقيقة مما يردده مجاراة للتقاليد .

ولم يغب عن بالنا أن أية ظاهرة من ظواهر المراهقة لا يمكن أن نجد التفسير الكافى لها فى خبرات تلك الفترة، وإنما يلتمس مثل ذلك التفسير فى ماضى الفرد. ولذلك أفردنا مجموعة بأكملها من الاستفتاء للتربية الدينية ، أسلوب البيئة فى تعليم الفرد الدين وفى تربيته بوجه عام . وكنا نتصل اتصالاً شخصياً — كلما تيسر لنا ذلك — بمن نجد فى إجابته ما يحتاج إلى استيضاح أو استيفاء . بل قد حصلنا من بعض المراهقين على مذكراتهم أو تأملاتهم ، وبفضل هذه أتيح لنا أن نجمع إلى النظرة الوصفية الراهنة التى يزودنا بها الاستفتاء نظرة تكوينية تاريخية ، وأتيح لنا فضلاً عن ذلك أن ندرك الصلات العميقة المعقدة التى تربط الشعور الدينى بالحياة النفسية عموماً . ومن ذلك يتبين لنا أن الاستفتاء كان نقطة ارتكاز فحسب ، وكان القصد منه استفزاز المراهقين إلى الاسترسال — على نحو مرتب — فى التعبير عن مشاعرهم وأفكارهم بصدد حياتهم الدينية . وفيما يلى نص الاستفتاء :

استفتاء لدراسة الشعور الدينى عند المراهقين والبالغين

المجموعة الأولى

١ — (ا) ما هى أهم صفات الله فى نظرك ؟
(ب) اذكر هذه الصفات بالترتيب حسب أهميتها .
(ج) بين السبب .
٢ — ما شعورك نحو الله ؟ (خوف . . حب . . رهبة . . . إلخ .) .
٣ — بين سبب شعورك إن أمكن .
٤ — هل إيمانك بالله يكون بقوة واحدة فى جميع الظروف والأوقات ؟
٥ — هل تؤمن أن الله خلق الخير والشر ، أم الخير فقط ؟
٦ — هل إيمانك بالله يحفزك إلى فعل الخير وينهاك عن الشر ؟
٧ — هل تعتقد أن الله عادل ؟

المجموعة الثانية

١ — هل تؤمن بالملائكة ؟ كيف تتخيلها ؟
٢ — هل تؤمن بالشياطين؟ كيف تتخيلها ؟
٣ — هل تصدق بالعفاريت أو الجن ؟ وهل وقعت لك حوادث تؤيد وجودها ؟
٤ — هل تعتقد فى الحسد ؟
٥ — هل تزور أضرحة الأولياء أو القديسين ؟ ولماذا ؟
٦ — هل تحمل أحجبة أحياناً ؟
٧ — هل رأيت نبياً أو ولياً فى أحلامك ؟ اذكر هذه الأحلام ؟

المجموعة الثالثة

١ – هل تكثر من التفكير فى الموت ؟
٢ – متى بدأت تفكر فى الموت ؟ وما هى الحادثة التى جعلتك تفكر فيه ؟
٣ – هل تؤمن بالجنة والنار ؟
٤ – إوصف الجنة والنار كما تتخيلهما ؟
٥ – هل إيمانك بالجنة يحفزك إلى فعل الخير ؟
٦ – هل إيمانك بالنار ينهاك عن فعل الشر ؟
٧ – ما رأيك فى الموت – أهو خير أم شر ؟

المجموعة الرابعة

١ – هل تواظب على تأدية الشعائر الدينية ؟ (صلاة .. صوم .. حج .. إلخ .)
٢ – هل تندم عند ما تهملها ؟
٣ – ما الذى يدفعك إلى تأدية الفرض؟ (الطمع فى الجنة .. الخوف من العذاب .. مجاراة البيئة .. أم طمعاً فى أن تتحقق آمالك) .
٤ – هل تنتسب إلى جمعية دينية ؟
٥ – هل كنت متديناً قبل انتسابك إلى هذه الجمعية ؟
٦ – هل تواظب على تلاوة الكتب المقدسة (قرآن .. إنجيل .. توراة ..) أم تلجأ إلى ذلك فى ظروف معينة ؟

المجموعة الخامسة

١ – هل لك أصدقاء من غير دينك ؟
٢ – هل أفراد أسرتك متدينون ؟ (الأب .. الأم .. الإخوة .. إلخ .)

٣ ــ هل اهتم أهلك بتربيتك تربية دينية ؟

٤ ــ هل كان أسلوبهم فى تربيتك متسامحاً أم متعسفاً ؟

٥ ــ اذكر شعورك نحو أفراد أسرتك ؟

٦ ــ هل وقعتَ فى منازعات مع أهلك .. أو مدرسيك .. أو زملائك بسبب آرائك الدينية ؟ حدثنا عن ذكرياتك بشأنها .

٧ ــ ما شعورك نحو رجال الدين أو المتدينين بوجه عام (حب .. تقدير .. احترام .. إلخ . . .)

٨ ــ هل طرأ على شعورك نحوهم أى تغيير ؟

٩ ــ هل قرأت كتباً عن موضوعات دينية ؟

١٠ ــ ما رأيك فى دروس الدين فى المدارس ؟

(المجموعة السادسة)

١ ــ هل طرأ على أخلاقك أى تغيير ؟ فى أى سن حدث ذلك التغيير وما أسبابه؟

٢ ــ هل طرأ على عقيدتك الدينية أى تحول من الإيمان إلى الإلحاد ؟ فى أى سن حدث وما أسبابه ؟

٣ ــ هل اعترتك أزمة نفسية بسبب التفكير فى الموضوعات الدينية ومتى كان ذلك؟

٤ ــ هل مرت بك أزمة نفسية كان للدين الفضل فى القضاء عليها ؟

٥ ــ هل تم الانقلاب الدينى فى حياتك فجأة أم بالتدريج ؟

ملحوظة ــ اكتب البيانات الآتية :ــ

١ ــ السن . ٢ ــ الديانة . ٣ ــ الوظيفة أو السنة الدراسية . ٤ ــ الاسم والعنوان (إن أردت) .

وفيما يلى عرض لنتائج تحليل المادة التى تجمعت من الأجوبة على أسئلة الاستفتاء، ومن المذكرات ، والتأملات الخاصة. وسوف ابدأ بتصور المراهقين لله واتجاهاتهم الانفعالية نحو ذاته، ثم أنتقل إلى تصورهم للملائكة والشياطين، مبيناً صلة ذلك التصور بنموهم الأخلاقى والعقلى ، ثم إلى الموت والخلود ، وأختتم بحث المراهقة بعرض هذه العناصر جميعاً عرضاً ديناميكياً ممتزجاً فى ظاهرة اليقظة الدينية (التى تعرض للأفراد فى فترة المراهقة) مع عرض تصنيف لاتجاهات الدينية .

وأحب أن أنبه إلى حقيقة هامة — هى أن المراهقة باعتبارها مرحلة انتقال فى النمو النفسى لا يمكن أن نحدها بحدود زمانية قاطعة . وإذا كان الأمر كذلك فى النمو النفسى عامة، فهو على نحو أوضح فى النمو الدينى . إن كثيراً من التقلبات النفسية التى تطرأ فى فترة المراهقة يُسوَّى قبل سن العشرين أو الواحدة والعشرين . ولكن التقلبات الدينية قد لا تسوى قبل ذلك، وقد يبقى الشخص معرضاً لها حتى سن متأخرة من حياته . وهذا ما جعلنا لا نقتصر فى دراسة الشعور الدينى عند المراهق على الفترة المحدودة التى اصطلح جمهور الكتاب على تسميتها بالمراهقة، ولم يكن مناص من أن نمضى إلى ما بعد هذه الفترة — وإلا كان الاستقصاء مبتوراً .

وعليه كان الحد الأقصى للسن التى ندرسها الخامسة والعشرين . وقد يحق لنا أن نتحدث عن اكتمال النمو العقلى للشاب قبل سن العشرين، ولكن لا معنى لاكتمال النمو الدينى فى مثل هذه السن . ولذلك وجب علينا أن نمضى إلى ما بعدها حتى تكون الدراسة متصلة غير مبتسرة . ولكنا نعتقد فضلاعن ذلك أن أى تغيير نفسى يطرأ على الإنسان فى كهولته أو شيخوخته إنما هو صدى للعوامل النفسية التى سيطرت على طفولته ، ونتيجة طبيعية للتغيرات التى اعترته فى مراهقته ومطلع شبابه — فمهما تقدمت بنا السنون، يبقى الطفل الذى فينا متدخلا فى أسلوبنا فى الحياة ، ومؤثراً فى استجاباتنا، دينية كانت أو غير دينية .

الفصل التاسع

فكرة الله عند المراهق

صفات الله

عند ما يعدد المراهق صفات الله، لا يصدر فى ذلك عن اعتقاد ثابت، وإنما يصدر عن اتجاهه الوجدانى العام، وحالته النفسية الراهنة على وجه الخصوص. فالصفات التى يخلعها على الله — ولو أنه استفادها من الدراسة الدينية — إلا أنها تتلون فى جميع الأحوال بمشاعره، وتترتب بحسب دوافعه: فالله رحيم عند ما يتواجد المراهق فى موقف يتطلب رحمته، وهو منتقم من الظالمين عند ما يتمنى أن ينتصف له من شخص عجز عن أن يغلبه، وهو جميل إن كان من ذوى الحس الرقيق الذين يفتنهم جمال الطبيعة واتساق مظاهرها، وتتأكد صفة ما فى هذه اللحظة أو تلك، وتختفى أو تتراجع لتحل محلها صفة أخرى فى لحظة ثانية. وقد يلمس المراهق ذلك ويعبر عنه صراحةً. فذلك طالب بالسنة النهائية من التعليم الثانوى وعمره ١٦ سنة يكتب ردا على الاستفتاء:

«أهم صفات الله فى نظرى هى القدرة المطلقة . . . ردّدتْ كثير من الكتب القديمة صفات الله، فهى إذن معروفة. ولكن لا يمكن للمراهق أو البالغ الذى وضعت من أجله هذه الأسئلة أن يرتبها حسب أهميتها، والسبب فى ذلك أن نظرته فى ترتيب صفات الله حسب الأهمية تتغير من آن لآخر بتغير الظروف المعينة والتى تكيفها ظروف خارجة عن إرادته، تلك الظروف التى تدعوه إلى التفكير فى ذاته العمَلية فلا يلبث أن يكتشف مزايا صفة خاصة يضعها فى المكان المفضَّل. على أنى فى هذه اللحظة أستنبط أن أهم صفات الله هى القدرة ثم العدالة.»

أما عن شعوره نحو الله فيقول:

« إنه غير ثابت ، يتغير بتغير الأوقات والحوادث » .

ولكنه يتوجس خيفة من ذلك التصريح فيستدرك :

« واختلاف الشعور هنا ليس معناه تذبذب العقيدة ، بل معناه تفاوت المشاعر . فمن حب إلى إجلال إلى خوف إلى رهبة إلى مشاعر متباينة أخرى ... »

وإن معظم المراهقين إذ يعددون الصفات لا يذكرون منها ما يعتقدون أنه متحقق فعلاً فى ذات الله ، بل ما يودون أن يكون متحققاً فيها ، وكأن لاهوت المراهق نوع من « التخييل » ، أى أنه تحقيق وهمى لرغباته . يقول مراهق :

« إن الله جبار ينتقم ممن يعصاه » ، ثم يتبع هذا الوصف — وكأنما قد استشعر الخوف من جبروته ونقمته — بقوله : « إنه غفور رحيم لأنه يغفر ويرحم من يتوب إليه . » وكثيراً ما يورد المراهق لله صفات معينة ، ثم يورد من القول ما يثبت تقلقل إيمانه بها . من ذلك أن فتاة قررت أن أهم صفات الله هى الوحدانية والعدل ، ولكنها تجيب عن السؤال « هل تعتقد أن الله عادل ؟ » قائلة : « إنه عادل حقا ، ولا يستطيع أحد أن ينكر ذلك ، ولكن يدخل ضمن العدل والمساواة بين الناس جميعاً ، ولكن الله جعل منا الكافر والمسلم ، وفى قدرته أن يكون الجميع مسلمين . فهو لم يرحم أولئك الكفار الصغار الذين نشأوا على دين آبائهم . ولو كان الله عادلاً لما جعل منا الغنى والفقير ، والسعيد والتعيس » .

ولكن مهما كان الأمر فمن العسير على المراهق — ما دام مؤمناً بوجود الله — أن يتحرر من تأثير التعاليم الدينية . ولذلك كان الفرق واضحاً فى الإجابة على أول أسئلة الاستفتاء (صفات الله) بين المسلمين والمسيحيين : تتردد فى إجابات المسيحيين أوصاف المحبة والغفران ، والرحمة والشفقة والوداعة ؛ فى حين تتردد فى إجابات المسلمين أوصاف القوة والجبروت والانتقام من الظالمين ؛ ومن ناحية أخرى نجد أن الصفة الغالبة عند المسيحيين هى « الأب السماوى » ، وعند المسلمين « الوحدانية والقدرة » . وذلك الاختلاف مرده لا شك إلى التأثير الثقافى ، إلا أن له فى النفوس صدى عميقاً حتى ليبدو أمراً تلقائياً نابعاً من الذات .

ومهما تكن الفروق الفردية فى تصور المراهقين لله، فإنهم جميعاً يتفقون على أمر واحد ، هو محاولتهم تجريد ذات الله مما لحقها فى الطفولة من صفات التشبيه والتجسيم . فالمراهق يتصور الله — أو يحاول ذلك جاهداً — تصوراً معنويا ، ويُشغَل بصفاته وأفعاله أكثر من شغله بشكله وصورته. إن المراهق السوى يتخلى عن تصوره الطفلى لله كائناً ضخماً ، ويمعن فى التجريد الذى بدأه فى الطفولة المتأخرة حتى يستحيل الله صفاتٍ وقوىً وقدرات ورموزاً . ولا يستثنى من ذلك غير ضعاف العقول من المراهقين ، الأمر الذى يؤكد لنا الصلة الوثيقة بين نمو التصورات الدينية والنمو العقلى عموماً .

ازدواج الشعور الدينى

إذا كان الشعور الدينى اتجاهاً شاملاً ، وجب أن نعرف ، فضلاً عن تصور المراهق لله ، شعوره نحوه . وطبيعى ألا يذكر المراهقون من عناصر اتجاههم الوجدانى نحو الله إلا ما تتقبله نفوسهم الواعية ، فى حين تبقى عناصر أخرى غائرة فى الأعماق . أى أن الجانب الشعورى من الاتجاه الوجدانى يخفى جانباً مكبوتاً لا يقل عنه أهمية فى تكييف الاتجاه الدينى العام . فالمراهقون يصرحون عادة بأن شعورهم نحو الله هو شعور الحب والرهبة والخضوع والاحترام ، وقد لا يجدون حرجاً فى التصريح بأنهم يخشونه ويخافون منه . أما البغض ، فلا يجسرون — عادة — على التصريح به، بل هم قد لا يجسرون على الشعور به ، وبرغم أنه يكمن لدى البعض فى أعماق اللاشعور ، إلا أنه قد يتبدى فى لفظ أو عبارة تصدر — على غير وعى من المراهق — فتكشف لنا حقيقة اتجاهه الوجدانى نحو الله .

ونحن نؤكد أن الخوف من الله المصرح به فى إجابات المراهقين يخفى ميلاً عدائيا مكبوتاً ضده، ميلاً يغالبه المراهق، ويجاهد من أجل كبته. ولكنه كثيراً ما يغلبه على أمره، فيندفع إلى الشعور محوَّلاً إلى موضوع يبدو مغايراً لله ولكن

التحليل يبين أن ذلك الموضوع هو والله شيء واحد . مثال ذلك فكرة « القدر » : كثيراً ما تتردد تلك الكلمة على ألسنة المراهقين وفى مذكراتهم ، يرمزون بها إلى القانون الكونى ، إلى الضرورة الحتمية التى تتضمن أن ثم مصيراً معلقاً على رؤوسنا لا مفر منه ، وأن ثم إرادة عليا تتحكم فى حيواتنا لا دافع لها (أو ليس ذلك إلا أخص صفات الله ؟) . اعتاد المراهقون حتى أشدهم إيماناً إن نابته نائبة ، أو أصابه إخفاق ، أو ناله ضيق ، أن يصب جام غضبه على ذلك القدر « القاسى الذى لا يرحم » ، وأن ينقم على « الموت ، تلك النهاية التى لا مفر منها » ، وأن ينعى على « الزمن قسوته وتقدمه الرهيب غير مبال بأحد » . إن أفكار القدر والموت والزمن حين تصبح معانى مجردة ترمز إلى الضرورة الكونية أو الحتمية والتصرف فى مصائر الأفراد ، لا تكون إلا ألفاظاً متعددة للدلالة على حقيقة واحدة هى الذات الإلهية. حين يرضى المراهق ، ينسب الخيرات والنعم إلى الله صراحة ، وحين يغضب ، لا يسعه — وهو المؤمن بالله — أن يجابه الله بذلك الغضب ، فيحوله إلى القدر أو الزمن أو المصير ، دون أن ينسى أن الله هو الحاكم الذى لا شريك له فى تصريف شئون الكون . وهكذا نجد صورتين لله ، إحداهما صورة حلوة تولدت عن جانب الحب فى الشعور الدينى ، والأخرى صورة مخيفة تولدت عن جانب البغض المكبوت . ✗

كتب فتى ضمن تأملات له فى ذكرى ميلاده العشرين ، وكان فى ذلك الحين فى قمة إيمانه بالله ، وفى نفس الوقت فى قمة ضيقه بالحياة :

« . . . انتهيت إلى أن الانسان فى يد القدر ألعوبة تتدحرج مع التيار ، قطرة متلاشية فى محيط الكون الأبدى . فكرت فى الزمن وفى معنى الزمن — ما هو؟ إنه هو القوة الجبارة التى تسير فى طريقها غير مبالية ، تسير مستقيمة دون اعوجاج ، متقدمة غير متقهقرة ، آخذة فى طريقها كل ما يصادفها من عوالم وكائنات وأحداث . فالزمن يحتوى فى باطنه كل هذه المظاهر . وليس لأى منها أن يعترض على هذا السير التقدمى أو يقول لا . ومهما بلغ الكائن أو مهما بلغت

مظاهر الطبيعة من القوة والجبروت ، فهى أبداً محوية فى بطن هذا الكائن العظيم الذى يسع كل شىء ، متلاشية فى جوف هذه الصورة المجهولة التى لا ندرى لها معنى ولا كنهاً ، الصورة المعبرة عن جبرية العالم، عن حدة الكائنات وانطوائها جميعاً تحت لواء واحد، عن الحياة التى هى تقدم واستمرار ، ماض وحاضر ومستقبل.

كل هذه الأمور تصورتها فى تلك الليلة وقد احتواها ذلك اللامدرك البعيد الغور ، ذلك المجهول الذى يسميه الناس الزمن . انتهيت أيضاً إلى شىء أسمى وأعظم من ذلك، نتهيت إلى أن الزمن– وإن ابتلع كل شىء– فهو عاجز أيضاً عن أن يبتلع شيئاً واحداً، كائناً واحداً سامياً قويا جباراً ، ذلك هو الله . . . » .

إن موقف المراهقين عامة من الله أو القدر هو موقف الخضوع المهزوم والاستسلام الذى قد يخفى تمرداً . إن الإنسان– فى سعيه الدائب إلى احتلال مركز ممتاز فى ذلك الكون – حين تصدمه الحقيقة المرة، ويستولى عليه القلق من جراء الموت أو العدم أو عجز الإرادة الفردية أمام الإرادة الكونية ، قد يجد تخفيفاً لذلك القلق أن يستبدل بفكرة القوة العدوانية الغاشمة شخصاً معنويا محبوباً هو الله. وبذلك يوفر على نفسه صراعاً مع قوة جبارة ، ويستبدل بذلك الموقف موقف الوئام مع الله ، ذلك الموقف الذى يعتبر مظهراً خارجيا لكفاح الإنسان ضد مشاعر الخوف والقلق والعداء .

هذه المشاعر السلبية التى ينجح المراهق أحياناً فى السيطرة عليها، طالما يفصح عنها الأطفال قبل تمثل فكرة الله دونما حرج أو تحرز ، ثم هم يكبتونها فى سعيهم الطبيعى للتكيف للواقع . بيد أن أزمة المراهقة كفيلة بإثارة المكبوت واستفزازه ، والمراهق إما أن ينهزم أمام المكبوت من الدوافع التى تنبجس فى قوة وصراحة فى صورة تمرد على الدين وغيره من التقاليد، وإما أن يعبىء كافة قواه لإبقاء تلك الدوافع خافية فى الأعماق دون أن يغنى ذلك غناء تاما ، إذ تظهر – على الرغم من ذلك – فى شتى الصور ، لتدل على الطبيعة الأصلية للموقف الدينى ، أعنى الازدواج والتناقض الوجدانى .

والخلاصة أن شعور المراهق نحو الله سواء بدا فيه الحب أو الخوف والبغض صراحة، شعور مركب من عناصر متناقضة متفاعلة — الود والعداء، والأمن والخوف. وسلوك المراهق على الرغم من مظهره الخارجي ينطوى على نفس التناقض — فإن كان خضوعاً واستسلاماً، ففى الأعماق تتفزز الرغبة فى الاستقلال والتمرد؛ وإن كان ثورة وعدواناً، فوراء ذلك تعلق طفلى، وطموح إلى السلام.

تلك الحقيقة تفسر لنا ظاهرة شائعة لدى المراهقين على اختلاف اتجاهاتهم الدينية، تلك هى تذبذب الشعور الدينى لدى المؤمنين. فنحن لا نجد الشعور الدينى بدرجة واحدة فى جميع الأوقات، وإنما هو أقرب إلى أن يكون نوبات من الحمية الدينية أو الوجد الصوفى تتخللها فترات من الإهمال أو عدم الاكتراث. فتدين المراهق لا يكون كتدين الراشد أو كتدين الطفولة المتأخرة من حيث الاستمرار والاستقرار النسبى.

يقول مراهق فى سن الثامنة عشرة :

« صلتى بالله لا تكون قوية إلا إذا وقعت فى مأزق، أو ارتكبت إثماً فأخشى من الله العقاب، وكذلك أعاهده بينى وبين نفسى أن لا أرتكبه مرة ثانية، وقلما نفذت ذلك العهد ».

ويقول آخر فى سن السابعة عشرة :

« أقرأ القرآن دائماً . . . ولكننى فى الظروف الصعبة المزعجة، كثيراً ما أجده الوحيد الذى يرجع إلىّ هدوئى واطمئنانى . »

ويقول ثالث فى سن الثامنة عشرة :

« أخاف الله وأخشاه وأحبه، ولكن حينما تقع بى نازلة، أو تدهمنى نائبة من نوائب الدهر، فإن قلبى يمتلئ حفيظة نحو القدر، ولا أظن أن ذلك القدر الذى يتهمه الناس وأتهمه أنا سوى الله . »

ويقول رابع فى سن الخامسة عشرة :

« لم يكن إيمانى بالله بقوة واحدة فى جميع الظروف، فمثلا عند ما أكون مع جماعة من إخوانى فى لعب أو مزاح، يكون التفكير قليلاً؛ وإذا حان وقت

الامتحان ، يكون افتكارى لله أكثر ؛ وكذلك إذا كنت سائراً فى طريق مظلم مخيف ، يكون الإيمان بالله أكثر لكى أنجو من هذا الخوف . »

وهكذا كما ثبت لنا أن شعور المراهق نحو الله ليس شعوراً بسيطاً متسقاً ، يثبت أنه ليس شعوراً ثابتاً مستقرا ، فهو يستند إلى التقلبات الانفعالية السريعة التى تعترى المراهقين عادة خاصة فى النصف الأول من فترة المراهقة . فالحاجة إلى الله تكاد تختفى فى حالات الهدوء والسلام النفسى ، فى حين تصبح ماسة فى حالات القلق بسبب خطر محدق ، أو الخوف من إخفاق (وهو أمر شديد القسوة على نفس المراهق الممعن فى الطموح) ، أو بسبب احتداد الشعور بالذنب . فى مثل هذه الحالات ، يجد المراهق فى الصلوات وتلاوة الكتب المقدسة وغير ذلك من مظاهر النشاط الدينى تخفيفاً للحزن والخوف وتأنيب الضمير . أى أن نوبات التدين تكون بمثابة محاولات لتهدئة القلق الذى يستثار من حين لآخر .

الإيمان والأخلاق

الله عون أخلاقى :

إن أكبر عوامل ازدياد الإيمان بالله فى فترة المراهقة هو الشعور بالذنب ، ونحن نعلم أنه ليس أمراً جديداً على الفرد فى فترة المراهقة ، وأنه كان موجوداً فى تكوينه الانفعالى منذ طفولته الأولى . ولكن المراهقة فترة انبعاث للدافع الجنسى فى شكله النهائى الصريح ، الأمر الذى يجعله بمثابة خطر جسيم يحدق بكافة المعايير والمثل التى تخضع لها حياة الفرد . ومن هنا كان شعور المراهق بالعجز أمام قوى الدوافع البدائية على نحو لم يسبق له مثيل فى حياته من قبل ، ومن ثمة كان اشتداد حاجته إلى عون خارجى حتى يستطيع صد هجمات تلك القوى الغريزية ، وبخاصة أن المراهق يشرع فى هذه الفترة فى التخفف من ارتباطه بالأب ، ويسعى إلى الاستقلال ، فيتعرض بذلك لخطر آخر هو مواجهة قوى الواقع وحيداً .

كل ذلك يجعله يسعى إلى الله ، ويتشبث بذاته .

وحيث إن الشعور بالذنب ليس بقوة واحدة فى جميع الظروف ، وأنه يخفت أحياناً حتى ليكاد يتلاشى ، وينبجس أحياناً فى قوة طبقاً لإيقاع معين (rythm) ، فإن شدة الحاجة إلى الله تخفت وتشتد تبعاً لنفس الإيقاع . أى أن ظاهرة تذبذب الإيمان ترجع إلى اتصاله بنوبات الشعور بالذنب . وهنا نبلغ نتيجة هامة ، هى أن الله فى المراهقة هو فى المقام الأول ضرورة أخلاقية ، وهو باعتبار أنه عون أخلاقى أبرز فى حياة المراهقين منه بوصفه سنداً وجدانيا . ولو كان العقل يتمرد إبان فترة المراهقة حتى لينكر وجود الله أو يتشكك فيه ، فثم صلة تربط المراهق به ، هى حاجته إلى الضبط الأخلاقى .

فالإيمان بالله – وبخاصة فى النصف الأول من المراهقة – ليس اعتقاداً عقليا بقدر ما هو فكرة تستجيب لحاجات نفسية ملحة . وذلك يفسر لنا اختلافاً جوهرياً بين توسلات الطفل إلى الله ، وتوسلات المراهق إليه : الأول يتوسل إلى الله أن ينجيه من عذاب النار ، فهو خائف من عقاب خارجى حسى ، ولا يتنبه للعقاب الداخلى (الشعور بالذنب) إلا فى نهاية الطفولة ؛ فى حين أن الثانى يتوسل إليه أن يخلّصه من نار نفسه ، ويعينه على غرائزه ، فهو خائف من عقاب داخلى معنوى .

وإذا كان بعض المراهقين يواظب على العبادات ، أو تتملكه نوبات من الحماس فى التعبد والصلاة ، فمبعث ذلك ما يعانيه من شعور بالذنب – يخفت فتتراخى صلواته ، ويعنف فتتعالى توسلاته وضراعاته . فالتعبد فى حياة المراهق ليس قاصرا على طلب تحقيق الرغبات ، بل يتضمن أيضاً – وبدرجة أكبر – طلب المعونة الأخلاقية : التكفير عن الإثم ، والتطهر من الذنب ، والتسلح ضد نزعات الغريزة . لم تعد عبادات المرء كما كانت فى الطفولة مطالب طفلية ، بل محاولات لتقوية الذات المتداعية أمام التيار الغريزى الجارف ، كى تقوى على مجابهة تلك القوى الداخلية ، فضلاً عن مجابهة قوى العالم الواقعى .

وقع "مريد" « پول بورچيه » فى الخطيئة لأول مرة فى حياته فى سن السابعة عشرة مع امرأة فى الثلاثين أغوته ، وفى غمرة من الأسى والندم على ضياع طهارته يكتب : « ما كدت أنتهى من فعلتى حتى هربت من تلك الحجرة يملأنى اشمئزاز لا يوصف . كان يخيل إلىّ أن يدى وفمى وكل جسمى قد تدنست بأدران لا تغسلها أية مياه . وأول فكرة طرأت علىّ كانت أن أذهب وأعترف بخطيئتى وأتوسل إلى الله الذى كنت لم أزل أعتقد به ، أن يهبنى القوة من لدنه لكى لا أكرر فعلتى . . . »[1]

ولو أتيح لك الإطلاع على الصفحات المتصلة بالدين من مذكرات أحد المراهقين المتدينين لوجدتها مفعمة بالاستغفار ، أو بالاعترافات يسردها المراهق رجاء التخفف من تأنيب الضمير وتلطيف لذعات الندم ، أو بالتوسلات يتجه بها إلى الله (العون الأخلاقى) أن يثبت إيمانه (فهو فى أشد الحاجة إليه ، ومن ثمة فى أشد الخوف من فقدانه) ويعينه على « نزغات الشيطان » ، أو بالإنحاء باللائمة على الذات لضعفها أمام الغواية . وكل ذلك آيات بينات على أن الشعور بالذنب يكمن عند جذور التدين ، وعلى أن الدين يكاد يتحول فى المراهقة إلى أخلاق .

الجنة والنار :

بينا أن الدين فى المراهقة يصبح ذا قيمة أخلاقية كبرى ، إذ يصبح الله عوناً أخلاقياً ، فضلاً عن كونه سنداً وجدانيا . وثم مظهر آخر لهذه القيمة الأخلاقية ، هو التحول الذى يطرأ على تصور المراهق لفكره الجنة والنار . فقد كانت الجنة طوال الطفولة تصوراً حسيا للذات التى يود المرء أن ينعم بها ، وكانت النار رمزاً حسيا للعذاب والمخاوف. وتبقى فكرة الجنة أو النار منفصلة عن فكرة الثواب والعقاب الأخلاقية حتى السنوات الأخيرة من الطفولة المتأخرة حين يبرز الحس الأخلاق

(١) ص ١٧٦ – ١٧٧ من الترجمة العربية لقصة « المريد » .

رويداً رويداً، فتبذر فى الدين بذور القيم الأخلاقية . ولكن هذا الامتزاج بين الدين والأخلاق لا يبرز واضحاً إلا فى فترة المراهقة ، إذ يشغل المراهق بالنار الداخلية عن النار الخارجية التى كانت تنتظره طفلاً لتتلقفه عقب الموت . فليس تخلى المراهق – إلى حد ما – عن التصور الحسى للجنة والنار راجعاً إلى الترقى العقلى فحسب ، بل هو راجع أساساً إلى ذلك الأتون الداخلى الذى يجذب انتباه المراهق إلى ذات نفسه، فيشغله عما فى السموات من صور حسية كانت تتملكه فى طفولته . ويصبح انشغال أغلب المراهقين بالعالم الآخر ، لا بوصفه مكان النعيم والعذاب الجسمى ، ولكن بوصفه رمزاً لفكرة الجزاء (تلك الفكرة التى لا محيص عنها لتبرير الإيمان بسيادة الخير فى العالم ، والثقة بالعدل الإلهى الذى يقتضى عقاب المسىء وإثابة المحسن) ، أو بوصفه رمزاً للسعادة التى يطمح لها المراهق فى غمرة تلك الأزمة الأليمة ، أزمة المراهقة .

وإن كان المراهق يُبقى (برغم التغير السالف الذكر) على تصورات حسية لنعيم الجنة وعذاب النار ، فما ذلك اعتقاد ثابت ، بل هو من قبيل « التخييلات » العابرة ، توافيه من وقت إلى آخر كما يوافيه أى حلم من أحلام النوم أو اليقظة ، ويصدق عليها ما يصدق على الأحلام من كونها تحقيقاً خيالياً لرغبات ودوافع معينة . فالمراهق ينعم بهذه التخييلات تخففاً من قلق الموت ، ومخاوف الحياة الواقعية وأعبائها ، ولكن دون أن يغفل عن الدلالة الأخلاقية التى تنطوى عليها عقيدة الجنة والنار .

تقول فتاة مسيحية :

« الجنة هى المكان الذى فيه يستريح الإنسان من كل أمور العالم الفانى ، مثل الخوف من الجوع والعرى والفاقة ، والفضيحة ، والعمل لكسب القوت ، والشقاء وتصبب العرق من الجبين ، والخوف من الفشل فى المساعى ، والحزن والبكاء . . . »

إن تصور هذه الفتاة للجنة ليستند إلى حاجتها إلى الأمان الانفعالى ،

وإلى الخلاص من مضايقات حياتها الراهنة (وهى جميعاً مضايقات نفسية : الشعور بالذنب ، والخوف من التنفيذ الفعلى للرغبة الجنسية ، ومن ثمة من احتقار المجتمع وما ينجم عن ذلك من شقاء يتمثل فى لفظ مشبع بالانفعال هو «الفضيحة»). وينم تصورها للجنة أيضاً عن الخوف من الفشل الذى يزداد فى المراهقة نظراً لارتفاع مستوى الطموح مع ازدياد الشعور بالنقص ، والخوف من مواجهة واقع الحياة ، وهو أمر من أخص سمات المراهقة إذ يصاحب الرغبة فى التحرر من التبعية الطفلية للوالدين ، ويكون نتيجة طبيعية لتوقع هذا التحرر وما يعقبه من وحدة وكفاح مرير .

وبينما تلح هذه الفتاة فى تصورها للجنة على الخلاص من المتاعب النفسية الراهنة ، تلح أخرى على تحقيق آمالها فتسقط هذه الآمال فى تصورها للجنة . تقول : « الجنة خالية من المتاعب والاضطرابات والحروب ولا يوجد إلا سلام » . ويتكرر نفس الأمر فى تصور البنين والبنات للجنة والنار ، فهم يسقطون الميول والرغبات والآمال الراهنة ، ولكن مخاوف طفلية قد تبقى متشبثة بالمرء فتعاوده فى المراهقة ، وحينئذ قد تكون النار بمثابة "تخييل" تتبدى فيه تلك المخاوف الطفلية دون أن يستلزم ذلك اعتقاداً بوجود حسى خارجى . ويتبين ذلك من قول الفتاة السالفة الذكر إذ تفرغ مخاوفها الطفلية — فضلاً عن آلامها الراهنة — فى تخيلها للنار :

« النار عبارة عن مكان ضيق مملوء بالظلام ، هى مكان الأشرار ، ولا يوجد بها إلا الشيطان والأشرار . وتوجد هناك كل أنواع الحيوانات المفترسة ، والماكرة كالثعابين ، والخاملة كالضفادع . يخيل إلىّ أنه لا يوجد هناك نار ، بل إن الأشرار والخاطئين يشعرون فى داخلهم بنار تشتعل . لا يمكننى أن أزيد على ذلك فى وصف النار لأننى لا أحاول أن أتخيلها ، وإنما كل ما أتخيله دائماً هو الجنة . »

هذه العبارة تجلو لنا تراوح المراهق بين التصورات الحسية الطفلية للنار (تلك التى تحتمها دوافع كامنة منذ الطفولة) ، وبين التصور الناضج لها . فالفتاة إذ تندفع فى تخييلات حسية صرفة ، لا تلبث أن تتنبه إلى أن النار ليست شيئاً من

ذلك فى حقيقة الأمر ، ولكنها « نار تشتعل فى داخل الأشرار والخاطئين » . بل إنها- إذ تُسقط المخاوف الطفلية فى تخييل النار- تضيف إليها فكرة ناضجة هى فكرة الشر ، فكما أن النار مكان الحيوانات المفترسة ، إلخ . . . ، فهى كذلك « مكان الأشرار ، ولا يوجد بها إلا الشياطين . . . » .

وهكذا كما استحال الله فى تصور المراهق إلى فكرة معنوية مشبعة بالحس الأخلاق ، كذلك تستحيل عقيدة الجنة والنار إلى فكرة معنوية ، قوامها الإحساس الأخلاق ، والتصور المعنوى لفكرة الجزاء .

الملائكة والشياطين :

وما يقال عن تنبه المراهق للدلالة الأخلاقية لعقيدة الجنة والنار ، يقال أيضاً على اكتشافه للصلة بين فكرة الشيطان والإحساس بالذنب ، أو بين فكرة الملاك والطهارة الأخلاقية . وقد أسلفنا أن الطفل قبيل المراهقة يبدأ يحس أن الشيطان ليس محرضاً خارجيا بل هو نازع نفسى . وإن كان لا يتحرر نهائيا من إسقاط ذلك النازع ، فهو على – أقل تقدير – إبتدأ يوقن بصلته الوثيقة بنفسه ، أو بالأحرى بالجانب الشرير منها ، ولكنه يبقى على الملاك كحقيقة خارجية يرتاح إلى الإيمان بوجودها ويطمح إلى خيرها وجمالها . تأتى المراهقة بتطور عقلى نحو التجريد ، أى يصبح بمقدور المرء – عند ما تدعو الحاجة – أن يتحرر من تجسيم وتشبيه ما يمكن تصوره تصوراً معنويا مجرداً .

وتأتى المراهقة أيضا بالتحول الجنسى الخطير الذى يجعل المراهق معرضاً مرة أخرى لخطر الدوافع الجنسية والعدوانية ، ومن ثمة يجعله نهباً للإحساس بالذنب. ذلك الإحساس يملأ نفسه قلقاً ، فيسعى جاهداً للتخلص من وطأته – أو على الأقل لتخفيف حدته – فيكون ما أشرنا إليه من تشبث بالله (كوسيلة من ضمن الوسائل المهدئة للقلق) . وينتج عن وضوح الإحساس بالذنب على نحو لم يسبق له مثيل فى الطفولة أن يوقن المراهق أن الشيطان ليس ذلك الكائن الخرافى الذى طالما نغص عليه طفولته بمخالبه ، وأظفاره ،

وقرونه ، وسواد سحنته، والشرر المنبعث من عينيه ، إنما هو تلك الرغبات الخبيثة التي تقض مضجعه .

إن الدوافع المحظورة، تلك التي كبتها المرء طفلاً ،وتنصل منها بأن جسّمها شيطاناً خبيثاً أفرغ فيه كل تلك الدوافع فضلاً عن انفعالات الخوف من الظلام والعقاب، إلخ . . . لايعود بمقدوره – في ثورة المراهقة– أن يتجاهلها، أو يراها منفصلة عن ذاته . وبما له من ميل ناشيء إلى تأمل الذات، يفطن إلى أن الشيطان بعض نفسه . أو بتعبير آخر تتحلل الصورة الحسية إلى عناصرها الأساسية التي تعود إلى مكانها من النفس . يقول مراهق في السادسة عشرة من عمره وهو طالب بالسنة الرابعة الثانوية :

« ذلك (الشيطان) هو الاسم الذي يتردد كثيراً في آيات الله عز وجل فيذكرنا به ، يذكرنا بألد أعداء الإنسانية . . . وليس لي إلا أن أتساءل : ما هو الشيطان ؟ وعلى أي صورة يكون ؟ . . . هل الشيطان الذي ذكره لنا سبحانه وتعالى في القرآن الكريم شيء يلمس ؟ لا ؛ أو شيء يرى ؟ ذلك محال . فماذا يكون ؟ . . . لكل كائن حي راق (الإنسان) إحساس ذاتي ، فإذا ما فعل خيراً أحس بارتياح في نفسه واطمئنان باله ، فيشعر بالذي يدفعه إلى فعل الخير حتى لا يخامر نفسه اضطراب أو قلق ، فذلك الإحساس هو ما أطلقنا عليه اسم الضمير . نعم ، نحس بشيء يدفعنا إلى الخير نفعله . ولكن سرعان ما نجد إحساساً طبيعيا آخر يتناقض مع ذلك الإحساس ، فيتنازع التأثير على نفسية الشخص . فإن كانت إرادة الإنسان ضعيفة أثر عليها الأخير ، وإن كانت ثابتة قوية فالعمل الحسن خير دليل . أطلقنا اسماً على الإحساس الأول ، أفلا نتخذ للإحساس الآخر ، الدافع إلى الشر ، اسم « الشيطان » ؟ فإذن كان الشيطان إحساساً مناقضاً للضمير لا يحدّث النفس إلابالإثم والجرائم، فيقذف بصاحبها إلى ارتكاب الشر ، وبئس ما يقترف . »

ويلمس المراهق – في تلك المرحلة التي ينبجس فيها الدافع الجنسي – أن

أهم مكونات « الشيطان الذاتى » هو الدافع الجنسى . تقول فتاة :

« أتصور الشيطان امرأة خبيثة تزين لى فعل الشر ، أو شابة لعوب تجعل لعاب آدم يسيل اشتياقاً لالتهام الثمرة المحرمة . . . » .

أى أن المراهق إذ يعزو الشيطان إلى ذات نفسه إنما يعترف — اعترافاً ضمنيّاً على نحو ما — بالدوافع التى أنكرها فى طفولته. ولا شك أن تلك أمارة لا على الترقى العقلى فحسب ، بل على النضج الوجدانى أيضاً . ولذلك كنا نجد ضعاف العقول يحتفظون فى المراهقة بتصورهم الطفلى للشياطين دون أن يصلوا بينها وبين نفوسهم ، أو دون أن يفطنوا إلى ما تنطوى عليه من دلالة أخلاقية .

إذا كان المراهق السوى يفطن إلى الصفة الرمزية للشيطان، فهو يفطن إليها كذلك فى « الملاك » الذى يعتبره تجسيا لصفات الجمال والمثل العليا الأخلاقية (الطهارة الأخلاقية) التى يطمح إلى تحقيقها فى نفسه . على أن ميل المراهقين — كما يتضح من إجاباتهم — إلى إلغاء الوجود الحسى للملائكة أقل منه إلى إلغاء ذلك الوجود للشياطين . تفسير ذلك أن من اليسير على المراهق أن يلمس كون الدوافع الشريرة حقيقة نفسية هى جزء من كيانه الذاتى ، فى حين أنه لسيطرة الإحساس بالذنب يشق عليه أن يتصور الطهارة الخلقية من طبائعه (فلا تزول بذلك الحاجة إلى إسقاطها فى الخارج) ، إنما هى أحرى أن تكون أملاً عزيز المنال ، هى أحرى أن تكون من طبائع كائنات أخرى علوية .

والمراهقون الذين يحتفظون بالاعتقاد بوجود الملائكة ، يتخيلونها مقترنة بالضياء ، والابتسام ، والجمال ، وخفة الحركة . الملاك صورة تنسجها خيالات المراهق من انفعالات الأمن التى أحسها طفلاً فى حضرة الأم ، وفى ضوء النهار ، وفى ابتسام الكبار وإقبالهم . وإنه لأمر شائع بين المراهقين أن « يوحدوا » بين الملاك وبين الأم ، فيصورونه لأنفسهم امرأة وديعة جميلة رؤوماً ، فى حين يصورون الشيطان فى صورة وحش فظ قبيح الخلقة غليظ القلب عابس الوجه مظلمه . والملاك فضلاً عن ذلك صورة ينسجها المراهق من صفات المثل العليا الأخلاقية والجمالية ، ولذلك كان يرد أحياناً فى تخيلاته

طفلاً بريئاً ، أو طائراً رقيقاً ، فى حين يتبدى الشيطان حيوانيا شهوانيا .

تقول فتاة (١٩ سنة) .

« أتصور الملائكة فتيات جميلات ، كما فى عالم المثل . . لانقص فيهم أبداً . . ذات شعور ذهبية مسترسلة ، وجمال أخاذ ، وقوام رشيق . »

• • •

والخلاصة أن احتداد الإحساس بالذنب فى فترة المراهقة ، وارتقاء الحس الأخلاقى ، والنمو العقلى ، كل ذلك يتضافر على إزالة الاعتقاد بوجود الشياطين والملائكة بوصفها كائنات ذات وجود خارجى محسوس . وإذا كان من المراهقين من يبقى على حرفية الاعتقاد التقليدى بالشياطين والملائكة أو الجنة والنار ، فهم لا يغفلون فى نفس الوقت صلتها الوثيقة بذواتهم – كما كان حالهم فى الطفولة – وإنما يحسون الصلة الوثيقة بين الشيطان ونوازع الشر فى نفوسهم ، وبين الملاك والمثل الأعلى للأخلاق والجمال ، وبين الجنة من ناحية والسلام النفسى وسيادة الخير من ناحية أخرى ، وبين النار من ناحية والصراع النفسى والعقاب على الذنوب من ناحية أخرى . وإنما هو الواجب الدينى يحتم على المراهق الاحتفاظ بالعقيدة التقليدية كما هى. ولكن ذلك الاعتقاد إن بقى تسلماً نظريا ، فهو لا يكون وثيق الصلة بالحياة النفسية الداخلية كما كان إبان الطفولة ؛ وبعد أن كان فكرة متغلغلة فى التكوين النفسى تنخلع منه، لتصبح مجرد تصور طاف على سطح الحياة الانفعالية، دون أثر كبير فى تكييف حياة المراهق العادى .

إن عودة المرء إلى نفسه ومواجهته إياها ، وعدم تعويله فى ضبط نفسه كل التعويل على كائنات خارجية ينسج خياله لها شتى الصور ، ووقوفه من مشكلة الخير والشر موقفاً واقعيا ، كل ذلك أمارات تدل على تطور عقلى ونضج وجدانى أيضاً ، وتنبىء عن انسحاب وشيك من عالم التخييل الطفلى إلى عالم الواقع حيث لا حياة إلا لمن يصدر فى سلوكه عن قدر من التفكير الموضوعى طبقاً « لمبدء الواقع » .

الإيمان والتأمل الفلسفي

كما يختلط الدين بالأخلاق منذ مطلع المراهقة ، فهو يختلط بالفلسفة فى النصف الثانى منها . حينئذ يصبح المراهق قادراً على النظر الفلسفى فى الكون ، ولا يألو جهداً فى سبيل الوصول إلى مذهب يلم شتات الظواهر والأحداث ، مذهب يكون تفسيراً عقليا للكون تطمئن له نفسه (أى يرضى حاجاته النفسية) ، وبذلك يصبح من المستحيل عليه أن يدع الله بمعزل عن الكون . وعليه فلا سبيل إلى أن نفهم فكرة الله عند المراهق دون الإلمام بفلسفته ، أى دون الوقوف على تصوره العام للكون بالإجمال ، فضلاً عن الأفكار الدينية الأخرى .

فإن تصوَّر المراهقُ اللهَ سلطةً عليا مسئولة عن تدبير الكون ، ثم تراءى له ذلك الكون فوضى لا ضابط له من نظام أو قانون عدل ، أثر ذلك فى موقفه من الله فانقلب من حب إلى بغض — أو على الأقل — حط ذلك من قدر الله ، ونال من هيبته . وقد يتفاقم ذلك الشعور حتى لا يجد فى النهاية محيصاً عن إنكار وجود الله كى يستقيم له تصوره للكون على هذه الصورة من الفوضى والخضوع للصدفة . وإن آمن المراهق بضرورة الجزاء فى حياة أخرى ، ثم رأى الإنسان مجبراً على أفعاله (مسيراً لا مخيراً) أثار ذلك تشككه فى العدالة الإلهية ؛ وقد لا ينال من إيمانه بوجود الله ولكن موقفه منه لن يكون موقف الود والأمن . وإن اجتذب المراهقَ المؤمنَ ما ينطوى عليه الكون من تناسق ، فنما لديه الإحساس بالجمال الكونى ، خلع ذلك على الله صفة جديدة قد تكون محور الإيمان بعد أن لم يكن لها وجود فى الطفولة ، تلك هى صفة الجمال . وإن كثيراً من المراهقين — وبخاصة فى النصف الثانى من المراهقة حيث المراهق عاشق للطبيعة مغرق فى الرومانسية — يتأدَّون من إدراك الجمال الطبيعى إلى التأمل فى الجمال الإلهى . وطبيعى أن يتسم الإيمان لدى الفنان ، أو لدى العالم الذى يبصر الجمال الكونى بالرضى والدعة ، وأن يكون شعوره

نحو الله شعوره نحو « فنان مبدع » أو « مهندس كونى » يضمر له الإعجاب، ويدين له بالخضوع دون أن يغفل عن الواسطة ، أعنى الإنتاج الذى أنتجه . وطبيعى أيضاً أن يتغاضى عن تفاصيل الشر والقبح فى العالم حتى لا تتشوه الصورة العامة ، فيدرك الكون بإلهه إدراكاً شاملاً تتسق فيه العناصر وتنتظم كلا واحداً منسجماً . ومن ثمة يسهل علينا أن نستنتج أنه يؤمن بالعدل الإلهى حتى ولو لم يحدثنا بذلك ، وحينئذ يحق لنا أن نعتبره ذا اتجاه صوفى .

ولدينا إجابة فتاة من ذلك النوع الذى حظى بقسط وافر من الإحساس الجمالى، ولديها يتجلى إلى أى حد يصبح تصور الله فرعاً عن تصور الكون عامة. إنها طالبة بالجامعة فى سن الثامنة عشرة ، قيل لها :

« ما أهم صفات الله ؟ » فأجابت : — « الجمال »

« ما شعورك نحو الله ؟ » فأجابت : — « الحب »

« هل تؤمنين أن الله خلق الخير والشر أم الخير فقط ؟ » — « الخير فقط »

« هل إيمانك بالله يحفزك إلى فعل الخير وينهاك عن الشر ؟ » — « طبعاً »

« هل تعتقدين أن الله عادل ؟ » — « طبعاً »

نلمس فى هذه الإجابات تناسقاً مبرءاً من أى تناقض، واتجاهاً موحداً يغلب فيه الحب على البغض فى شعور الفتاة نحو الله . وحيث إنها تستبعد الشر والقبح فى تصورها للكون ، فإن النتيجة المنطقية لذلك هى الإيمان بالعدل والجمال الإلهيين . ثم تعال معى إلى تصورها للملائكة « فتيات جميلات »، وإنكارها للشياطين أصلاً وكذلك الجن والعفاريت (فهى نقائص وعلائم قبح لا ينبغى أن تدعها تشوب جمال الصورة الكونية) . وإن فتاة يتغلب الحب فى إيمانها بالله على الخوف والبغض لا بد أن ينعكس شعورها ذاك فى نواح أخرى : من ذلك أن شيمتها التسامح برغم تحمسها لدينها ، حتى ليتضح لنا فى النهاية أن اتجاهها الدينى إنما هو فرع عن اتجاه وجدانى عام من الحياة والأحياء ، اتجاه يغلب عليه الرضى والتفاؤل، اتجاه ليس وليد الظروف الراهنة فحسب، وإنما هو نتيجة

نهائية لحياتها السابقة ، لانطباعات البيئة المتسامحة التى كفلتها، والخبرات التى ارتسمت آثارها الطيبة فى نفسها .

• • •

نخلص من ذلك إلى نتيجتين :

أولا : إن تصور المراهق لله – شأن أى موضوع دينى – فرع عن تصوره للكون، أو هو عنصر فى فلسفة أكثر شمولاً ، وعلاقته بالله ليست علاقة بسيطة بين طرفين ، الذات والله، وإنما هى علاقة معقدة ثلاثية الأطراف ، الذات والكون والله .إن شعور المراهق نحو الله صدى لاتجاهه الوجدانى العام نحو العالم الخارجى (الأهل، الإنسانية، النظام الكونى كيفما تراءى له – نظاماً عادلاً ، أو جبرية طاغية، أو فوضى محيرة) . الدين إذن علاقة وجدانية لا بين الله والذات فحسب، بل بين الذات والكون إجمالاً ، وهذه العلاقة الأخيرة شكّلتها الأحداث الماضية والعلاقات القديمة فضلاً عن أحداث المراهق وعلاقاته . وبتعبير آخر إن الدين وليد التفاعل بين الذات والبيئة .

ثانياً : فى كل مرحلة من مراحل النمو تغلب على صورة الله صفة بالذات– فعند ما يتمثل الطفل فكرة الله تكون الصفة الغالبة هى الأبوة ، ثم صفة العلية ، ثم تتراءى صفته الأخلاقية ، وهذه تعمل وتنضج إبان المراهقة حين يكون الله ضرورة أخلاقية (على وجه الخصوص) ، ثم تظهر مع اتساع النظرة الكونية صفة الجمال والتدبير ، أعنى أن الله يصبح ضرورة كونية .

الفصل العاشر

الموت والخلود

تطور فكرة الموت

تحدثنا فى الفصل الثامن عن تطور فكرة الموت عند الطفل . وبينا أنه يبدأ يفكر فى الموت من حيث هو حادثة مفردة طارئة ولا يراه مصيراً عاماً للإنسان إلا فى مرحلة متأخرة . ولا يبدأ يتنبه إلى الموت من حيث هو مصير محتم على الذات أيضاً إلا قرب نهاية الطفولة . ومعنى ذلك أن تمثل فكرة الموت كاملة" لا يتم إلا قبيل المراهقة. أما والمراهقة تجلب تفتحاً ذهنياً لم يعهده المرء من قبل ، وتوفر له خبرات نفسية جديدة ، فإن تفكيره فى الموت يعمق ويتسع — يعمق ، إذ ينصب على الموت ذاته بعد أن كان فى الطفولة لا ينعل إلا أن يلتفت إلى مقدماته (كالمرض والاحتضار والحوادث) ، ويتطلع إلى ما يعقبه من مظاهر اجتماعية ، وقد يتقدم فى الطفولة المتأخرة خطوة أخرى فيشغل بالحياة الأخرى ، أما الآن فبوسعه تأمل الموت ذاته بغض النظر عن كل هذه الأمور ؛ ويتسع ، إذ يصبح بوسع المراهق أن يتأمل الموت من حيث هو مصير للناس جميعاً ، بل من حيث هو ظاهرة كونية ضرورية . على أن المراهق لا يأخذ فى هذا الضرب من التفكير فى الموت إلا مدفوعاً بمناسبة ذات دلالة انفعالية لديه . ولكن لا يغيبن عن البال أن هذه المناسبة لا تكون أكثر من مثير لتأملاته التى لا تقف عند حد الحادثة ذاتها .

يقول شاب فى العشرين :

« الحادثة التى جعلتنى أفكر فى الموت هى أن أحد أصدقائى مات والده فكفلته أمه حتى سن ١٨ ، وكان له إخوة أصغر منه . وفى يوم من الأيام ذهب

لزيارة أمه المريضة، وكان مساء.. فرأيت منظراً لا يمكن أن يمحى، رأيت أمه ترقد على سرير ومن حولها أبناؤها الصغار واثنان من أقاربهم يبكون .. لقد كانت الأم تحتضر ، كانت تقول لابنها الكبير بصوت خافت : " كن أميناً على إخوتك الصغار " وهو يبكي إلى أن أغمى عليه . هذا المنظر أثر فى نفسى تأثيراً عميقاً ... »

ويقول آخر فى سن ١٩ :

« بدأت أفكر فى الموت بعد وفاة والدتى مباشرة التى ما كنت أتوقع لها هذه النهاية العاجلة، ثم بعد ذلك تركت العنان لخيالى للتفكير فى فلسفة الموت ... »

ويقول ثالث :

« الذى جعلنى أفكر فى الموت هو ملاحظتى لوالدتى عند ما توفى عمها فى لبسها السواد وعلامات الحزن البادية عليها ، وكان ذلك فى سن السابعة أو أقل . وأصبحت أفهم أن الشخص المتوفى يذهب ولا يرجع عند ما توفيت لى أخت أصغر منى كنت أنا ووالدتى نحبها كثيراً، وكنت أشاهد أهلى يبكون فكنت أبكى مثلهم وأحزن لحزنهم ، ولكننى الآن اختلفتْ نظرتى للموت إذ أصبحتُ أعتبره شيئاً عاديا ، لا أحزن على الشخص المتوفى بقدر حزنى على الظروف والملابسات التى تتبع موته مباشرة . »

هذا الحديث الأخير يجلو مراحل تصور الموت فى الطفولة وما يليها : فهو أولا مجرد استجابة انفعالية تشتق من موقف البيئة لحادث غريب الملابسات بالنسبة للطفل الصغير ، ثم هو فهم له على أنه غياب (أو سفر) مؤقت ، ثم إدراك أن الميت لن يعود، ثم إدراك للموت على أنه حادث طبيعى « شىء عادى». وفى المراهقة يتسع ذلك الإدراك ويعمق — كما أسلفنا — إذ يراه المراهق ظاهرة عامة طبيعية تصيب الناس جميعاً بما فيهم ذاته هو . بل إن المراهق لا يقنع بتعميم الموت بحيث ينطبق على الناس جميعاً ، وإنما يمضى فى التعميم حتى يشمل

الكائنات جميعاً . أى أنه لا يقتصر على التفكير فيه من حيث صلته بالإنسان فحسب ــ شأن الطفل فى المرحلة الثانية من تطور فكرة الموت ــ بل يفكر فيه من حيث هو قانون كونى عام . وهذا نتيجة طبيعية لما سبقت الإشارة إليه من المقدرة على تجريد الموت من ملابساته وتأمله فى ذاته .

هذا الترقى الذى يصيب فكرة الموت لا يقضى على قلق الموت ، فذلك القلق قائم لا يريم ، وإنْ سهم التأمل فى فلسفة الموت فى تخفيفه وتلطيف حدته فهو لا يقضى عليه نهائياً . هذا القلق يتخذ صوراً عدة :

أولاً : الخوف من فراق الأهل ، وهو أمر لا يقتصر على المراهقة وإنما هو أمر شائع فى الطفولة .

يقول شاب فى سن ١٨ :

« بدأت أفكر فى الموت منذ سن الرابعة عشرة ، وتفكيرى فيه كان بسبب خوفى من أن يتوفى والدى قبلى ، ولم أستطع أن أتصور أنه يموت وأظل أنا حيا . »

هذا تعبير عن الخوف من الانفصال عن الأب (بالموت) . ويلاحظ أن الانفصال هنا ليس بموت المراهق نفسه بل بموت أبيه . وذلك استمرار للتفكير الطفلى الذى يعتبر الموت فراقاً ، إذ يستبعد من الخاطر كونه رحيل الشخص نفسه ، فى حين أن المرء فى سن أنضج يكون مستعداً لتصور الفراق نتيجة موته هو ، لا نتيجة موت المحبوب فحسب .

وقد لا يكون الخوف من فراق الأب بدافع التعلق العاطفى ، بل بدافع آخر هو تقدير تبعات المستقبل والإشفاق من مواجهة الحياة . وذلك أمر استحدثته مرحلة المراهقة حيث المراهق (برغم سعيه الجاهد كى يستقل ويفض روابطه الوجدانية الطفلية) أشد ما يكون حاجة إلى « سند وجدانى » ، يشد أزره ويعضد ذاته « المنهوكة » فى رحلة الحياة ، وأكثر ما يكون هلعاً من مجابهة العالم الكبير . فنحن هنا بصدد خطر مزدوج : فض علاقة قائمة ، ومجابهة مستقبل مجهول .

والخوف من هذا الخطر المزدوج ينعكس فى قلق المراهق حيال الموت كما يتبين من قول شاب فى العشرين :

« أُكثر من التفكير فى الموت ، ولكن ليس موتى أنا بالذات . ولكن موت والدى .. وكيف أعيش من بعده ، خصوصاً وأنى أكبر إخوتى ، ووالدى لا يملك من الدنيا إلا الوظيفة الحكومية . وقد بدأت أُفكر فى ذلك منذ سن ١٩ . . . »

لم يعد الفراق إذن كما كان فى الطفولة مثاراً للقلق لمجرد وجود الرابطة العاطفية ، بل أصبح مثاراً لقلق يتسم بطابع واقعى : إدراك للأعباء ، وفهم للملابسات الاجتماعية المحيطة بالموت .

ثانياً : الخوف أن يموت الشخص ذاته ، وهو خوف لا يكون بذلك الوضوح والعموم عند الأطفال ، كما أنه يختلف عن خوف الأطفال من موتهم — فلا يكون عادة خوفاً من نهش الديدان ، أو من ظلام القبر ، أو ضيقه ، أو غير ذلك من مخاوف الطفولة ، وإنما يكون خوفاً من أمور أخرى :

(ا) الفراق (ومن هنا صلته بالعامل السالف الذكر) ، فبعد أن كان المرء فى الطفولة إذ يخاف الموت لأنه فراق لا يخطر بذهنه إلا رحيل المحبوب (موضوع العاطفة) إذا به لا يغيب عنه رحيل المحبوب ويحاول احتمال ذلك الخاطر . يقول مراهق :

« فكرة الموت لا تخيفنى (كذا !) ، ولكننى أخاف الموت لأننى أحب والدى ، وأخاف أن أخلفه وحده فى هذه الحياة يعانى آلام الحسرة والتوجع . كما أنى أطمع فى أن أقوم بالخير والأعمال الخيرية التى تقربنى من الله . »

هذا الخوف يتصل أوثق اتصال بالتطلع إلى الاستقلال الذى تتصف به المراهقة عادة ، ذلك التطلع الذى يلقى فى روع المراهق أنه لم يعد طفلاً معتمداً على أبيه ، وأن الأخلق به أن يكون غيره له تبعاً وعليه معتمدين ، فإن خطر الموت بباله ، لم يكن غريباً أن يخشى أن يموت عن هؤلاء الذين يتبعونه ويعتمدون عليه .

(ب) الجملة الأخيرة من حديث الشاب السالف الذكر « كما أنى أطمع فى أن أقوم بالخير والأعمال الخيرية التى تقربنى من الله » تكشف لنا عن سبب آخر من أسباب الخوف من موت الذات ، ذلك هو الشعور بالذنب ، ومن ثمة

الرغبة الشديدة فى التكفير قبل الموت مخافة لقاء الله محملاً بالذنوب . فكأن الخوف من الموت هنا هو فى حقيقة الأمر خوف من عقاب الحياة الآخرة . والحق أن حياة المراهق الذى أوردنا عبارته هذه كانت سلسلة من عمليات التكفير ، وسلوكه الوسواسى ينم عن إلحاح الإحساس بالذنب عليه ، وعلاقته بأبيه (الذى امتنع من أجله عن الزواج بعد وفاة أمه) يشوبها الشعور بالذنب حتى ليرى نفسه مسئولاً عن سعادة أبيه ، مشفقاً من أن يموت ويتركه يقاسى بعد كل ما قاسى من أجله .

(حـ) والسبب الأخير للخوف من الموت الذاتى هو الطموح : إن الطموح من أخص صفات المراهقة . فالمراهق أكثر تخيلاً للآمال البعيدة من العمل من أجل تحقيقها . والتناسب معدوم بين خطورة تلك الآمال ، وضآلة قدراته و إمكانياته — أى أن طموحه فى مستوى التخييلات وهو مشبع بالوجدان . ولذلك كان يخاف من الإخفاق خوفاً شديداً ، وكان القلق يساوره بصدد العجز عن تحقيق مراميه وتأكيد ذاتيته . فإن طالعه الموت باعتباره مصيراً حتما للذات ، كان بمثابة شبح (لا يقهر) يحول دون تأكيد الذات .

دوّن مراهق فى مذكراته الدعاء التالى بمناسبة ختام عامه التاسع عشر :

« ربى زدنى عمراً حافلاوهيىء لى من الأيام ما يتسع لتحقيق جلائل الأعمال . »

لم يعد الموت كما كان فى الطفولة أمراً ضيق النطاق ، بل مصيراً محتوماً على الإنسانية فى مجموعها ، أصبح مأساة كونية هائلة ، ولذلك فالمراهق إذ يتوجس منه خيفة — لفراق ، أو عقاب ، إلخ ... — فذلك باعتباره ذلك القانون الذى ينظم الكون بأسره ، وهنا نجد أنفسنا بصدد تصور للموت هو بمثابة عنصر من عناصر فلسفة فى الكون شامله كما هو الحال بصدد تصور الله . ومن ثمة فإن المراهق لا يقنع فى محاولته التخفف من « قلق الموت » بأن يحلم بالنجاة منه ، أو بأنه سيشفى منه إن أصيب به — شأن الطفل الذى يلوذ بتخييلاته هرباً من خطر الموت —

وإنما يلتمس نظرية فلسفية أو اعتقاداً (عقلياً) أكثر رسوخاً من التخييل، وأبعد منه عن الخضوع للانفعالات المتقلبة. من ذلك الاعتقاد بحياة أخرى، وهو اعتقاد لا يعدو أن يكون وسيلة لتخفيف قلق الموت بنقل الانفعال الذى تستثيره فكرة الموت إلى شىء آخر مقترن بها، إلى جهنم وعذاب النار؛ أو بنقله إلى وجه آخر للموت غير مقترن بصفة الألم، إلى الأمل فى الجنة ونعيمها. إن التفكير فى عذاب النار والتأمل فى نعيم الجنة، وتمثل ما تنطوى عليه هذه وتلك من معنى الجزاء وسيادة الخير فى النهاية، كل ذلك يحرر المرء — إلى حد ما — من «قلق الموت» فيمكنه من الاستمتاع بالحياة، إذ لو زاد ذلك القلق عن حد معين فقدت الحياة معناها، ولم يعد بمقدور المرء أن ينعم بحياة مجدية. وإن الخوف من جهنم، والأمل فى الجنة قد مكّنا الأديان التقليدية أن تلعب دوراً جوهرياً فى تخفيف قلق الموت.

يقول مراهق:

«أعتقد أن الموت خير، بل هو نتيجة طبيعية للحياة، وكل ما هو طبيعى فهو خير... ومن ناحية أخرى، الموت هو الموت خيراً كان أو شراً، رضينا به أم كرهنا. وأنا شخصياً مطمئن إلى هذا الموت لأنى أعتقد (ولست أدرى ما السر فى ذلك) بتناسخ الأرواح. فأنا أعتقد أن تفكيرى وإحساسى وضميرى ستنتقل كلها أو تحل فى مولود آخر من البشر.»

كتب هذا القولَ مراهق فى الشطر الأخير من المراهقة (٢١ سنة)، وهو لا يؤمن بالله، ولا يعتقد بالجنة والنار. وينم قوله عن محاولة فلسفية جاهدة لتبرير الموت وإثبات أنه خير. ولكن عبارة واحدة تفضح حقيقة شعوره، وتبين أنه إنما حاول إقناع نفسه بتقبل فكرة الموت، تلك هى «الموت هو الموت خيراً كان أم شراً، رضينا به أم كرهنا». وترجمة ذلك بصريح العبارة: «لقد أيقنت أن الموت مصير حتمى لا يتوقف على إرادة فرد منا، والخير كل الخير فى أن نواجه الواقع لا أن ننكره.»

وصاحبنا قد استعان على مواجهة هذه الحقيقة المرة بالاعتقاد بتناسخ الأرواح، وإن كان قد وقف من الدين موقفاً إنكاريا ، فإنه لجأ إلى رحاب الفلسفة حيث اهتدى إلى بديل من عقيدة الحياة الآخرة، التناسخ الذى يتضمن أن الإنسان مخلَّد، ومخلَّد فى هذه الحياة الأرضية بالذات . وهو لا يطمح لغير ذلك، فالحياة التى يحياها هى التى يبغيها ولا يرضى عنها عوضاً . إنه يريد أن يضمن الخلود، فليكن ذلك على الأرض، لا فى السماء التى فقد الإيمان بها .

أما المؤمنون بالله فيجدون فى عقيدة العالم الآخر التقليدية بديلاً عن هذه الحياة الأرضية ، ويتعلقون بفكرة الجنة تخفيفاً لقلق الموت ، وفى الوقت نفسه تعويضاً عن متاعب هذه الحياة ونقائصها . على أن إيمان هؤلاء بأن الموت خير رهن بإيمانهم بحياة أخرى يتحقق فيها من العدل والنعيم ما لم يواتهم فى الحياة الدنيا. يقول مراهق (١٧ سنة) :

« الموت خير لمن عمل صالحاً، لأنه سوف يلقى ربه الذى سيدخله جنات النعيم، وشر لمن عمل شرا ، لأنه سوف ينال من العذاب قسطاً كبيراً . »

التعلق بالخلود بعد الموت (على أى صورة كان ذلك الخلود، فى السماء أو فى الأرض) ينعكس على المستقبل. ولكن المراهق لا يقنع بالانتظار ، فهو يبغى ضاماً حالياً ، ولذلك لا ينى عن تبرير الموت على نحو فلسفى — أو بالأحرى جدلى — وهو إذ يفعل ذلك إنما يغالب « قلق الموت » ونوازع التمرد على مسبِّبه ، أى الله . يقول مراهق :

« الموت خير للمريض الذى استعصى عليه الدواء، والأعمى . . . »

ويبرره آخر « بكونه أمراً لامناص منه للبقاء، إذ لا بد من موت كائنات كى تحيا أخرى ». وبذلك يستخلص من الموت معنى الحياة، ويجعل الحياة رهناً به ، وبتعبير آخر إنه لا يرتضى الموت إلا لأنه ينطوى على الحياة والبقاء، وفى ذلك اعتراف ضمنى باستنكار الموت .

ونحب هنا أن نشير إلى ملاحظة جديرة بالتسجيل: عندما كان فهم الطفل

للموت فهماً ذاتياً لا يستند إلى الواقع ، ومخاوفه بخصوصه مخاوف طفلية لا سند لها من ذلك الواقع (أى تخييلات) كانت محاولاته التحرر منها محاولة فى نفس المستوى، أى تخييلاً أيضاً (تصور العودة بعد الرحيل ، الشفاء بعد المرض ، الدفن مع الأم ، العودة إلى الرحم ... إلخ .) . أما وقت أصبحت فكرة الموت عقيدة راسخة ، فلا يفيد فى تخفيف « قلق الموت » تخييل من التخييلات (أى توهم النجاة منه على أية صورة من الصور) ، ولا يكفل ذلك غير عقيدة أو مذهب فى نفس المستوى (عقيدة الخلود) أو مذهب التناسخ . . . إلخ . فكل تطور يطرأ على تصور المرء للموت يصحبه تطور يطرأ على محاولاته التخفف من قلق الموت .

وإذا لم يكن المراهق فى شغل عن خاطر الموت بالنشاط الواقعى والتعامل الاجتماعى ، فهو معرض لقلق الموت ؛ وإن لم يكن قد وجد بعد — وهو على هذه الحال — عقيدة أو أية وسيلة أخرى لتخفيف القلق فهو نهب للاكتئاب والتشاؤم ، أو عرضة للنقمة والتمرد ، وبخاصة على خالق الكون إن كان يؤمن به .

يقول شاب فى الحادية والعشرين من عمره تنتابه نوبات التشكك منذ أن توفى أبوه .

« منذ تسعة سنين تقريباً (سن ١٢) اعترانى تفكير غريب من الوجهة الدينية ، وكنت لا أعتقد بوجود إله عادل يحكم بين الناس ، وإنما وُجدت هذه القوة لكى تصيب الناس فى معاشهم ، وتفسد عليهم سعادتهم . فأحضرت والدتى أستاذاً لكى يرشدنى إلى الطريق القويم فى الدين . ولكننى كنت أمضى هذه الدروس فى مناقشات حادة ومنها أننى سألته يوماً : "إنك تقول إن الله يعلم كل شىء قبل حدوثه فلِم يُدخلنا النار وهو عالم بما سنرتكبه من شر وكان فى إمكانه أن يبعدنا عن الشر . لم يتركنا نفعل الشر ثم يعاقبنا ؟ ألم أقل لك إن ربك هذا ظالم ؟ سلبنى والدى وسيسلب سعادتى وسيسلبك حياتك" . »

وكتب مراهق آخر :

« كل دقة من دقات الساعة كأنما تقول لنا إننا اقتربنا من الموت خطوة . »

وترك ثالث ورقة على مكتبه مكتوباً عليها عبارة « تاغور » ، شاعر الهند :

« لقد حانت ساعتى ، وأصبحت حياتى كقطرة الندى المترقرقة على زهرة اللوتس تهتز خافتة فى طيات الفضاء . »

ولم يكن هذا الأخير مريضاً .. ولم يكن فى خطر .. وإنما هو تشاؤم التأملات الفلسفية .. وهموم الشباب .. تُجسِّم له الموت قوة طاغية ، تهدد الوجود بالفناء فى كل لحظة ، وتشعره بالعجز واللاشيئية ، إزاء قدر حتم ، ومصير لا يبالى بإرادة أحد .

تمنى الموت

تحدثنا عن تبرير المراهقين للموت تبريراً فلسفياً ، كيما يسهل عليهم مواجهته وارتضاؤه من حيث هو حقيقة واقعية مرة . وهؤلاء إذ يقولون إن الموت خير أو ضرورة ، إنما يخفون إنكارهم له ، وضيقهم به ، وخوفهم من أن يكون الخاتمة النهائية لوجودهم الشخصى . وهم بهذه المحاولة الجاهدة (العكسية) ، إنما يؤكدون تعلقهم بهذه الحياة ، وأملهم أن تطول بهم . ونستطيع أن نعبر عن ارتضائهم الظاهرى للموت بلغة التحليل النفسى فنقول : إننا بصدد « تكوين عكسى » Reaction Formation . وقد لا يقف الأمر عند حد الاعتقاد ، بل يتجاوزه إلى سلوك المراهق فيندفع فى مغامرات خطيرة تهدده بالموت ، كأن يتطوع فى الحرب راضياً دون أن يخدعنا ذلك عن حقيقة نفسه . إنه حينئذ يكون كمن يستعجل الموت ، فمواجهته خير من توقعه فى كل لحظة . إن امرؤا هذا شأنه يقتحم غمار الموت تخلصاً من القلق الذى يساوره بخصوصه ، والخير كل الخير أن يكون ذلك الاقتحام باسم مبدء يسعى بكل كيانه إلى تحقيقه وتخليده ، لأنه إذ يفعل ذلك إنما يحقق ذاته ، ويخلِّد نفسه على نحو ما ، ولكنه دائماً أبداً يصدر عن قلق أكيد من الموت .

وثم من المراهقين فئة يتملكها الصراع ، ويتغلب خوفها من الحياة على خوفها

من الموت حتى لتصبح الحياة عبئاً ثقيلا، لا لِما تحمله من مصائب خارجية، ولكن لصراع نفسى يعجز المرء عن عركه. هؤلاء يحلمون بالموت باعتباره السبيل الوحيد للخلاص. والموت لديهم قد يستحيل – كلما ازداد الصراع واشتد الخوف من الحياة – إلى حلم عذب من حيث هو إفناء حاسم للنفس، أى من حيث هو نهاية أبدية لا تعقبها حياة أخرى أيا كان نعيمها، لأن النعيم الحق هو انتهاء متاعبهم فى هذه الحياة. وكثيراً ما يعرب المراهق صراحة عن تلك الرغبة، ويحدث ذلك غالباً فى الشطر الأخير من المراهقة حين يمتزج العمق فى التفكير بالعمق فى الشعور بالمأساة الإنسانية.

يقول مراهق (١٩ سنة).

« إننى دائم التفكير فى الموت وأتمنى لو أموت وأنا صغير قبل أن أتحمل متاعب الدنيا وهمومها ».

وسئلت فتاه فى الثامنة عشر هل تؤمن بالجنة والنار، فأجابت:

« طبعاً وأظن أن الحياة هى النار والموت هو الجنة »! وسئلت عن رأيها فى الموت فقالت: « هو الجنة بعد نار الحياة ». هذه الفتاة لا يعنيها جنة الخلد بقدر ما يعنيها الخلاص من هذه الحياة.

على أن الألفاظ ينبغى ألا تخدعنا بحيث إذا قال قائل إنه يروم الموت سلكناه ضمن الفئة المشار إليها، فقد يكون قوله مجرد تعبير عن رغبة متأصلة فى توثيق صلاته العاطفية بالأحياء، وأوضح مثل لذلك ما قاله شاب فى سن التاسعة عشرة عن الموت:

« بدأت أفكر فى الموت بعد مرور أيام اللهو والطفولة، وعند ما بدأت أفهم المستقبل. والحادثة التى جعلتنى أفكر فى الموت، هى تلك السنة التى رسبت فيها فى امتحان السنة الثانية الثانوية، حينما أخذت أفكر فى الراسبين الذين ينتحرون بسبب رسوبهم تخيلت نفسى واحداً من هؤلاء، وتصورت الجنازة ومن خلفها

أصدقائي وأهلي يبكون ويتحدثون عني وعن طيبتي وأخلاقي . . . »

أمثال هذا المراهق كثيرون ممن هم فى أشد الحاجة إلى عطف الناس وتقديرهم ، ويلذ لهم إرضاء لهذه الحاجة (الطفلية) أن يجترّوا تخييلات من ذلك القبيل . وإن مشهد وفاة الشخص كثيراً ما يكون محوراً تدور حوله أحلام اليقظة ، فيتصور نفسه مريضاً يحوطه جميع الأصدقاء والأهل وكل من يتطلع إلى عطفهم ، وعلى وجوههم علامات الجزع والتلهف ؛ أو مصاباً فى حادث فتهرع إليه فتاة يحبها ، أو صديق يخلص له الود ، فيحمله بين ذراعيه . . ثم يمضى فى أحلامه هذه مصوراً نفسه يلفظ الأنفاس الأخيرة والجميع يبكون.. ويتقدم الجثمان جموع غفيرة كل يبكى وينتحب . ولا ينسى الحالم أن يشرك فى تشييع الجنازة فتاة أحلامه .

هؤلاء جميعاً لا يعتقدون – فى حقيقة الأمر – بأن الموت خير ، وإنما ارتضاؤهم الظاهرى له من قبيل التخييل الذى يتحقق لهم فيه أعز ما يطمحون إليه من أمانى دنيوية . فتمنى الموت عند هذا الصنف يستتر وراء تعلق بالحياة .

وإنما تمنى الموت الذى نتحدث عنه شىء آخر : هو اعتقاد راسخ بأنه خير ، اعتقاد تأصل فى نفس الشاب بعد أن عجز عن أن يجد مقاماً فى الحياة الواقعية ولذلك فهو لا يتردد – إن هو عجز عن الانتحار – أن يموت على نحو آخر ، أعنى أن يعتزل الحياة ويهرع إلى ركن قصى (فى دير ، أو فى غفوة مرض عقلى) . أما إن تماسك ، فلم ينتحر ولم يترهبن ولم يجن ، فهو لا ينى عن التأمل الفلسفى فى الموت ، تأملا يزينه له ، بل ويزينه للناس حتى ليراه أملا بعيد المنال والغاية التى لا مطمح بعدها لشىء آخر . وخير تصوير لذلك ما كتبه إلىّ شاب فيلسوف مر بأزمات نفسية عنيفة كانت خليقة أن تدفعه إلى الانتحار . بيد أنه يغالب عوامل الفناء فى نفسه ، فيكرس حياته للفكر والتأمل – كتب إلىّ رسالة صغيرة تحت عنوان « فتنة الموت » أقتطف منها ما يلى :

« بى رغبة أن أبدد هذه الحفنة من الوجود الأرضى ، فأحلم ببلاد نائية . . فيها الشمس.. ويغمرها فى المساء ظلام ندىّ شفاف .. وأشجار معطرة تدفن تحت

سماء قاسية لا تكشف عن سر . . وصحار رحبة يغمرها نور الغروب الظليل . . وطرقات متوحدات تنتهي إلى الليل الصافى . . وصباح دفىء ملول تسمع فيه بوضوح صمت الأشياء الرازح وغمغمتها المتعثرة . . بى رغبة أن أصير كل الأشياء ، أن أغدو الحلم الذى تنطوى عليه كل الكائنات . . عرفت فتنة الانتحار . . .

أذكر سويعات قضيتها فى جيرة البحر ذات صباح مشرق فى الصيف ، والبحر بللورى رجراج يشع منه لون الزمرد . . . والشاطئ ينبسط يمنة ويسرة ، وتضطرب عليه بقع من الألوان لا تنفك تتحرك . . . ثم صمت الأشياء وهذا البحر الشفاف . . ونور الشمس الذى يغمره . . والصخور الضخمة التى ألقيت فى البحر فكستها الطحالب الخضراء المخملية . . وهذه الأشرعة الناصعة التى تزجيها الريح الهينة إلى الأفق وكأنها تتخطاه إلى عالم ناء . . كل هذا وعد بالسعادة .

وكانت فى نفسى يقظة الترقب . . ترقب ماذا ؟ . . لم أكن أعرف . ولكننى كنت كمن ينتظر أن يحل بقلبه يقين طاغ . أى يقين ؟ . . ذاك ما جهلته . وأدركت أنها رغبة متناقضة : كنت أنتظر أن ينكشف لى فى الكون ما يخرجنى عن الكون . أكنت أرتقب الله ؟ . . قد أكون ساعياً وراء السراب شأن هذه الأشرعة التى تخرج إلى عالم آخر ، فنحن قد لا نتخطى العالم ما دمنا فيه . . وإنما هى دوائر من نور تتوالى أمام ناظرينا ، وتحصرنا ، ولكنا نحس أحياناً أنا غير نائين من قلب الكون ، وأن نقاب الوهم قد رفع إلى حين . فى هذه اللحظة . . والبحر الرحيب . والسماء الحارة . . وهذا الفراغ . . كلها وعد بالسعادة .

إذ ذاك بدأت أفهم الفيلسوف الذى خوض فى البحر حتى طواه فلم يؤب إلى الشاطىء قط . ولكن ذلك كان فى نورماندى ، والبحر بين مد وجزر . والفيلسوف يريد أن يجرب ربه . أما هنا فالبحر لا يخرج عن استوائه ، والله ليس موجوداً . ووجود الإنسان ليس إشكالا إلا بقدر رفضه هذا النداء الذى ينبعث من قلب الكون ويدعونا إلى الفناء . والإنسان فى هذا الرفض يثبت ذاته ، وينفصل عن الكون فى آن . وها هى ذى الدعوة تأتى من بعيد : تلاش . وما هى إلا خطوات أخطوها

إلى قلب البحر تجاه الأفق النائى فينتهى كل شىء ، الكون وأنا . . فهما يغفوان ويتيقظان سوياً .وماذا بعد الموت؟ . . قد لا يكون ثمة «بعد» . وهذا لا يمنع قلب المرء أن يختلج بنشوة هذه الفتنة التى تجعله يتشهى الموت كما يتشهى الحب . فالموت ليس إشكالاً ،ولكنه مغامرة، مغامرة لن يجد فيها الفكر ، لأنها المجهول . ترى هل أجسر ؟ .. أأتحمل هذه السعادة وحدى ؟ . »

ولعل التفسير لهذه الظاهرة ، تمنى الموت ، يوافينا لو لجأنا إلى التحليل النفسى إذ يربط فى اللاشعور بين الموت وبين الرغبة الدفينة فى الانسحاب من الواقع ، والعودة إلى حياة الرحم حيث «الليل الصافى وصباح دفء ملول ، تسمع فيه بوضوح صمت الأشياء الرازح وغمغمتها المتعثرة» ، وإذ يكشف عن الصلة العميقة بين الاتجاه الصوفى (الذى يجعل المرء يسعى إلى الفناء عن وجوده الجزئى والاتحاد بالكون) وبين الحب الذى لم يجد غايته ، « وما هى إلا خطوات أخطوها إلى قلب البحر تجاه الأفق النائى فينتهى كل شىء ، الكون وأنا ، فهما يغفوان ويتيقظان سوياً . وماذا بعد الموت؟ قد لا يكون ثمة (بعد) . هذا لا يمنع قلب المرء أن يختلج بنشوة هذه الفتنة التى تجعله يتشهى الموت كما يتشهى الحب . »

الفصل الحادى عشر

تصنيف الاتجاهات الدينية

نتائج الاستفتاء

بفحص أجوبة الاستفتاء تبين لى أن المراهقين يمكن تصنيفهم حسب الاتجاه الدينى الذى يغلب عليهم إلى فئات أربع : فئة يلتزمون قواعد الدين كما انتقل إليهم من البيئة التى نشأتهم دون ميل ظاهر إلى مناقشتها أو معارضتها ، أو حتى أخذها مأخذاً تظهر فيه شخصيتهم. فأنت لا تطالع فى أجوبة هؤلاء شخصياتهم ، وإنما تجد موقفاً سلبياً من الدين ، أى أن كلا منهم إنما هو متقبل للدين العام ، وهذه هى فئة المؤمنين إيماناً تقليدياً . والفئة الثانية تختلف عن الأولى فى أخذها الدين مأخذاً أكثر جدية ، تتبدى فيه محاولة المراهق محاولة شخصية دعم الدين وتبريره وتسويده على أى اتجاه مضاد . وذلك موقف إيجابى يتجاوز حدود التقبل أو التقليد ، وهذه هى فئة المتحمسين للدين . والفئة الثالثة تختلف عن الأولى فى أنها لا تقف فى الدين التقليدى موقف الاستسلام السلبى ، وتتفق مع الثانية فى إبراز شخصيتها إزاء الدين ولكن فى اتجاه نقدى . فأفراد هذه الفئة يأخذون الدين مأخذاً جدياً ولكنهم لم يقروا الدين إقراراً تاماً ، كما أنهم لم ينكروه إنكاراً باتاً ، وإنما وقفوا بين ذلك . أو هم يقرونه ، ولكن الشكوك تتسرب إلى إيمانهم . وهذه هى فئة المتشككين . والفئة الرابعة والأخيرة هى فئة المنكرين لله إنكاراً واضحاً . وموقف هؤلاء يختلف عن موقف الفئة الأولى فى تحررهم من الاستسلام والسلبية . ويتفق مع الفئة الثانية فى الحسم ، ولكنه حسم مضاد . فالفئة الثانية مؤمنة غاية الإيمان ، والرابعة منكرة كل الإنكار .

ولو وضعنا الفئات الأربع على التوالى مبتدئين بالإيمان التقليدى (السلبى)

فالحماس فالشك ومنتهين بالإلحاد، لوجدنا أننا نبتعد بالتدريج عن الدين التقليدى .

فالحماس – ولو أنه إمعان فى الإيمان – بيد أنه يتميز بطابع شخصى إيجابى ، وينطوى على نزوع إلى التحرر من النمطية وإلى التأويل الحر للدين. والشك يبعدنا أكثر ، والإلحاد تحرر تام . وفيمايلى جدول توزيع فئات الاتجاهات الدينية ، وقد استخلصناه من أجوبة المراهقين على استفتائنا . ونظرة سريعة تبين لنا تناقص عدد الأفراد تبعاً للبعد عن الاتجاه الدينى . ويتبين من النسب المئوية على وجه الخصوص أن ثمة تمشياً موجباً بين اتجاهات البنين الدينية واتجاهات البنات الدينية .

جدول رقم (١)

التوزيع التكرارى للاتجاهات الدينية المختلفة على المراهقين والمراهقات مع بيان النسب المئوية لكل فئة

الاتجاهات الدينية	بنين		بنات	
	عدد	نسبة	عدد	نسبة
إيمان تقليدى	٥٠	٪ ٥٠	٤٣	٪٦١,٥
حماس	٢٥	٪ ٢٥	١٨	٪٢٥,٨
شك	٢٤	٪ ٢٤	٩	٪١٢,٨
إلحاد	١	٪ ١	—	—
مجموع	١٠٠	٪ ١٠٠	٧٠	٪ ١٠٠

يتبين من الجدول أن المراهقات أقل ميلاً من البنين إلى التحرر من الدين، وأكثر منهم سلبية. فنسبة الشك بين البنين ٢٤ ٪ ولكنها تهبط لدى البنات إلى ١٢,٨ ٪ ولا نجد إلحاداً على الإطلاق لدى البنات فى حين نجد ١ ٪ لدى

البنين. هذا ونجد أن نسبة الإيمان التقليدى بين البنات تفوقها لدى البنين بفرق يبلغ ١٠,٥ ٪ .

وذلك أمر يسهل تفسيره ، وهو أمر طبيعى فى مصر على وجه الخصوص حيث ضرورات التربية تقضى على الفتاة أن تكون أكثر رضوخاً للتقاليد من الفتى ، وحيث أسلوب البيئة فى تربيتها يحتم عليها أن تكون أقل قدرة على التحرر من العرف أو التمرد على الوضع القائم .ولسنا بغافلين عن طبيعة التكوين النفسى للفتاة ، إذ هى أكثر شعوراً بالنقص ، وأقل شعوراً بالأمن ، ومن ثمة أكثر تشبثاً من الفتى بالقيم والأوضاع الاجتماعية القائمة. وذلك قد يفسر لنا الزيادة الطفيفة فى نسبة الحماس الدينى لدى البنات عنها لدى البنين .

جدول رقم (٢)

يبين النسب المئوية للاتجاهات الدينية عند كل من المسلمين والمسيحيين من المراهقين

الاتجاهات الدينية	مسلمون		مسيحيون	
	عدد	نسبة	عدد	نسبة
إيمان تقليدى	٦٢	٤٧ ٪	٣١	٨١,٦ ٪
حماس	٣٦	٢٧,٣٪	٧	١٨,٤ ٪
شك	٣٣	٢٥٪	—	—
إلحاد	١	١ ٪	—	—
المجموع	١٣٢	١٠٠ ٪	٣٨	٠٠ ٪

يبين لنا هذا الجدول : (أولاً) الظاهرة نفسها التى لحظناها فى الجدول السابق ، أى التنازل التدريجى فى عدد أفراد الفئات تبعاً لبعدها عن حرفية

الدين . ينطبق هذا المبدأ على المسلمين انطباقه على المسيحيين . وواضح أن بين التوزيعين ارتباطاً موجباً .

ثانياً : يتفق المراهقون المسلمون والمسيحيون فى غلبة التدين التقليدى (السلبى) عليهم . ولكن ذلك يكون بدرجة أقل لدى الأولين ، فهم أكثر قابلية للتحرر من حرفية الدين ، فبينما نسبة التدين التقليدى بين المسيحيين ٨١,٦ ٪ فلا تتجاوز ٤٧ ٪ لدى المسلمين . وفى نفس الوقت نجد نسبة التعمق الشخصى فى التدين (الحماس) عند المسلمين أعلى بكثير منها عند المسيحيين ، ٢٧,٣ ٪ عند الأولين وتقابلها ١٨,٤ ٪ عند الأخيرين . وفضلا عن ذلك تتلاشى بين المسيحيين نزعات التشكك والإلحاد . ومعنى ذلك أن المراهقين المسيحيين أميل إلى الوقوف عند حرفية دينهم من المسلمين ، وأبعد منهم عن التطرف سواء فى اتجاه الإنكار أو فى اتجاه التصوف. وتفسير ذلك أن الأسرة المسيحية أكثر كلفاً من الأسرة المسلمة بتنشئة أطفالها تنشئة دينية منذ سن باكرة ، وأكثر قلقاً عليهم بهذا الخصوص. وفضلا عن ذلك فالأسرة المسيحية (فى الأوضاع الثقافية المصرية) أكثر مراعاة للعادات والطقوس الدينية . وللتقاليد المسيحية قوة ضاغطة على الأطفال المسيحيين تفوق ما للتقاليد الإسلامية من قوة ضاغطة على أقرانهم المسلمين . وبتعبير آخر – التقاليد الدينية أكثر تدخلاً فى حياة النشء المسيحى اليومية (زيارات القسس للمنزل ، الجمعيات المتعددة . إلخ . . .) ، وصلة المسيحى بالسلطة الدينية (الكنيسة) أكثر من صلة المسلم بالسلطة الدينية ، فثم مراسم التعميد ، والتناول ، والزواج ؛ وثم الاعتراف ، ومدارس الأحد ، إلخ . . .

يبين لنا الجدول (رقم ٢) أنه على الرغم من أن التغير فى الاتجاه الدينى يستتبع حتماً تغيراً مقابلاً فى العدد ، سواء لدى المراهقين المسلمين أو المسيحيين ، فإن المسلمين أكثر استجابة للتغيرات الدينية من المسيحيين . فأى اتجاه من الاتجاهات الدينية لا بد أن يمثله نفر من المسلمين ، فى حين أن بعض الاتجاهات الدينية قد لا يمثلها أحد من المسيحيين على الإطلاق ، إذ لا أثر

للمتشككين أو الملحدين فى المجموعة المسيحية التى درسناها .

وذلك يجعلنى أضع فرضاً لا سبيل إلى تحقيقه الآن ، إذ يحتاج الأمر إلى دراسة مجموعة كبيرة من مراهقى الدينين ، ذلك هو أن الديانة الإسلامية (أو — على الأقل — طبيعة التربية عند المسلمين) أكثر إتاحة لفرص التغير الدينى والتطور الاعتقادى أمام الفرد من الديانة المسيحية (أو من طبيعة التربية عند المسيحيين) . وقد نصوغ الفرض على نحو آخر فنقول إن الديانة الإسلامية (أو التربية عند المسلمين) تنطوى على قدر أكبر من المرونة التى تجعل الفرد يهتدى — من وقت إلى آخر — إلى ثغرات ينفذ من خلالها إلى آفاق أخرى .

ونعيد القول إن ذلك مجرد فرض لا سبيل إلى تحقيقه إلا بعد دراسة عميقة لطبيعة الديانتين ، وعلى الخصوص من حيث آثارهما النفسية فى الفرد ، وبعد التمييز بين العوامل التى ترجع إلى الدين ذاته ، وتلك التى ترجع إلى التربية ، وتلك التى ترجع إلى نظام الهيئة الاجتماعية التى تكتنف الجميع . فمن المحقق أن الفصل بين الدين وبين المتدين ، أو بين الدين وبين الهيئة التى تدين به ومالها من تقاليد وما تصطنعه من أساليب فى تربية النشء ، أمر متعذر .

وينبغى ألا نغفل هنا عن حقيقة هامة ، هى أن الاستناد إلى الدين قد لا يكون استناداً إلى الدين فى ذاته (أى بوصفه عقيدة معينة أو نظاماً بعينه) ، ولكن من حيث هو أساس للتنظيم الاجتماعى . فعلى الرغم من أن العقيدة الإسلامية أو المسيحية هى هى لا تتغير فى أى بقعة من بقاع الأرض، إلا أن الجموع التى تدين بها يختلف أخذهم لها باختلاف الأوضاع الثقافية والنظم الاجتماعية التى ينتمون إليها . مثال ذلك أن المسلم الهندى — ولو أنه يدين بنفس العقائد الإسلامية التى يدين بها المسلم المصرى — إلا أن طريقة تمسكه بالدين قد تختلف عن طريقة تمسك الأخير به ، وإحساسه بقيمة الدين لحياته كمواطن فى بلد شاسع يضم أغلبية من الأديان الأخرى لا بد أنه يختلف عن إحساس المسلم المصرى . وكذلك الحال لو قارنا الكاثوليكى المصرى بالكاثوليكى فى روما ، فللإحساس الاجتماعى

والطبقى والوطنى أثر جسيم فى تشكيل شعور المرء نحو دينه، وفى تعيين مدى حاجته إليه، وأسلوب تمسكه به. إن الشعور الدينى لا يمكن أن نفصله من هذه الأمور جميعاً. وإنه لخطأ جسيم أن نعزل الشعور الدينى للفرد عن شعوره نحو المجتمع الذى يعتبر نفسه فرداً فيه — فمن الأفراد من يحس أن المجتمع الذى ينتمى إليه إنما هو الملة الدينية، ومنهم من يحس أن مجتمعه الحق إنما هو الوطن بصرف النظر عن ملته، ومنهم من يعتبر صلته بالوطن أمراً عارضاً فى حين أن الصلة الحقة هى صلته بالكنيسة التى تضم أناساً من مختلف الأوطان، ومنهم من يعتبر المجتمع الذى ينتمى إليه مجتمعاً أرحب من هذا وذاك، أعنى الإنسانية جمعاء بصرف النظر عن اختلاف الملل والأجناس والأوطان. وإن الاختلاف بين هؤلاء وأولئك فى إحساسهم الاجتماعى لراجع إلى عوامل ثقافية واجتماعية خارجة عن الأفراد، وعوامل أخرى فى الأفراد أنفسهم أهمها — فضلاً عن العوامل التربوية — مستوى المرء العقلى، ومدى استيعابه للغذاء الثقافى الذى تخلف عن الماضى، والذى تمخضت عنه المدنيات الحديثة.

ونحن نرجح (على افتراض أن ما يصدق على الفئة المسيحية الصغيرة التى درسناها يصدق على المسيحيين المصريين جميعاً) أن يكون من عوامل نزوع الأخيرين إلى الاحتفاظ باتجاههم الدينى التقليدى كما غرسته البيئة فيهم ارتفاع درجة إحساسهم الملى الناجم عن إحساسهم بأنهم أقلية فى مجتمع أغلبه من دين آخر، ذلك الإحساس الذى يزيد حاجتهم إلى التساند والتماسك، وليس أنجع من التقاليد الدينية وسيلة لتحقيق ذلك. ويؤيد فرضى هذا ما صرح لى به بعض الواعين من الشباب المسيحى الذى تحرر من القيود الدينية، وأخذ بقسط من الإحساس العالمى جعله ينظر إلى مشكلة الفروق الدينية نظرة المحايد، من أن كثيراً من الأطفال والفتية المسيحيين يضيقون أشد الضيق بالقيود الدينية التقليدية، وقد يعلنون تمردهم عليها، ويصرحون ببغضهم لرجال الدين، ولكن يستحيل على الفرد منهم مع ذلك أن يتخلص من شعوره الملى (أى شعوره بأنه فرد ينتمى إلى هيئة اجتماعية معينة هى هيئة المسيحيين).

ونجد نفس الأمر بين بعض الشباب المسلم ، إذ قد يثور على بعض التقاليد الدينية ، بل قد يسخر علانية من عقائد دينه ، بيد أنه ـ فى مستوى الحياة العملية الاجتماعية ـ لا يطيق من أحد (خاصة إن كان من دين آخر) أن يمس الإسلام أو المسلمين تصريحاً أو تلميحاً . ذلك أنه إن كان قد تحرر من صلته بدينه ، فهو لا قبل له بالتحرر من روابطه العاطفية بأهل دينه .

والخلاصة أن الإحساس الملى (أى الإحساس بالانتماء إلى أهل ملة معينة) هو فى لبه إحساس اجتماعى صميم ، وليس شعوراً دينياً خالصاً . وعندى أن مشكلة التعصب الدينى ينبغى أن تُلتمس فى ذلك الإحساس الاجتماعى الذى ليس إلا نتيجة عوامل انفعالية صرفة من أثر التربية الأولى . فالتعصب الدينى يشتد ويتراخى تبعاً لازدياد الإحساس الملى وتراخيه . وهذا يذكرنا بما سبق أن استخلصناه عند دراستنا للشعور الدينى والإحساس الجمعى فى الطفولة المتأخرة ، من أن للدين وظيفة الربط الانفعالى بين أفراد المجتمع الواحد ، وأن هذه الوظيفة تبدأ فعلها منذ سن باكرة ، ولكن إحساس الفرد بضرورة الدين للتكيف والتماسك الاجتماعيين لا تظهر إلا فى أخريات أيام الطفولة . فإذا ما تحقق للفرد الاندماج فى المجتمع ، واستقرت علاقاته به على أساس الأمن والثقة بنفسه وبالناس ، لم تعد به حاجة كبرى إلى الإحساس الملى . أما إن ازداد إحساسه الملى عن حد معقول ، فذلك أمارة على افتقاره إلى الأمن ووقوفه عند مرحلة طفلية من التطور الاجتماعى . وقد يزداد ذلك الإحساس الذى يهدف أصلا إلى التكيف الاجتماعى ، فيصير عقبة كأداء فى سبيل التكيف الاجتماعى . وتلك فى نظرى ظاهرة مرضية هى أقرب ما يكون إلى « البارانويا » الاجتماعية ، ونحن نلمسها لدى كثير من أفراد الأديان جميعاً ولا سبيل إلى حلها إلا بعد فهم كامل لطبيعتها : كيف تنشأ وكيف تتطور . فالفهم العلمى السليم ، ثم اصطناع أسلوب فى التربية يقوم على أساس ذلك الفهم هو السبيل الوحيد إلى حل هذه المشكلة الاجتماعية المستعصية .

وفيما يلي جدول يبين توزيع الاتجاهات الدينية على نحو أكثر تفصيلاً من الجدول السابق ، إذ نبين فيه نسب البنين والبنات فى كل من المجموعتين (المسلمين والمسيحيين) .

جدول رقم (٣)

توزيع تفصيلى للاتجاهات الدينية على فئات البنين والبنات من المسلمين والمسيحيين على نحو تفصيلى

الاتجاهات الدينية	مسلمون				مسيحيون			
	بنين		بنات		بنين		بنات	
	عدد	نسبة	عدد	نسبة	عدد	نسبة	عدد	نسبة
		٪		٪		٪		٪
إيمان تقليدى	٤١	٤٦,١	٢١	٤٨,٨	٩	٨١,٨	٢٢	٨١,٥
حماس	٢٣	٢٥,٨	١٣	٣٠,٢	٢	١٨,٢	٥	١٨,٥
شك	٢٤	٢٧	٩	٢١	—	—	—	—
إلحاد	١	١,١	—	—	—	—	—	—
المجموع	٨٩	١٠٠	٤٣	١٠٠	١١	١٠٠	٢٧	١٠٠

وقد عمدت إلى تصوير هذا التوزيع تصويراً محسوساً ليتضح الفرق بين الفئات المختلفةمن مجرد المعاينة بالبصر ، وذلك فى أشكال بيانية خمسة : الأربعة الأولى كل منها خاص بأحد الاتجاهات الدينية والخامس يضم الجميع . وكل شكل عبارة عن مساحة تمثل المجموع العام للأفراد على اختلاف اتجاهاتهم الدينية ، والارتفاع مدرَّج بالنسب المئوية حتى المائة ، كل ملليمتر مربع يمثل واحداً فى المائة من المجموع . وقُسِّمت قاعدة المساحة أربعة أقسام كل قسم منها يمثل

فئة من الفئات الأربعة ، فتكون كل فئة ممثّلة بمستطيل قاعدته سنتيمتر واحد وارتفاعه عشرة .

أما الشكل الأول فخاص بتوزيع الاتجاه الأول (الإيمان التقليدى)، ونقرأه على النحو التالى : المساحة السوداء يشغلها المؤمنون إيماناً تقليدياً، والفراغ يمثل بقية أفراد الاتجاهات الأخرى. فالبنين المسلمون يمثلهم المستطيل الأول إلى الشمال، والجزء الأسود منه حتى ارتفاع ٤٦ ملليمتر تقريباً يمثل نسبة المؤمنين منهم إيماناً تقليدياً ٤٦ ٪ ، وبقية الارتفاع ومقداره ٥٤ ملليمتر تقريباً أى ٥٤ ٪ ويشغله أصحاب الاتجاهات الأخرى .

والشكل الثانى (المستطيلات المنقطة) ترمز إلى نسبة اتجاه الحماس .

والشكل الثالث فيه مستطيلان فقط مملوءان بعلامة (×) ويرمزان إلى نسبة الشك .

أما الشكل الرابع ففيه مساحة ضئيلة مخططة خطوطاً أفقية ارتفاعها ملليمتر واحد ، وتمثل نسبة الإلحاد ، وتكشف فى وضوح ضآلتها بالنسبة لبقية نسب الاتجاهات الأخرى .

والشكل الخامس يضم الأشكال الأربعة السالفة الذكر ويتيح لنا فرصة طيبة للمقارنة .

• • •

نخلص من فحص هذا التوزيع إلى النتائج التالية عدا النتائج التى استخلصناها من الجدولين الأول والثانى :

أولاً : ضآلة الفرق بين الجنسين فى مجموعة المسيحيين بالقياس إلى الفرق بينهما فى مجموعة المسلمين . مثال ذلك أن الفرق فى فئة المؤمنين إيماناً تقليدياً بين البنين المسيحيين والبنات المسيحيات لا يتجاوز ٠,٣ ٪ فى حين أنه يرتفع إلى ٢,٧ ٪ بين المسلمين والمسلمات .

ثانياً : يتفق البنين والبنات فى مجموعة المسيحيين فى انعدام الشك والإلحاد

بينهم. وهذه النتيجة تؤيد ما ذهبنا إليه من أن المسيحيين المراهقين عامة أقرب إلى التزام التقليد الدينى من أقرانهم المسلمين ، الأمر الذى يفسر تركز الحالات عند نقط متقاربة حتى كادت تتلاشى الفروق الجنسية من حيث الاتجاهات الدينية .

ثالثاً : تتفق المسلمات والمسيحيات المراهقات فى كونهن أميل من أقرانهن البنين إلى التمسك بحرفية التقليد الدينى. بيد أن المسلمات أقل من المسيحيات استسلاماً للتقليد الدينى ، وآية ذلك أن ٢١ ٪ من المسلمات يدخلن فى فئة المتشككين ، وتقابل هذه النسبة لدى المسيحيات صفر ٪. و بتعبير آخر ، إذا اتفقت المراهقات المسلمات والمسيحيات فى التفوق على أقرانهن من المراهقين فى الرضوخ للدين التقليدى ، فإن المسلمات أقل من المسيحيات رضوخاً وسلبية .

رابعاً : نستخلص من النتيجتين الأولى والثانية نتيجة ثالثة تتعلق بمجموعة المسيحيين . تلك هى أن تركز البنين والبنات فى فئتين فقط ينم عن كون المسيحيين أقرب إلى التجانس الدينى الذى ليس إلا مظهراً للتماسك الاجتماعى . وذلك يؤيد ما سبق أن رأيناه من أن التشبث بالاتجاه الدينى التقليدى عند المسيحيين يرجع إلى كونه رابطة اجتماعية هامة .

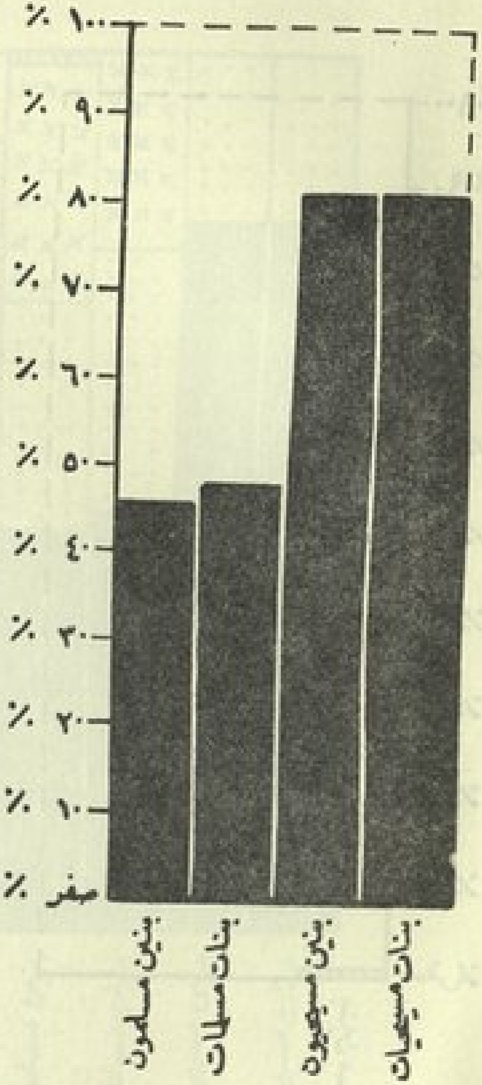

(الشكل الأول)

يبين توزيع الاتجاه التقليدى فى التدين

على الفئات الأربعة

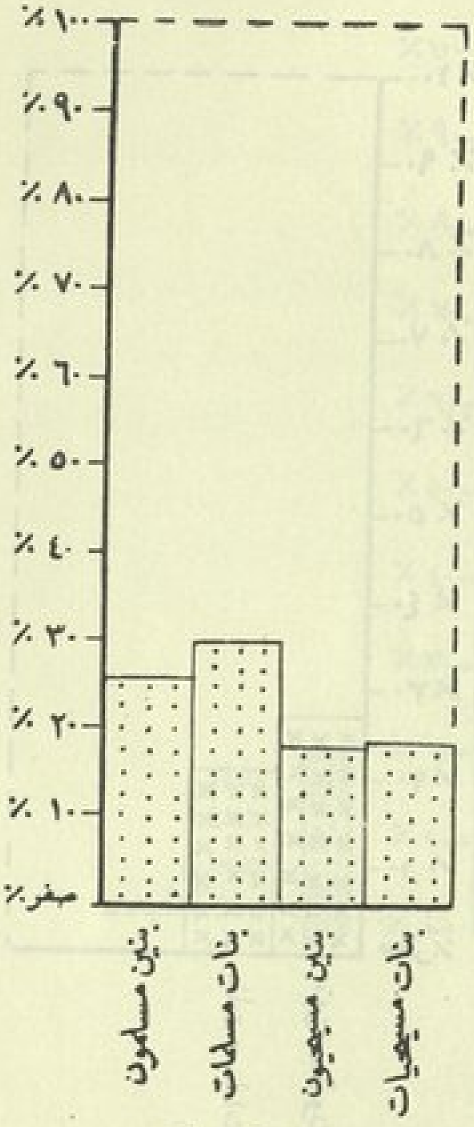

(الشكل الثانى)

يبين توزيع الحماس الدينى

على الفئات الأربعة

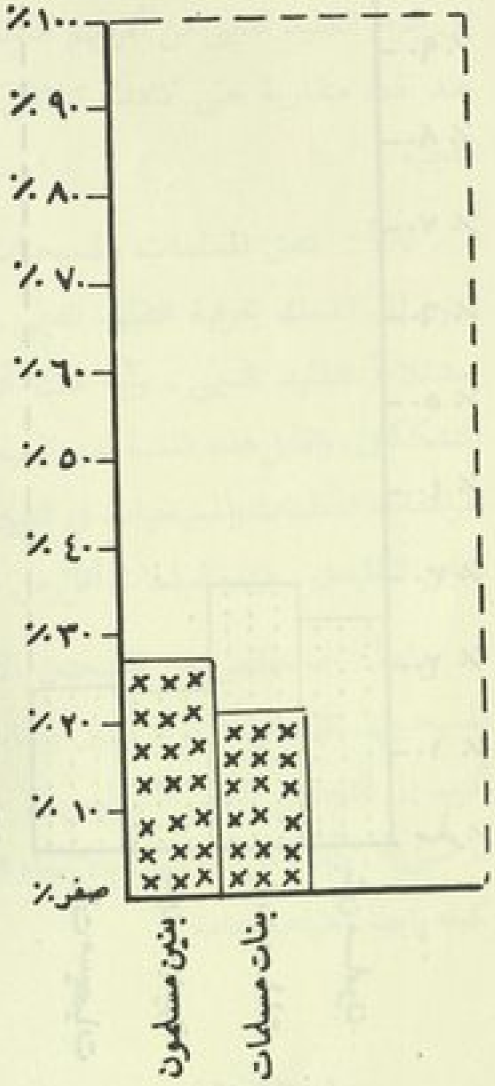

(الشكل الثالث)

يبين توزيع الشك
على الفئات الأربعة

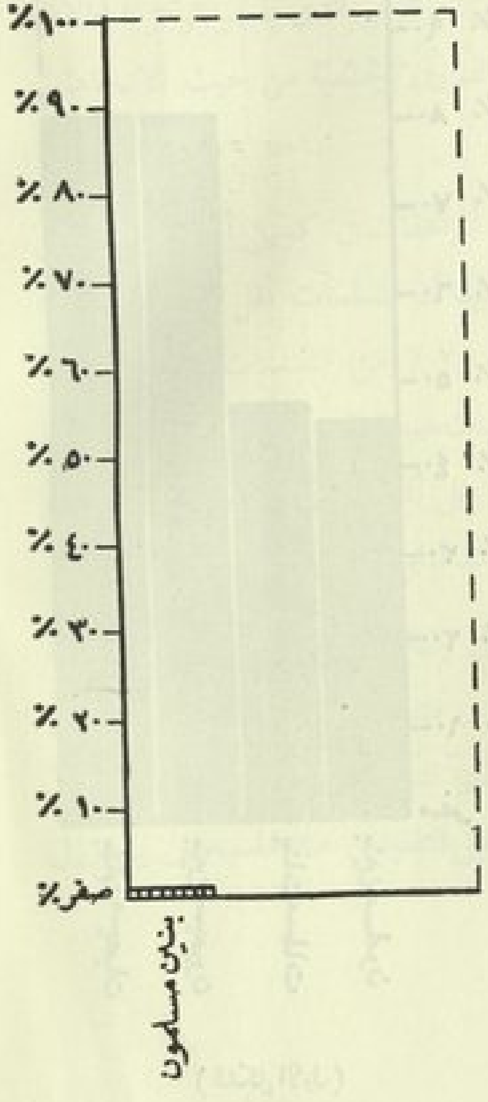

(الشكل الرابع)

يبين توزيع الإلحاد
على الفئات الأربعة

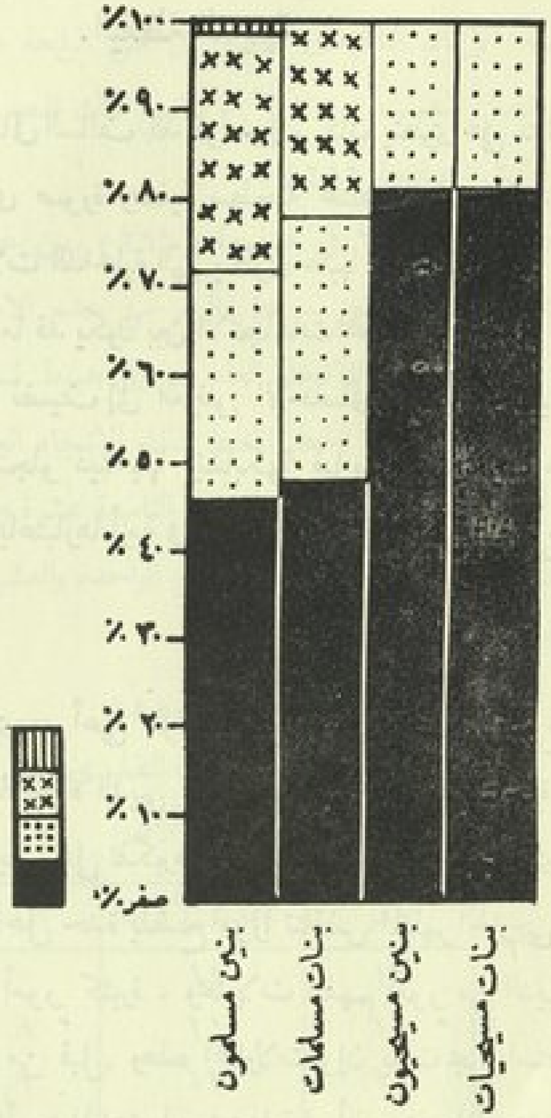

(الشكل الخامس)

توزيع الاتجاهات الدينية الأربعة

اليقظة الدينية

إن العرض الإحصائى السالف الذكر — وإن كان ينطوى على نتائج بينة — إلا أنه لا يوفر لنا سوى صورة وصفية سطحية لمختلف الاتجاهات الدينية ، ولا يكشف عن التفاعلات الداخلية التى ينطوى عليها كل اتجاه منها ، كما أنه لا يكفل لنا الوقوف على ما قد يكون بين الاتجاهات المختلفة من تفاعل وتداخل . وذلك يقضى علينا أن نضيف إلى العرض الإحصائى عرضا تحليلياً لمختلف الاتجاهات الدينية ، لنجلو ديناميتها وتشابكها فيما بينها ، ولنعرف مكانها من الصورة العامة للمراهقة باعتبارها أزمة فى سياق النمو تنفرج عن النضوج .

الإيمان التقليدى

أما الإيمان التقليدى ، أعنى الوقوف من الدين موقف الرضوخ السلبى الهادئ فهو استمرار للاتجاه الدينى الذى يسود فى الطفولة المتأخرة . ويبدو أفراد هذه الفئة وكأن لم يطرأ على تفكيرهم الدينى أو مشاعرهم الدينية أى تغيير ، ولكن تحليل كل حالة على حدة يفضح أموراً تناقض المظهر الخارجى : فلابد أن ثم تساؤلا صامتا عن أمور كثيرة ، ومحاولات لتفهم أمور من الدين لم يكن يهم المرء أن يقف عليها من قبل. وهذه المحاولات وإن بدت مجرد استطلاع إلا أنه استطلاع يخفى شكوكاً يود المراهق لو بددها قبل أن يستفحل أمرها ، وينطوى على تقدم فى سبيل فهم الدين فهماً شخصيا . وغالباً ما لا يدوم ذلك الإيمان التقليدى إلا ريثما تضطرم أزمة المراهقة ، وحينئذ إما أن يعنف فيصير حماسا ، أو يرتد فيصير تشككا صريحاً أو إلحادا .

والدليل على أن الإيمان التقليدى امتداد للدين فى الطفولة المتأخرة أننا وجدنا بين المراهقين قبل سن ١٤ نسبة ليست بالقليلة (١٥ ٪) من المؤمنين إيمانا تقليدياً ، فى حين لم نجد شكا ما على الإطلاق قبل هذه السن . وبينما نجد فى سن

الخامسة عشرة ١١ ٪ من فئة الإيمان التقليدى، لا نجد غير ٣ ٪ فقط من الشكاك، وتتزايد نسبة الإيمان التقليدى فتصير فى سن الرابعة عشرة ١٥ ٪ وبعد ذلك بعام واحد تصل السمت ٣٣,٤ ٪ . ويتضح ذلك تفصيلا من الجدول (رقم ٤) والجدول رقم ٦ (صفحة ٢٨٦) .

والشكل البيانى رقم ٦ فى صفحة (٢٦٦) يبين علاقة العمر الزمنى بنسبة الإيمان التقليدى ومنه يتبين – على الرغم من عدم الاطراد، وبخاصة فى الفترة الأولى من المراهقة – أن الاتجاه العام هو إلى هبوط نسبة الإيمان التقليدى مع التقدم فى العمر . ويبين الخط المنقط ذلك الاتجاه العام إلى الهبوط الشديد ، ونلاحظ أن الهبوط يشتد جدا حوالى سن التاسعة عشرة وهى سن النضج العقلى ، وأن الإيمان التقليدى يكاد ينعدم بعد سن الواحدة والعشرين . والشكل (رقم ٨) فى صفحة ٢٨٧ خاص بالشك .

جدول رقم (٤)
يبين توزيع الإيمان التقليدى حسب
العمر الزمنى

العمر	عدد الأفراد	النسبة ٪
١٤	١٤	١٥
١٥	١١	١١,٨
١٦	١٢	١٢,٩
١٧	٩	٩,٧
١٨	١٤	١٥
١٩	١٨	١٩,٣
٢٠	٩	٩,٧
٢١	٥	٥,٤
٢٢	صفر	صفر
٢٣	١	١
المجموع	٩٣	١٠٠

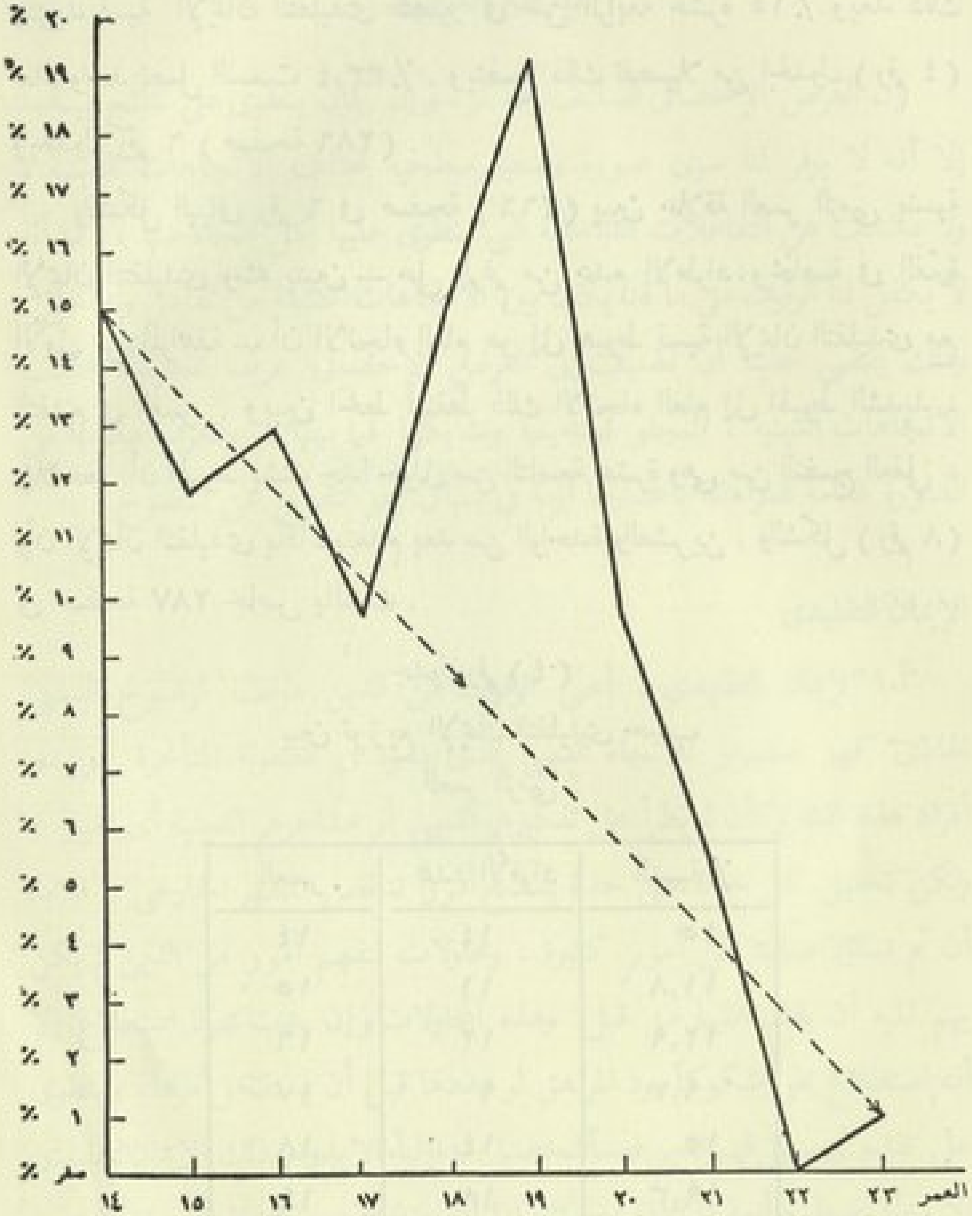

(الشكل السادس)

رسم بيانى لتطور نسبة المؤمنين إيماناً تقليدياً مع التقدم فى العمر . لاحظ الهبوط الفجائى المستمر بعد سن ١٩

يسود الإيمان التقليدى لدى من لم تصادفهم خبرة مؤلمة فى تربيتهم الدينية فى الطفولة ، ومن لم تعرض لهم بعد فى مراهقتهم خبرات هى من القوة بحيث تهز كيانهم النفسى وتصيب بالاضطراب التيار الطبيعى الهادىء لشعورهم الدينى . فالواحد من هؤلاء يبقى شعوره الدينى ماضيا الهوينى فى نفس الاتجاه الطفلى حتى يصادفه من الحوادث ما يثير تأملاته أويبعث ذكريات قديمة طفلية ، أو حتى تتسع مداركه ومعارفه فيدفعه كل ذلك إلى مراجعة موقفه من الدين . وعليه فليس من السهل أن نفصل بين الإيمان التقليدى وبين الحماس والشك فصلا حاسما ، فالفرق فى حقيقة الأمر فرق فى الدرجة فحسب .

إن الطابع العام للشعور الدينى فى المراهقة هو اليقظة ، وذلك ما سنشرحه فيما يلى :

يجلب البلوغ تغيرات وتقلبات فسيولوجية عنيفة مصحوبة بتغيرات ثانوية تطرأ على مختلف أعضاء الجسم التى تنمو — فى بادىء الأمر — على نحو يخلو من التناسب والتوازن . هذا الاضطراب الجسمى يوجه انتباه المراهق إلى جسمه ، ويساوره القلق ، ويصحب ذلك تبدل يطرأ على حياته الوجدانية : انفعالات عنيفة متقلبة من ضيق (لم يعهده من قبل) بوالديه ، ونقمة عليهما ، إلى خوف من الاستقلال والانفصال عنهما ؛ رغبات جنسية تلهب إحساسه بالذنب وتملأه جزعا ، تخيلات متطرفة ، وأمانى مستجدة . وهكذا يجد المراهق نفسه بصدد عالم جديد مفعم بالمشاعر المتضاربة والانفعالات المصطرعة والعواطف العنيفة والأفكار الجديدة ، عالم يجتذب المراهق إلى داخلية نفسه يتأملها بعد أن كان فى الطفولة المتأخرة موزع الانتباه فى اكتشاف جنبات العالم الخارجى . وذلك التنبه إلى الذات من أخص مميزات المراهقة ، وهو المسئول عن النزعة الرومانسية التى تتملك المراهقين عادة . والمراهق حالما يكتشف ذاته ، يحس غرابتها وشذوذها عن المجتمع ، فينطوى على نفسه أو يندفع فى غمار الحياة الاجتماعية من وقت إلى آخر هربا من نفسه .

ولاتكاد أزمة المراهق تبلغ أوجها حوالى السادسة عشرة تقريبا حتى تكون

مقدرات المراهق قد تفتحت، وذكاؤه كاد يبلغ نهاية مستواه، واهتماماته كادت تتحدد، وقدرته على التجريد والتصور المعنوى conceptualization قد بدأت تأخذ مكانها من حياته العقلية فتحرره - بعض الشيء - من قيود الحس. ويكون المراهق إلى جانب ذلك قد ازداد علما بالعالم بما درس من علوم وفنون، وما خبر من تجارب اجتماعية.

هذه العوامل العقلية والوجدانية تستتبع تضخم الاهتمام بالذات (اهتماما نرجسيا) والتطلع إلى توكيدها، وتتضافر مع النضج الجنسى على إحداث ثورة عامة فى الشخصية، يقظة عامة وتفتح شامل لجميع القوى النفسية - من حب استطلاع يرتاد ميادين عدة منها الفلسفة واللاهوت والإنسانيات، إلى نشاط اجتماعى قد يكون خدمة اجتماعية أو كفاحا وطنيا. وقد يأخذ هذا التفتح صورة منحرفة كالانخراط فى نشاط عصابات إجرامية، وقد يأخذ شكل يقظة دينية تختلف عن الاهتمام الدينى لدى الطفل بشحنة انفعالية مضطربة وبصيرة أكثر نفاذا وروح تأملية فضلا عما قد تثيره من نشاط عملى يتفق والطابع العام لشخصية المراهق. واليقظة الدينية اتجاهات رئيسية ثلاثة: الحماس الدينى، والشك، والنزوع إلى الإلحاد. وفيما يلى تفصيل القول فى كل اتجاه على حدة.

(أولا) الحماس الدينى

الحماس الدينى أول مظاهر اليقظة الدينية. فالنمو الجديد يدفع المراهق إلى مراجعة موقفه (لا شعوريا) من العالم بالإجمال، ومن الدين بوجه خاص. إنه ينظر إلى دين الطفولة نظرة جديدة، إذ لم تعد معتقدات الطفولة لترضى حاجاته المتجددة، ولم يعد الرضوخ للتقليد الدينى بحرفيته والتزام واجباته المعهودة ليشبع نهمة الناشىء للانطلاق والتطلع إلى آفاق روحية جديدة. ومن هنا قلنا إن الحماس الدينى يختلف عن الاتجاه الدينى التقليدى. فما هو تسليما أعمى، ولاهو انقيادا

سلبيا للعقيدة تمحى فيه الذاتية ، بل هو —على العكس من ذلك— تقرير للذاتية عن طريق الدين الذى يصبح ميدانا هاما للتعبير الذاتى . وتلك صورة للدين تختلف عن صورته التقليدية الفاترة .

ومن الجدول (رقم ٥) والشكل البيانى (رقم ٧) ، يتبين أن الحماس الدينى لا يبرز بوضوح قبل سن السادسة عشرة ، وأنه يبلغ أقصاه فيما بين السابعة عشرة والثامنة عشرة . يتبين أيضاً أنه لا يسير مع العمر باطراد بل يعلو ويهبط ، ويعقب كل علو رد فعل مفاجىء . وهكذا يتضح بيانيا وبالأرقام أن الحماس من مظاهر اليقظة الدينية فى المراهقة ومن دلائل عدم الاستقرار النفسى فيها .

جدول رقم (٥)

يبين توزيع الحماس الدينى على الأعمار

العمر	عدد الحالات	النسبة
١٤	٣	٪٧
١٥	٢	٪٤,٦
١٦	٢	٪٤,٦
١٧	١٠	٪٢٣,٢
١٨	٧	٪١٦,٢
١٩	٥	٪١١,٦
٢٠	٦	٪١٣,٧
٢١	١	٪ ٢,٣
٢٢	٤	٪ ٩,٣
٢٣	٣	٪ ٧
المجموع	٤٣	٪١٠٠

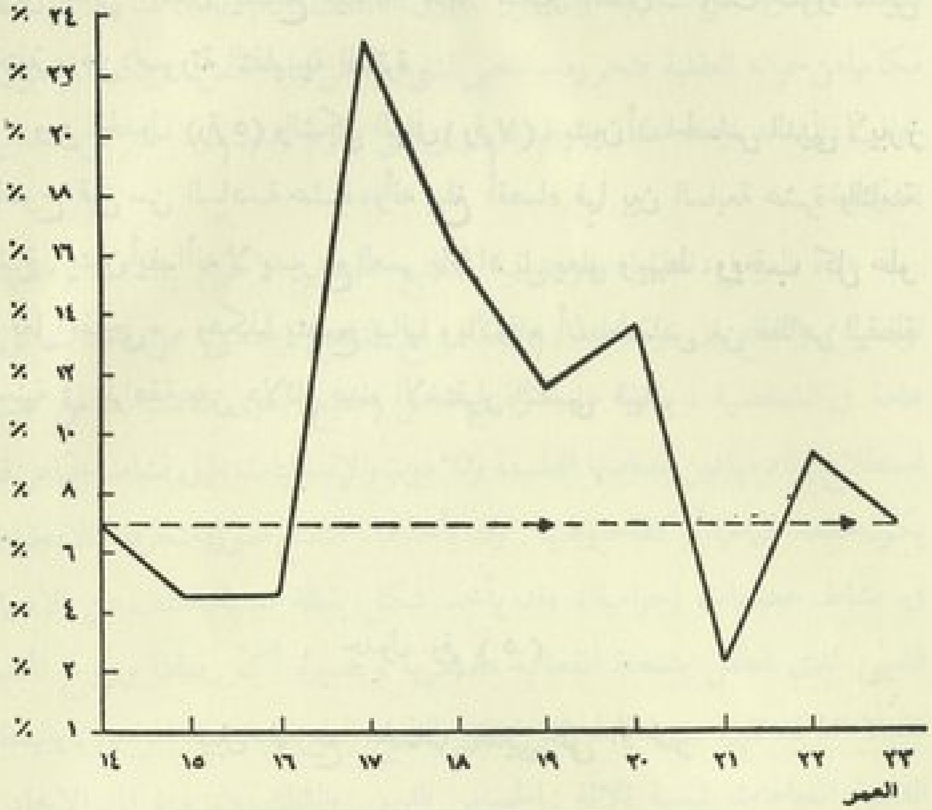

(الشكل السابع)

منحنى يبين تطور نسبة المتحمسين مع التقدم فى العمر

وللحماس الديني مظهران :

١ – الحماس الإيجابي :

مصحوب بالتحرر من بعض البدع والخرافات التي تشوب الدين ، والإقلاع عن التصور الحسي لبعض الموضوعات الدينية (كالجنة والنار ، والملائكة والشياطين) وفهمهما فهماً معنوياً صرفاً ، والثورة على بعض التقاليد المرعية – فهو حماس يظاهره ويبتعثه هذا التحرر من الحواشي الخرافية للدين ، وتؤيده النظرة النقدية، وكلاهما يزيد من اطمئنان المراهق المفكر إلى دينه، إذ يصبح بفضل هذه الصورة الجديدة مرضياً لحاجاته التقدمية ومن ثمة يكون حماسه .

إن موقف المتحمس تحمساً إيجابيا هو موقف المجدد الديني الذي يهدف إلى تنقية الدين من الشوائب ، وتحريره من الجمود والركود . فكأن المراهق المؤمن ، حرصاً على إيمانه ، يرى حتما عليه أن يطور الدين حتى يساير تطوره الخاص . أى أن حرصه على الدين إنما هو فى حقيقة الأمر حرص على اتزانه النفسي وإيمانه الذاتي . وطالما المراهق المتحمس بصدد عملية تطوير للدين، فهو قد يجور على كثير من التفاصيل التي كان يراعيها فيما مضى . وبذلك لا يكون موقفه قاصراً على التجديد الديني ، بل يتضمن قدراً من التمرد على الدين التقليدي وعلى من يمثله من الناس . ومن هنا كان الهجوم يشنه على رجال الدين لجمودهم أو نفاقهم ، وكان النقد اللاذع والسخرية بهم ، وكان الجدال معهم ومع المدرسين والأقران المتزمتين فى مختلف مشاكل الدين : هل الإنسان مسير أم مخير ؟.. والإسراء والمعراج، أهو بالروح أم بالجسد ؟ والثواب والعقاب أهو حسي أم معنوي؟.. ولا يألو مثل هذا المراهق جهداً فى حشد ما يؤيد الدين من أدلة عقلية وعلمية ، كما يفعل فلاسفة الدين أو علماء الكلام .

إن كان المتحمس تحمسا إيجابيا ذا شخصية انبساطية Extravert ، اندفع إلى نشاط خارجى اجتماعى يتسم بنزعة الإصلاح وتحدوه المثالية الدينية . من ذلك النشاط — الخدمات الاجتماعية باسم الدين ، والخدمات الدينية الصرفة ، وغير ذلك من ألوان النشاط الدينى الذى تغلب عليه الروح الاجتماعية ، وهى لا تختلف عن ضروب النشاط العادية (كالخدمة الاجتماعية ، الكفاح الوطنى والعصابات) إلا من حيث المظهر الخارجى لا من حيث الدوافع اللاشعورية الأصلية .

هذا الضرب الاجتماعى من الحماس الدينى قد يسير جنبا إلى جنب مع نزعة التسامح الدينى ، بمعنى أن هذا الفهم السمح للدين ، والمرونة فى التأويل ، لا يعوقان المراهق عن التوافق مع أهل الأديان الأخرى . وهذه فتاة مسيحية فى الرابعة عشرة من عمرها تعلن عن حيرتها من الخلافات المستعرة بين العقيدة الأرثوذكسية والعقيدة البروتستنتية ، وترى وجوب تدريس الإنجيل للمسلمين والقرآن للمسيحيين ، « ليعرف كل منهما الحقيقة الدينية ويعيش فى طريق الحق والحياة . » وذاك فتى مسلم فى الثامنة عشرة من عمره ، عضو عامل فى جمعية دينية إسلامية ذات نشاط واسع ، ولا يمنعه ذلك من مصادقة أقران مسيحيين ، بل إنه يسهم فعلا فى النشاط الثقافى لجمعية مسيحية بقسط وافر .

بل إن أقصى درجات التحمس الدينى ، أعنى التصوف ، قد تنطوى على إغفال تام للإحساس بالفروق المِلّية الدينية ، وتغلّبٍ حاسم لشعور الحب والوفاق مع الإنسانية بأسرها .

هذا يذكرنا بابن عربى المتصوف المسلم الذى ينشد — إذ هو فى أشد حالات الوجد والفناء فى الله والاتحاد بذاته — شعرا يدل على اختفاء الإحساس بالفروق الدينية :

لقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبى ... إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبى قابلاً كل صورة ... فرعىً لغزلان ، وديرٌ لرهبان
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ ... وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآن

أدين بدين الحب أنّى توجهتْ ركائبُه فالحب ديني وإيماني

ذلك من حيث التسامح ، أما من حيث النشاط الاجتماعي العام فيكفي لتصوره أن نطالع ما سجله المراهق السالف الذكر في مفكرته في أحد الأسابيع ، إذ نراه يقبل على قراءات في الأدب الحديث .. ويرتاد دور السينما أربع مرات .. ويطالع روايتين من روايات الجيب .. ويصوم يوم الخميس .. ويلقي في جمعية ثقافية تضم أعضاء من أديان وجنسيات مختلفة بحثا عن كهربة خزان أسوان في حين أن الفلسفة دراسته الأصلية . كل ذلك النشاط المبعثر المتغاير في طبيعته ، يتم في أسبوع واحد ، وهو مظهر بيّن لعدم الاكتفاء الذاتي ، والنزوع إلى الانطلاق ، وما النشاط إلا وسيلة لتحقيق ذلك الانطلاق ، ومنفذا طبيا للطاقة النفسية الهائلة .

هذا الاتجاه الديني لا يعطل القوى الإنتاجية ، ولا يعرقل تكيف المراهق لمختلف البيئات والاتجاهات . وما دام يرضي المطالب المتجددة ، فليس ما يمنع أن يكون عونا على النمو والنضج ، كما أنه وسيلة ناجحة لإعلاء ميول المراهق الغريزية ، ومن ثمة يكون بمثابة صمام الأمان الذي يجنب المراهق الانحلال الأخلاقي أو الانهيار النفسي (الذي يسببه عنف القمع والخذلان المتصل للدوافع النفسية) . وقد عرفنا كثيرا من الشبان الراشدين هجروا الدين ولكن حماسهم الديني الإيجابي طوال مراهقتهم كان خير عون لهم على تجاوز أزمة المراهقة بمنجاة من الانحلال الأخلاقي أو الانهيار النفسي ، وكأن الدين قد انتهت مهمته بانتهاء فترة المراهقة فاتجه هؤلاء الشبان وجهة أخرى .

وقد أسلفنا أن ذلك الاتجاه ينطوي على نزعة نقدية ، وميل إلى التمرد على السلطة ، وهذان قد يذكيهما النمو فيسيطران على جانب التقوى رويدا رويدا حتى يتحول المراهق في النهاية إلى متشكك أو ملحد . وليس ذلك بغريب أو متناقض لأن الحماس الإيجابي – كما أسلفنا – يحمل صاحبه على تطوير الدين كيما يماشي تطوره الخاص ، وحيث أن تطوره يمضي على نحو متصل ، فقد يأتي وقت لا يستطيع عنده أن يجعل الدين يسايره ، وحينئذ يقصر الدين عن إرضاء

حاجاته المتجددة . ولكن ليس معنى ذلك أن كل متحمس تحمسا من ذلك الضرب يتحول حتما إلى اتجاه الشك أو الإلحاد ، فقد يبقى التطور العقلى سائرا على نحو لا شطط فيه . وقد يفلح المراهق فى محاولة التوفيق بين الدين والعقل حتى يهتدى إلى مذهب يرضى المطالب العقلية المتمردة ، مذهب يكون من ثمة بمثابة صمام أمن يحول دون الانقلاب الدينى . ولكن لا ينبغى أن ننسى أن الحماس الإيجابى نفسه إنما هو انقلاب دينى فى حياة المراهق ، هو ضرب من الاهتداء الدينى conversion . وعلى الرغم من أنه ليس تحولا عن دين إلى دين آخر ، أو عن النزعة اللادينية إلى النزعة الدينية ، فهو اهتداء إلى الدين نفسه فى ضوء جديد لم يكن يغمره من قبل .

وقد يتخذ الحماس صورة مغايرة لدى الشخص الانطوائى Introvert — ذلك الشخص يهتدى بدوره إلى الدين فى ضوئه الجديد الباهر ، ولا يرضى به فى صورته التقليدية ، ولا يقبل الرضوخ السلبي لقواعده التى يرعاها عامة الناس. بيد أنه يعجز بحكم تكوينه النفسى عن الخروج بإيمانه الجديد إلى مسرح الحياة الخارجية شأن المتحمس الانبساطى . إنه يكتفى بإيمانه وحده ويقنع بحياة دينية داخلية يتحقق له فيها نوع من الأمن الخيالى ، والدفء فى ارتباطه بالله ، والسلامة فى انصرافه عن الدنيا وتفاديه الخوض فى علاقات ومغامرات اجتماعية . وذلك الاتجاه هرب من الواقع ، وتعويض خيالى عن الضعف والخوف ، أو هو ضرب من التصوف الزائف. والمراهق يروض نفسه حتى ليرتضى هذا الأسلوب فى الحياة ، وقد يجد فيه سلام النفس لأنه قد نجح فى الكبت ، وقد تغلب عليه الكآبة والإحساس بأن الحياة مأساة ، فيغرق فى أحلام اليقظة والصلوات المستمرة وكلها تنتزعه من العالم الواقعى .

هذا التحمس السلبي بشقيه ، المتفائل والمتشائم ، يقابله فى تاريخ الدين التصوف. والتصوف كما نعلم اتجاهان : متفائل هو زهد مع الحب ، ومتشائم هو زهد مع الخوف . ويمثل الاتجاه الأول فى التصوف الإسلامى «رابعة العدوية» ، ويمثل الثانى «الحسن البصرى» . ولا شك أن هذا التصوف الانطوائى مظهر من مظاهر الخوف من مواجهة الحياة.

إنه إنكار للواقع ، وعجز عن حل الصراعات النفسية حلاً واقعيا ؛ في حين أن الحماس الانبساطي أكثر نضجا ، لأنه يواجه الواقع بأساليب — ولو أنها دينية — إلا أنها ليست انسحابية أو هروبية . ونضيف هنا أن الحماس الانطوائي بشقيه — شأن الحماس الانبساطي — لا يتعارض ضرورة مع روح التسامح أو النزعة الإنسانية ، بل إن حب الناس جميعاً قد يكون أمارة من أماراته لدى المراهقين ، وحينئذ يكون مظهرا من مظاهر عدم التقيد بالدين التقليدى الخاص .

٢ — حماس خرافى :

قد يكون المراهق ذا عقلية بدائية طفلية ، يفكر تفكيرا سحريا (ذلك الذى توجهه عقيدة القدرة المطلقة للأفكار والرغبات) وذا نزعة وسواسية ، فيتطير من بعض الأفعال والرموز التى تنذر بسوء الطالع ويتوسل إلى تحقيق أغراضه — لا بالعمل الواقعى — ولكن بالسحر ، وتكون الطقوس والعبادات وسيلة (أشبه ما تكون بالسحر) لاسترضاء الله ، ومنع أذاه ، وضمان التوفيق فى مسعاه .

إن شخصية — هذا شأنها — بعقليتها الخرافية تلك ، يناسبها الدين لا من حيث هو عقائد وأفكار معينة ، بل من حيث الحواشى الخرافية والبدع (الجن والشياطين وكرامات الأولياء والآيات التى تحجب الشر وتحقق المسعى) . مثل ذلك المراهق يجد راحة نفسية كبرى فى الركون إلى الدين ، ويحتفى حفاوة بالغة بما نسج حوله من خرافات ترضى مطالب عقليته البدائية ، وبما قد يتضمنه من محاظير وقيود (تابو) تشبع حاجته إلى الضبط وتعذيب الذات ، وتلطف مخاوفه ، وبما يفرضه من طقوس وعبادات قد يضيف هو إليها من عندياته ويغالى فى تأديتها إرضاء للنزعة الوسواسية obsessional المتغلغلة فى نفسه .

وهذا مراهق يعمل بحارا على إحدى السفن ، وهو يعتقد اعتقادا راسخا بالعفاريت ، ويؤكد أنه شاهدها « بعينى رأسه » فى رحلاته البحرية ، ويؤمن بالحسد ويتوقاه بمختلف السبل من أحجبة وأدعية . . . إلخ ، ويوقن بالجن ،

ويواظب على زيارة الأضرحة والقديسين ، ويكثر من التفكير فى الموت وبخاصة وقد قضى ردحا من حياته بحارا إبان الحرب . وثم فى حياة هذا المراهق دليل على أن الحماس الدينى الذى يطرأ فى المراهقة إنما هو ضرب من الاهتداء conversion— ذلك أنه نشأ فى أسرة لا تحفل بالدين ،ولا تضم متدينا واحدا فضلا عن جهله بدروس الدين فى المدارس . غير أن هذا المراهق عندما اهتدى ، اهتدى طبقا لعقليته ووَفق تكوينه النفسى ،فلم يتجه اتجاها إيجابيا فى حماسه، ولكنه اتجه اتجاها خرافيا .

هذا وقد عرضتْ لى أمثلة من هذا القبيل إبان عملى مشرفاً على القسم الداخلى بإحدى المدارس الثانوية ، ولا زلت أذكر مراهقاً بالسنة الخامسة الثانوية يقوم الليل لتحضير الأرواح ، ويدعو إلى جلساته أقرانا له بعضهم واثق فيه متحمس للتجربة بل راغب فى نجاحها (وهؤلاء قد نسلكهم فى نفس الفئة)،وبعضهم ساخر عابث به وبشعوذته .

وكما وجدنا فى الاتجاه الحماسى الأول ضربا انبساطيا وآخر انطوائيا،نجد الضربين هنا أيضا.فمن المتحمسين حماسا فى اتجاه خرافى من لا يقنع بمجرد اجترار اعتقاداته وتخييلاته السحرية فيخرج بها إلى حيز الفعل والدعوة ويتخذها وسيلة للتعامل الاجتماعى . وليس بخاف علينا ذلك النفر من المراهقين الذين يندمجون فى سلك الدعوة إلى الروحانيات،والذين تستهويهم حلقات الذكر،ويسعون إلى أخذ العهد على شيخ من مشايخ الطرق . وكثير من هؤلاء فريسة طيعة لأهل الشعوذة . ومنهم من ينطوى على نفسه،وبدلا من أن يجابه الحياة الواقعية بأسلوب عملى ينسحب إلى نفسه يحتمى بها من ضجة الحياة وتبعاتها ، ويقنع باجترار تخييلاته السحرية،ويحيط نفسه بأجواء سحرية لا تزال — إن أمعن فى وِحدته — تكثف وتكثف حتى تصير حجابا صفيقا يقضى على صلته بالواقع قضاء مبرما . وعلى الجملة — فإن الحماس الخرافى بشقيه يستحيل الدين فيه إلى سحر وتابو ، والإمعان فيه عرَض مرضى ومحاولة لحل الصراعات النفسية بأسلوب تخيلى

مخفق ، ويختلف عن الحماس الأول فى استلزامه التعصب واستبعاده الأفكار المتباينة لأفكاره . إن مزاج أصحابه تربة صالحة للاعتقادات الفاسدة ، والأفكار المتحاملة ، والآراء المتسلطة ، والتطرف فى آرائهم يجعلها أقرب إلى هذاءات البارانويا منها إلى الاعتقادات الدينية .

الحماس الدينى والدوافع الغريزية :

حاول بعض الكتاب إرجاع اليقظة الدينية فى المراهقة إلى النضوج الجنسى . والدين فى نظر هؤلاء إعلاء للغريزة الجنسية — فتقشف القديسين وكفاح المبشرين كلاهما تحويل للطاقة الجنسية إلى أهداف مثالية . والفتاة التى تترهبن وتكرس شبابها للمسيح لا يكون المسيح لديها غير بديل سماوى عن موضوع دنيوى لعاطفة حب جارف . بل إن الكاثوليك أنفسهم فى مهاجمتهم « مارتن لوثر » باعث حركة الإحياء الدينى يصدرون عن ذلك المبدأ ، إذ يردون هذه الحركة بأسرها إلى رغبة « مارتن لوثر » فى الزواج من إحدى الراهبات ، ومحاولته التحلل من قيود الرهبنة ، ومن الخضوع للكنيسة والتقاليد الكاثوليكية .

ونحن لا نريد أن نصدر عن هذا المبدإ أو ذاك ، إنما نصدر بناء عن دراستنا التجريبية ، وهذه تؤكد لنا أن انبثاق الدافع الجنسى فى المراهقة صريحاً لا خفاء فيه يُلهب الإحساس بالذنب ويقلقل المكبوت من الدوافع الجنسية الطفلية ، فيمتلىء المراهق جزعا وخوفا من أن تتحقق ، ومن ثمة يعبىء لمقاومتها كافة القوى والإجراءات اللاشعورية unconscious mechanisms . وما أن يقع على الدين حتى يجد فيه وسيلة دفاعية طيبة ضد الميول الجنسية ويهتدى إلى وسائل مجدية لتلطيف حدة الإحساس كالعبادات والطقوس — خصوصاً ما كان منها ذا طابع وسواسى (كالوضوء ، والتراتيل ، والاستغفار . . . إلخ) .

على أن القلق لا ينشأ عن تنبيه الدوافع الجنسية فحسب ، بل ينجم أيضا عن تنبيه الدوافع العدوانية — خصوصا ضد من يقضى الواجب بإخلاص الود لهم كالأب

والأم والإخوة . والمعروف أن المراهق شديد الميل إلى النضج ، والنضج هذا لا يتحقق إلا بالاستقلال الوجدانى عن السلطة الوالدية. هذا الاستقلال مثار قلق ذى شقين : جزع من الحرمان من أمن الطفولة ، وتَهيب من مجابهة مسئوليات الرجولة .

وحيث أن الرغبة فى الاستقلال عن السلطة الوالدية تنطوى على التمرد (أى على نزعة عدوانية) ، فهى مثار للإحساس بالذنب الذى ينضاف إلى ما يتولد منه عن استثارة الرغبات الجنسية . وفضلا عن ذلك فإن الرغبة فى الاستقلال تستلزم السعى إلى إيجاد موضوع جديد للحب ، الأمر الذى يزيد الإحساس بالذنب . وهكذا تتفاعل الدوافع الجنسية والعدوانية تفاعلا ديناميكيا ، فيحارب المراهق الحب إذ يحدس أنه يستند إلى الدافع الجنسى ، ويسعى إلى الإعلاء .

وقد أبدع « آندريه چيد » تصوير هذه الصلة بين الحب والحماس الدينى فى كتابه « الباب الضيق » ، الذى يحكى فيه قصة غرامه العذرى — أيام صباه — مع « إليسا » التى تغالب — برغم عنف حبها له — تيار الحب ، وتسعى جاهدة وفى قلق إلى الاحتفاظ بطهارته ، ويتبين ذلك من الحوار التالى بينها وبين الصبى « چيروم » :

چيروم : كل ما سأكونه فى مستقبلى من أجلك أنت أريده .

فتجيب عليه :

— ولكن « أنا » أيضا يا چيروم يمكن أن أتركك .

فيقول لها :

— أما أنا فلن أتركك إلى الأبد .

فهزت كتفيها قليلا تقول :

— ألا تملك من القوة ما تمشى به وحدك ؟ كل منا يجب أن يصل وحده إلى الله.

چيروم : ولكنك أنت تدلينى على الطريق .

إليسا : لِمَ تبغى أن تجد هاديا فى غير يسوع ؟

چيروم : فى الابتهال إليه أن يجمع بيننا . هوذا ما أطلبه إليه كل صباح وكل مساء.

إليسا : أقاصر أنت عن أن تفهم ما يمكن أن يكون الاتحاد فى الله ؟

جيروم : إنى لأفهم من كل قلبي ، هو التلاقى الواجد فى شيء واحد معبود ، يخيل إلىّ أنى من أجل لقائك وحده أعبد ما أراك تعبدين .

إليسا : عبادتك هذه غير طاهرة .

جيروم : لا تطلبى منى أكثر مما أفعل . إنى أهزأ بالسماء لو كنت لن ألقاك فيها .

فوضعت إليسا أصبعها على شفتيها ، وقرأت الآية : « ليكن هدفكم ملكوت الله وعدالته . »[1]

ولا يقتصر المراهق على مقاومة الدوافع الجنسية فى نفسه فحسب، بل يتعقبها — أينما كانت فى العالم الخارجي — بالحرب باسم الدين والأخلاق . وما حساسيته المرهفة لأى مخالفة جنسية فى المجتمع ، وما مثاليته الأخلاقية الفائقة إلا مظهرا لشدة إلحاح الدوافع الجنسية عليه ، وخوفه من تحققها ، أى أن مقاومته لها فى الخارج فرع عن حربه ضدها فى داخل نفسه . وقد تسمع عن مراهقين يشتركون فى عمل جماعي لإقامة دعائم الفضيلة فى المجتمع ، فيحطمون أماكن الفساد ، ويهاجمون كل ما يشتمون فيه معنى الإباحية . وكثير من مراهقى الجامعة يهاجمون الاختلاط الجنسى فى الجامعة ذاتها ، وقد يخاصمون الفتيات لغير ما ذنب جنينه . ولا زلت أذكر تلك الخلافات التى كانت تقوم من حين إلى آخر — إذ كنت أشرف على القسم الداخلى بإحدى المدارس الثانوية — بين المتحمسين دينيا وفئة من المتحررين المتمردين على التقاليد عموما . كانت الفئة الأولى لا تنى عن مهاجمة الفئة الثانية (قولا وربما اعتداء) ، والإنحاء عليها باللائمة لإيمانها بالاختلاط ، ومزاولتها الرقص الأوروبى وغير ذلك من أمور يشتم فيها الفتى المتحمس نوازع الجنس .

وقد يتجاوز أمر المراهق حد مهاجمة الأقران والجماعات ، فيوجه هجومه إلى السلطات الحاكمة لائما إياها تهاونها فى حماية الأخلاق والدين والتقاليد . وفى

(١) الترجمة العربية لنزيه الحكيم .

هذا الهجوم تمتزج على نحو بيّن الدوافع الجنسية بالدوافع العدوانية . يقول مراهق سنه ١٦ سنة و١٠ شهور :

« فى الأشهر الأخيرة كانت تعترينى أزمات بسبب إهمال الحكومة فى الشئون الدينية ، وغضها النظر عن هذه الخلاعة المتناهية ،وذلك المجون الشنيع فى أفلامنا السينمائية ، وإذاعاتنا اللاسلكية . . . إلخ » .

وثم ظاهرة سبقت الإشارة إليها عند الحديث عن تذبذب شعور المراهق نحو الله ، تلك هى كون الشعور الدينى ليس بدرجة واحدة فى جميع الأوقات ، وإنما هو أشبه شىء بنوبات من الحماس الدينى تفصل بينها فترات يخفت فيها ذلك الحماس.هذه الظاهرة تفسرها صلة الجنسية بالشعور الدينى . فلو أتيح لنا أن نحلل نوبات الحماس الدينى هذه لوجدنا وراءها نوبات من الإحساس بالذنب . نوبة الإحساس بالذنب ،أو بتعبير آخر ارتفاع « ترمومتر » الإحساس بالذنب قد ينتج عن نزوة جنسية استسلم لها المراهق ، كأن يكون قد زاول « العادة السرية » ،أو أتى فعلا محظورا ،وقد لا يكون غير عبث عادى أثار ميله الجنسى بشكل فاضح ،وإنما هى المثالية المتطرفة تزيد قابلية المراهق للإحساس بالذنب إزاء هذه الأمور .

يقول مراهق (١٨ سنة) :

« أندم ندما لا مثيل له على استهتارى (يقصد تهاونه فى تأدية الفرائض) وكثيراً ما اعترانى شعور بأنى آثم ويبعث فى نفسى حمية دينية مؤقتة مع الأسف . »

ولا يغيبن عن البال ما ينطوى عليه النشاط الدينى من سعى إلى الإعلاء. ولو تركنا المراهق يسترسل فى تأملاته الدينية لتيسر لنا أن نستشف منها محاولات لإشباع الدوافع الجنسية إشباعا تخييليا . وقد عرفت مراهقا يطالع مرات عديدة كتابا دينيا يغرق فى وصف « الحور العين والولدان المخلدين » ،وغير ذلك من متع حسية توفرها الجنة التى تحتل لذلك من تخيلات بعض المراهقين المتحمسين

مكانا قيا . وذلك مراهق مسلم (١٧ سنة) وهو من فئة المتحمسين تحمسا إيجابيا، وبعيد كل البعد عن الاتصال بالفتيات ، ومجتهد جد الاجتهاد فى دراسته يكتب فى وصف الجنة :

« أتخيل الجنة حديقة غناء فوق رابية ترامت أرجاؤها .. وسُوِّرت بأشجار الصنوبر والزيزفون .. ووقف على أبوابها ملائكة قامت على حراستها تمنع دخول الآثمين . أما أرضها فقد فرشت بالحصباء ، وانسابت فى وسطها الأنهار ، وعلى شواطئها نمت أشجار الفاكهة — فهذا تفاح وهذا عنب ، وذاك نخل ورمان ، وهناك أشجار الزيتون ذات الطلح المنضود والظل الممدود . » ولا يلبث بعد أن يرسم هذه الصورة الطبيعية الجميلة أن يرى فى أرجائها معانى الحب والجمال متحققة فى الأشجار والورود فيقول :

« فيها كل ما تشتهى ذواتا أفنان ، فيها الورد يعانق الياسمين ، وفيها الفل يضحك للقرنفل ، وفيها عيون من لجين تشخص بأحداق من الذهب ، قامت على قضب من الزبرجد — فيها كل شىء وكل شىء فيها . » ولا يلبث بعد ذلك — وقد مس الوتر الحساس — أن يفصح عن تخيلاته الجنسية (دون أن يعى أنه كان يتدرج إلى هذه الغاية بحركة خفية منذ البداية) فيمضى قائلا :

« وقد سبا لبى منظور الحور العين يخطرن بين هذه المناظر الأخاذة بالقلوب فى ثياب لم ترها عينى من قبل ، وفى قدود أسطوانية وفى خدود خلتُها بدورا فى سماء خيالى . أما نحورهن فغير معطّلات ، بل زانت عقود الجمان حولها . أما المعاصم البللورية فقد زادت جمال الإسورة جمالا وأكسبتها رونقا وبهاء . نعم تخيلتهن يخطرن فى مشية لعل النعامة قلدتها . هذه هى الجنة كما تخيلتها — نعيمها دائم وسعادتها مقيمة . »

هكذا يتخذ المراهق الجنه وسيلة لاجترار أحلام يقظة هى تعبير عن دوافع المراهق الجنسية تعبيرا إعلائيا .

وقد زودنا تاريخ التصوف بأمثلة لا حصر لها على ما للدين من قيمة فى

إعلاء الدوافع الجنسية : « محيي الدين بن عربى » ، مثلا ، تفيض قصائده بالغزل فى الذات الإلهية ، غزلا لا يقل حرارة عن الغزل فى فتاة معشوقة ، ويورد من الصور الحسية ما تزخر به قصائد العشق العادى . كل ذلك فى نفس الوقت الذى يقع فيه فى حب ابنة استاذه . وإن حالة الاتحاد بالذات الإلهية (الفناء فيها) كما يصفها أهل التصوف ، لا تختلف كثيرا عن شعور المحبين فى حالات الهيام الذى لا يصل إلى نتيجته الطبيعية النهائية ، أعنى الإشباع الجنسى . وكل الألفاظ المستخدمة فى وصف هذه الحالات مستقاة من قاموس الحب البشرى العادى ، غير أنها موجهة إلى الله « المعشوق » . وفيما يلى بعض أبيات من شعر «عمر بن الفارض» الذى لايكاد يخرج عن الصبابة والحنين والخمريات . ومعلوم أن لابن الفارض سوابق غرامية فى عالم الواقع قبل أن يهيم بالجمال الإلهى.

ينشد فى الذات الإلهية [1] :

أصلّى فأشدو حين أتلو بذكرها — وأطرب فى المحراب وهى إمامى
وبالحج إن أحرَمتُ لبيتُ باسمها — وعنها أرى الإمساكَ فطرَ صيامى
أروح بقلبٍ بالصبابة هائمٍ — وأغدو بطرفٍ بالكآبة هـام
وفى كل عضـوٍ فىّ كل صبابةٍ — إليها وشوق جاذب بزمامى
ولو بسطت جسمى رأت كل جوهر — به كل قلب فيـه كل غرام
ولما تلاقينا عشاءً وضمنا — سواءُ سبيلىْ دارهـا وخيامى
وملنا كذا شيئا عن الحى حيث لا — رقيب ولا واش بزور كلام
فرشتُ لها خدى وطاء على الثرى — فقالت لك البشرُ بلثم لثامى
فما سمحتْ نفسى بذلك غيرةً — على صونها منى لعز مرامى
وبتنا كما شاء اقتراحى على المنى — أرى الملك ملكى والزمان غلامى

وقد شُغل « بن الجوزى» بتعقب الصوفية ، وقد نقل بسنده أن « عبد الله بن الزبير » الحنفى قال :

---

(١) نقلا عن كتاب التصوف الإسلامى للدكتور زكى مبارك .

« كنت جالسا مع أبي النصر الغفوى ، وكان من المبرزين العابدين ، فنظر إلى غلام جميل فلم تزل عيناه واقعتين عليه حتى دنا منه فقال " سألتك بالله الحميد المجيد المبدىء المعيد إلا ما وقفت ! " فوقف ساعة ، فأقبل يصعد النظر اليه ويصوبه ، ثم ذهب ليمضى فقال " سألتك باللطيف الخبير السميع البصير وبمن ليس له نظير إلا وقفت ! " فوقف فأقبل عليه ينظر إليه ثم أطرق رأسه إلى الأرض ، ومضى الغلام فرفع رأسه بعد طويل وهو يبكى فقال " قد ذكرنى هذا بنظرى وجها جل عن التشبيه ، وتقدس عن التمثيل ، وتعاظم على التحديد ، والله لأجهدن نفسى فى بلوغ رضاه بمجاهدتى جميع أعدائه ، وموالاتى لأوليائه حتى أصير إلى ما أردته من نظرى إلى وجهه الكريم ، وبهائه العظيم ولوددت أنه قد أرانى وجهه وحبسنى فى النار مادامت السموات والأرض . " ثم غشى عليه . »(١)

ومن رأى « ابن الجوزى » أن أكثر المتصوفة قد سدوا على أنفسهم باب النظر إلى النساء الأجانب لبعدهم عن مصاحبتهن وامتناعهم عن مخالطتهن ، واشتغلوا بالبعد عن النكاح ، واتفقت صحبة الأحداث لهم على وجه الإرادة وقصد الزهادة . . .(٢)

فى الحماس الدينى إذن مقاومة للدوافع الجنسية ، وفيه منصرف لها عن طريق الإعلاء . ونضيف أخيرا أن الدين قد يوفر للمراهق أبطالا يوجه إليهم طاقته الوجدانية بعد انسحابها عن الأب. وعندما يوفق المراهق إلى بطل دينى يتقمص شخصيته ويؤكد بذلك ذاتيته ، يطمئن إلى الدين اطمئنانا كبيرا . ومن هنا يكون حماسه مرضيا لحاجة من أخص حاجات المراهقة ، هى عبادة الأبطال hero-worship .

---

(١) نقلا عن كتاب التصوف الإسلامى تأليف الدكتور زكى مبارك ص : ٢٣٥ – ٢٣٦ .

(٢) روضة المحبين ص ١٣٤ .

الفصل الثانى عشر

تصنيف الاتجاهات الدينية

(تابع)

ثانيا — الشك

الشك هو المظهر الثانى من مظاهر اليقظة الدينية، ويأتى فى أعقاب النضج العقلى، وتفتح ملكة النقد. ونلاحظ أن العنصر العقلى يسيطر على الشعور الدينى فى أواخر المراهقة، كما يسيطر العنصر الانفعالى فى مطلعها. ولذلك يكون المراهق فى الشطر الثانى من المراهقة أكثر قابلية للشك وخصوصا إذا كانت تربيته الدينية المبكرة تربية فرضية، أو إذا كان تقبُّله فى الطفولة للتعاليم الدينية لم يتم تلقائيا وإنما بحكم حبه لوالديه ورغبته فى إرضائهما والاحتفاظ بحبهما، وبتعبير آخر إذا كان تقبله لها بمثابة تضحية أو ضريبة قدمها من أجل الحصول على الحب.

ويختلف الشك باختلاف مزاج الفرد، وذكائه، ومعارفه، وظروفه الخاصة وعلى الجملة باختلاف شخصيته. فيتراوح بين الاهتمام النقدى العابر، وبين الارتياب الحاد فى كل عقيدة من العقائد. ومعنى ذلك أن حالة المراهق الراهنة لا تكفى لتفسير الشك. فعلى الرغم من أنه جاء فى أعقاب تقلبات المراهقة إلا أن الاستعداد له لابد من أنه كان كامنا فى النفس، وكثيرا ما نرى بوادره فى أخريات الطفولة. ومن يطلع على مذكرات الشباب، يتبين بوضوح منبت ذلك الاتجاه — والانفعالات المصاحبة لظهوره من قلق نفسى، إلى حيرة، إلى تردد، إلى كآبة قد يكون لها أثر وخيم فى قدرة الفرد الإنتاجية فترة من الزمن قد تطول أو تقصر حسب ظروف كل فرد وتاريخه النفسى.

والجدول التالى (رقم ٦) يبين علاقة الشك بالعمر . ويتبين من هذا الجدول أن الشك يكاد لايبرز قبل السابعة عشرة ، ويبلغ أقصاه فيما بين السابعة عشرة والعشرين، أى مع اليقظة الدينية. والاتجاه العام الذى يشار إليه بالخط المنقط فى الشكل البيانى (رقم ٨) هو إلى الازدياد مع العمر على خلاف مالاحظناه فى التدين التقليدى . وعدم الاطراد ملحوظ ، ولكن بدرجة أقل مما عليه الحماس . وذلك راجع — فيما أرجح — إلى أن فى الشك من العنصر العقلى قدراً غير قليل، فى حين أن الحماس أكثر خضوعاً للتقلبات الانفعالية .

جدول رقم (٦)

يبين توزيع نسب الشك على الأعمار

العمر	العدد	النسبة
١٤	—	صفر ٪
١٥	١	٣ ٪
١٦	١	٣ ٪
١٧	٥	١٥ ٪
١٨	١١	٣٣,٤ ٪
١٩	٦	١٨,٣ ٪
٢٠	٨	٢٤,٣ ٪
٢١	١	٣ ٪
المجموع	٣٣	١٠٠٪

ولا يحدث الشك نتيجة تأمل عقلى إلا فى النصف الثانى من المراهقة . أما إن حدث فى مطلع المراهقة ، فلا يكون اهتداءً عقليا ، ولكن نتيجة ظروف شخصية تفعل فعلها دون أن يعى المراهق ذلك الفعل . على أنها قد تكون فيما بعد مثار تأملات فلسفية تدعم الشك بالمنطق . ونقتطف من مذكرات شاب فى الحادية والعشرين فقرات تبين كيف وقع فى الشك قبيل المراهقة :

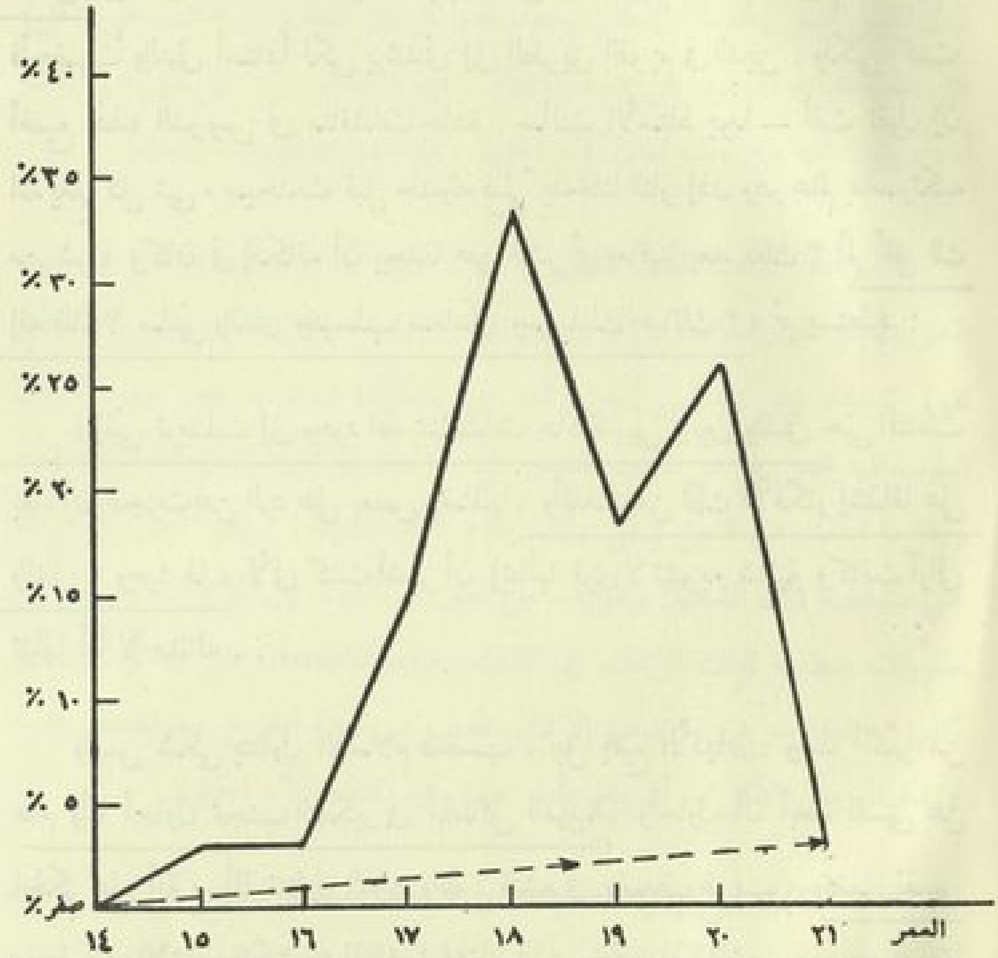

(الشكل الثامن)

منحنى تطور نسبة الشك بين المراهقين مع التقدم فى العمر

« إنى لا أفرق بين الفلسفة والدين ، فإذا كانت لى تأملات دينية ، فربما تتخللها تأملات فلسفية . أما نشأة هذه الأفكار فمنذ تسعة سنين تقريبا اعترانى تفكير غريب من الوجهة الدينية ، وكنت لا أعتقد بوجود إله عادل يحكم بين الناس ، وإنما وُجدت هذه القوة لتصيب الناس فى معاشهم ، وتفسد عليهم سعادتهم . فأحضرتْ والدتى أستاذاً لكى يرشدنى إلى الطريق القويم فى الدين . ولكنى كنت أضيع هذه الدروس فى مناقشات حادة . سألت الأستاذ يوما — أنت تقول إن الله يعلم كل شىء سيحدث قبل حدوثه فلِمَ يدخلنا النار إذن وهو عالم بما سنرتكبه من شر ، وكان فى إمكانه أن يبعدنا عن الشر ثم يعاقبنا بعد ذلك ؟ ألم أقل لك إنه ظالم ؟ سلبنى والدى وسيسلب سعادتى وسيسلبك حياتك ؟ » ثم يستطرد :

« إننى توصلت إلى وجود الله بمناقشات هادئة بينى وبين والدتى حتى اقتنعتُ بعد أن عجزت عن الرد على بعض أسئلتها . وأقلعت عن تلك الأفكار إشفاقا على والدتى ، وحبا لها ، لأنى كنت أشعر أن إيمانها قوى لا تشوبه شائبة وكانت آرائى تؤلمها ألماً لا حد له . . . . . .

وليس شكى يتناول الإسلام فحسب ، بل جميع الأديان . ومنذ أكثر من عام وأنا أحاول تجنب التفكير فى المسائل الدينية ، وأحاول أن أبعد نفسى عن الحكم على أية مسألة تتناول الدين والله . فتشعرنى بضعف غريب ، وتغمر نفسى موجة من الإيمان والخشوع لذلك الجلال الذى خلقه الله فأشعر بسرور وربما بسعادة لتوصلى إلى وجود الله . ولكن لا أدرى كيف تنتهى هذه الحالات ، أو إن شئت ، فسمها نوبات من الإيمان — على أن شكى الدائم فى الله والدين لم يكن يدفعنى إلى عدم التمسك بالأخلاق ، بل كنت عدوا للعادات السيئة محبا للفضيلة ، ولا أنظر للخطايا بعين الارتياح . وإن كنت قد ارتكبت بعض المحرمات فلقد قاسيت كثيرا من عذاب الضمير . »

ونستخلص من هذه الفقرات النتائج التالية :

١ـ أن الشك قد ينبعث فى سن باكرة عن كارثة تُفقد المراهق الشعور بالأمن، كما تفقده الثقة فى سيادة الخير فى العالم، ومن ثمة تزلزل ثقته بعدالة الله. وإن شكاً من ذلك القبيل ليس إلحاداً أو إنكارا لوجود الله، بل هو نقمة (أو عتب على الأقل) على الله باعتباره المسئول عن هذه الكارثة، فهو (القادر على كل شىء) أمات أباه، وترك أمه من بعده تعانى آلام الحزن، وتحتمل مسئوليات جساما.

٢ ـ هذا الشاب شديد التعلق بالأم، حتى أن موت أبيه لا يحز فى نفسه بقدر ما يحز فيها مقاساة الأم بسبب ذلك الموت. فالارتباط العاطفى بالأم هو محور تدينه، وهو فى نفس الوقت السر فى تشككه فى عدالة الله. وهو كذلك السبب فيما يحس به من تأنيب الضمير إذا ما ساورته الشكوك فى هذه العدالة، وإذا ما ابتعد عن الدين (فى ذلك إيلام للأم المتدينة). وهو أخيرا الحافز له على مناهضة تلك الشكوك والعودة ـ من حين إلى آخر ـ إلى الإيمان، والسعى إلى مقويات منطقية لذلك الإيمان. إن الشك يهدده بالانفصال عن أمه (وذلك أمر كفيل بإثارة الجزع)، وتدعيم الإيمان يخفف من حدة الجزع، ويضمن له ـ فى الخيال على الأقل ـ أن ينعم بأمن طفلى فى كنف الأم الحنون.

٣ ـ ساعد على إثارة الشكوك لدى مراهقنا هذا، ارتفاع مستوى ذكائه واتساع ثقافته نسبيا، الأمر الذى جعله يفطن إلى التناقض المنطقى الذى قد تنطوى عليه بعض الأفكار الدينية. فقد تنبه مثلا إلى فكرة عميقة هى أن علم الله بأفعالنا قبل وقوعها يتضمن إرادته لها، ومن ثمة يلغى حرية الاختيار، ويترتب على ذلك أن يكون العقاب للعباد ظلما. على أن هذه الشكوك التى أثارها التأمل العقلى الصرف ـ بصرف النظر عن الدوافع النفسية الكامنة ـ لم يظهر إلا فى أخريات المراهقة.

٤ ـ عدم الاهتداء إلى رأى حاسم فى الدين ينتج عن الصراع الداخلى ، ويسبب بدوره صراعا آخر ، وبذلك تنتج حالة من الإجهاد النفسى قد يكون لها أثر سيىء فى حياة المراهق . وكلما كانت مثالية المراهق صارمة ، كان الصراع فى شكله أكثر إجهادا ، إذ أنه فى هذه الحالة سينظر إلى الشك نظره إلى الخطيئة ، ومن أجل ذلك قد يظل أخلاقيا متحفظا .

الشك والحماس

النقطة السالفة الذكر (الإحساس بالذنب بسبب الشك) تؤدى بنا إلى أمر هام ، هو التداخل بين حالات الشك وحالات الحماس لدى المراهق الواحد . وقد أسلفنا الإشارة إلى ما ينجم عن تنزّز الدوافع الجنسية من نوبات تحمس دينى هى محاولات لتلطيف الإحساس بالذنب . فليس غريبا إذن ـ ونوبات التشكك تستثير بدورها إحساس المراهق بالذنب ـ أن تأتى على آثارها نوبات من الحماس الدينى . بل إن هذه النوبات الأخيرة قد تكون عملا دفاعيا ضد دوافع الشك أو مغريات الإنكار . فالغلو ـ من وقت إلى آخر ـ فى التعبد ، وتلمس كل ما يؤيد الدين فى الفلسفة أو العلم (وتلك ظاهرة شائعة لدى المؤمنين فى أواخر المراهقة) قد ينم عن مغالبة المراهق لدوافع الشك ، مدعّمة بعوامل النقد التى تتوفر للمراهق فى الشطر الأخير من المراهقة . وفى الغلو فى التعبد فضلا عن ذلك تكفير بل وعقاب للذات جزاء إثم هو الشك . وهذا التكفير لا يختلف عن التكفير الذى يلجأ إليه المراهق فى أعقاب إثم آخر هو الاشتهاء الجنسى .

يحاول المراهق دعم إيمانه وحمايته من الانهيار بأسلوب عملى (عبادة ، كفاح من أجل الدين ، إلخ ...) أو بأسلوب فكرى (الاطلاع على كتب الدين ، ودراسة عباقرة الدين ومثلهم العليا ، والبحث فى العلوم عن كل ما يؤيد الدين ، والتأملات الفلسفية الخاصة) . وقد لا يقنع المراهق بدعم الإيمان فى نفسه هو ، ويتجاوز ذلك إلى محاولة

دعمه بين قومه. ويكون – من حيث هو عرضة للشكوك الرهيبة – شديد الحساسية لكل ما يشتم فيه نقدا للعقيدة أو تحررا منها . مثله فى ذلك مثل من تلح عليه الدوافع الجنسية، إذ يكون شديد الحساسية لأى مظهر اجتماعى يشتم فيه إخلالا بالعفة . على أن المراهق فى سعيه هذا إلى دعم الإيمان قد يوفق ، فينتصر على عوامل التحرر ، وقد يخفق ، فتنتصر عليه عوامل التحرر وتفضى به إلى الإلحاد أو اعتناق عقيدة أخرى اعتناقا يكون بمثابة اهتداء دينى جديد religious conversion .

والأمر من قبل ومن بعد يتوقف على ظروف الفرد النفسية ، وعلى ظروفه الاجتماعية، والعوامل الثقافية الغالبة فى مجتمعه . فقد يكون التشكك أو الإلحاد انعكاسا لحالة المجتمع الذى تسوده الآلام والنكبات والانحلال والحيرة ، وقد يكون انعكاسا لحالة المجتمع الذى تحققت فيه الحرية الفكرية حتى تقهقر الدين أمام تيار العلم وموجات الفلسفات الحرة . فلا شك أن أوروبا عقب حروب « نابليون » – وقد خضبت أرضها الدماء، وغزتها الآلام، وسيطرت عوامل التمرد على العقول – كانت خير تربة لإنبات فلسفة تشاؤمية كفلسفة «شوبنهور»، ولا شك أيضا أن انجلترا فى القرن التاسع عشر – وقد تم النصر فيها للفلسفة العملية والمنهج التجريبى ، وغزتها بحوث دارون وطلائع الانقلاب الصناعى – كانت أنسب تربة لازدهار فلسفات مادية إنكارية كفلسفة « سبنسر » وفلسفة « تين » وغيرهما ممن كانت كتبهم خير مشجع للشباب الحائر المتشكك على المضى فى ذلك الاتجاه إلى نهايته، والمجاهرة به فضلا عن التغنى بالإلحاد . وبذلك كانت هذه الحالة العقلية السائدة هى التربة التى تصلح لإنبات شخصية روائية « كالمريد » التى حللها « پول بورچيه » فى روايته المشهورة بذلك الإسم .

العوامل التى تحمى الإيمان

سبق أن بينا أن أقوى العوامل التى تحمى إيمان المتشكك هى الرابطة العاطفية التى قد تكون بين المراهق وبين أبيه (أو أمه أو أى فرد مؤمن عزيز عليه)، وضربنا

مثالا على ذلك من خبرتنا الخاصة . ونضيف هنا مثالا تاريخيا ، هو «رينان»، الفيلسوف والأديب الفرنسى المشهور : لقد كانت حياته منذ نشأته الأولى مكرسة لهدف واحد ، هو أن يصبح داعيا ، وكانت ظروف حياته كفيلة بتحقيق ذلك الهدف على أتم ما يكون . وما انبرت دواعى الشك لدى الصبى حتى قاومها بكل ما أوتى من قوة وعقل وإيمان ، ولكنها كانت أقوى من أن يصمد لتيارها أى حائل غير شدة حبه لأمه وإشفاقه عليها أن تتولاها صدمة قاتلة إن هو ارتد عن دينه ، هذا فضلا عن توثق وشائج المحبة بينه وبين صديق مؤمن . ومع ذلك فلم تُجْدِ روابط الحب شيئا إلا أن يكون إرجاءً للنتيجة المحتومة التى تعمل على الإعداد لها فى داخلية نفسية دوافع شتى منذ أمد ليس بقريب ، وبدلا من أن يتم الارتداد دفعةً واحدة ، فقد تم على فترات. رحل إلى باريس لاستكمال دراساته الدينية ، وقامت بينه وبين بعض أساتذته مناقشات بلغت حد الخلافات حتى عدل عن مواصلة الدراسة الكهنوتية ، وتحول إلى الدراسة المدنية . وكان خروجه من الأجواء الدينية إلى أجواء الدراسة الحرة عونا له على التحلل من كثير من الواجبات التى كانت تربطه إلى عجلة الدين . ثم لم يلبث أن عكف على دراسة الإنسانيات والآراء الحرة ، حتى أبصر النور ينبعث من الثقافة اليونانية ، فغادر الكنيسة ليوغل فى قدس الميثولوجيا اليونانية .

وكان الحادث الفصل فى تحوله عن الدين ، واهتدائه إلى إيمانه الجديد (الفكر الحر) حجه إلى آثار أثينا . وفى « الأكروپول » محراب آلهة اليونان — آلهة الحرية والجمال والحب — يقف فى خشوع ليؤدى لها صلاةً لا تقل حرارةً وحماسةً عن صلوات أكثر القديسين إيمانا . حينئذ كان الإيمان الدينى قد زايل الشاب « رينان » وكان فجر إيمان جديد ينبثق فى عقله ووجدانه . وقد أعرب عن إيمانه الجديد هذا فيما سجله تحت عنوان « الصلاة التى أديتها لدى الأكروپول حالما وصلت إلى فهم جماله الكامل » وفى مطلع هذه الصلاة يرتل : —

« أيها النبل . . أيها الجمال البسيط الحق . . أيتها الآلهة ــ يا من ديانتك هى العقل والحكمة ، أنت يا من معبدك درس خالد فى الضمير والإخلاص ، لقد بلغت أخيراً عتبة أسرارك . . وجئت أحمل إلى مذبحك كثيراً من الندم ، وما وصلت إليك إلا بعد بحث لا نهاية له . . . » (١)

ومن العوامل التى تحول بين الشك وبين الوصول إلى نهايته (الإلحاد) ، أو على الأقل تؤجل هذه النتيجة ، مواظبة المرء على تأدية الشعائر الدينية وبخاصة ما كان منها جماعيا . فاندماج المراهق فى أجواء دينية ، فضلا عن تقيده بالتزامات اجتماعية ، واستقاؤه سلام النفس من ذلك ، قد يحميه من الارتداد أو يؤخره إلى أبعد أجل ممكن إن كان لديه ما يدعو إليه . وإن المواظبة على التزام الواجبات الدينية بمثابة الخيط الذى يربط المراهق المتشكك بدينه ، وكلما ألحت عليه الشكوك تشبث به حتى لا يسقط ، إلا إن وجد سنداً آخر غير الدين ، وحينئذ لا تصبح به حاجة إلى خيط الواجبات الدينية .

وإن كان المراهق ممن يتشككون فى عدل الله أو قدرته بسبب ما يسود فى العالم من قبح وشرور ، ثم أفلح فى تبرير « المظالم الكونية » ، من قبح وشر ومصائب وآلام ، فإن فلاحه فى ذلك كفيل بإعادة ثقته بالحياة ، ومن ثمة بترجيح كفة الإيمان على كفة الارتداد . مثال ذلك المراهق (١٧ سنة) الذى يقول : —

« إننى أومن أن الله خلق الخير فقط — لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم — فإنهم يفتحون لأنفسهم الطريق للشر ويعتقدون أنه طريق الخير . »

فهو بذلك التفسير لحكمة وجود الشر فى العالم يبرىء الله من التبعة ويحمّلها الإنسان ، وبذلك يثبت اعتقاده بالعدل الإلهى ويبقى الله فى نظره جديراً بالإيمان . وذلك يتبين من قوله :

« أعتقد أن الله عادل لأن الله لا يفقر غنيا إلا إذا كان طامعا فى مال غيره ، كما أنه لا يسىء إلى أحد إلا إذا كان ظالما أو قاتلا أو سارقا أو غير ذلك .

(١) Ernest Renan : Souvenirs d'Enfance et de Jeunesse. p. 57.

وإن لم يكن الله سبحانه وتعالى عادلا لاختل نظام الكون وساد الفساد فى العالم » .

والعبارة الأخيرة تثبت ما أسلفنا فى فصل « فكرة الله عند المراهق » من كون الله ضرورة كونية، فضلا عن كونه ضرورة أخلاقية .

الشك من أجل الجماعة

سبق أن بينا أن الارتباط العاطفى بفرد أو جماعة قد يحمى المتشكك من ترجيح كفة الارتداد على كفة الإيمان . ولكنا لاحظنا أيضاً أن من أقوى دوافع الشك ولاء المرء لقومه وحرصه على سعادتهم، وثورته لما يلاقونه من عنت وظلم. وبينما استطاع المراهق السالف الذكر تبرير الشك والإبقاء على ثقته فى عدالة الله، إذا بمراهق آخر يحتفظ بشكه فى تلك العدالة ، فهو أسود اللون، ناقم على سواده، ومعتبر الله مسئولا عن التفرقة بين الأجناس ، فيقول : —

« إن الجنس الأسود فى ذلك العالم يعيش عيشة لا تتناسب مع البيض ، كما أن الله خلق البيض وفيهم الجمال وحسن الخلق، فى حين حرم اللون الأسود من هذا . كما أن الله ذكر فى كتابه العزيز آيات تدل على أن اللون الأسود هو المبتذل فى الدنيا والآخرة ، فهل من العدل أن يحاسب الأبيض والأسود على السواء ؟ ! . »

لقد عانى هذا المراهق منذ طفولته الشعور بالنقص بسبب ما يلاقيه السود من معاملة بحكم لونهم ، وترك آثارا سيئة غرست فى نفسه حتى شرع فى تأملاته الفلسفية فى سن المراهقة . وحيث أنه يعتقد أنه (أو قومه) ليس مسئولا عن هذه « اللعنة » ، وحيث أنه يؤمن بقدرة الله المطلقة، ومن ثمة يعتبره مسئولا عنها ، فطبيعى أن يشك فى عدالته، ويتمرد على حكمه . وهو بحكم غضبه الشديد يغفل عن جوانب من المشكلة ربما ردته إلى إيمانه . وينبغى ألا ننسى أن مراهقنا فى موقفه هذا يترجم عن إحساس قومه، وإذا كان أولئك القوم لا يفصحون فلا شك أنه يترجم عما يضمرونه فى نفوسهم .

وذلك مراهق آخر (١٩ سنة) شُغل بالمشكلة الفلسطينية، يعرب عن إشفاقه من أن يصل إلى نتيجة لا يرضاها، هي أن الله ليس بعادل فيستغفره ويعقب على ذلك بقوله: —

« هناك عدة مسائل يجب عليه سبحانه وتعالى أن ينصف فيها أصحابها كمسألة فلسطين. فدينهم الإسلام، والإسلام دين الله الحنيف، واليهود أعداء الدين، فلم لا ينصر المسلمين ويبيد اليهود بوباء أو مرض؟ أو يجعل الأمم جميعاً تنقلب ضدهم؟ ولم لا يغنى المسلمين كما أغنى اليهود وكل شىء بيده. أو هو غاضب على عباده المخلصين؟ » ويختم الحديث بما بدأه به من استغفار الله العظيم.

قال المراهق ذلك قبل بدء الحرب الفلسطينية وكله أمل فى نصر العرب، ولسنا ندرى — وقد انتهت الحرب بنصر اليهود — ما حاله اليوم.

ويتضح من المثالين السالفين أن الشك فى العدالة الإلهية فرع عن الإيمان بوجود الله وبقدرته الفائقة مع تنزيهه عن العجز، كما لو كان الله — فى نظر المراهق — مطالَب (كالأب فى نظر الطفل) برعاية البشر جميعا وضمان السعادة لهم. فالشك فى عدالة الله ليس تجديفا بقدر ما هو عتاب، ويبقى عتاباً حتى تثقل المصائب والآلام إلى حد أن تفقد الحياة كل معنى بالنسبة للمرء، ويصبح عاجزا عن تبرير هذه المصائب عجزه عن احتمالها. حينئذ، وحينئذ فقط ينقلب العتاب إلى ثورة. وبعد أن كان الشك قاصراً على عدالة الله، قد يتجاوز ذلك إلى الشك فى ذاته وفى وجوده، مما يشجع المتشكك على التماس اتجاه آخر فى الحياة غير الاتجاه الدينى.

والمهم فى الشك من أجل الجماعة أنه يدل على شدة شعور المراهق بوحدته بجماعته وحدة هى وحدة الآلام والآمال. ونحن نسمع — وهو أمر حق — أن الفرد الاجتماعى فى جماعة من المضطهدين (لسبب لونى أو عنصرى) يرضع البغضاء التى تتراكم رويدا رويدا بسبب الإذلال المتلاحق وما يخلفه فى نفسه من المرارة والإحن. ومهما كانت قدرته على التحكم فى دوافعه العدوانية، فلن يكون ذلك إلا لأجَل، وبعد ذلك سوف تجد البغضاء متنفسا، فإن لم يجد —

أو لم يتح له ـ أن يوجهها إلى سلطة واقعية مسئولة ، وجهها عدوانا ضد سلطة لا شخصية كالله أو الهيئة الاجتماعية عموما ودون تمييز . وذلك شأن كثير من المرتدّين عن الدين أو الخارجين على القانون .

وهذا مراهق لم يألم لنفسه ، أو لقومه فقط ، ولكنه مضى فى نظرته الفلسفية الشاملة حتى رأى الإنسانية عموما ترزح تحت عبء الآلام والمصائب . وهو يألم لذلك أشد الألم ، وتساوره شكوك فى سيادة الخير والعدل حتى يقرأ قصة « مدام كورى » التى بلغت تضحيتها وزوجها فى سبيل الإنسانية حدها الأقصى دون أن ينتهى ذلك لغير الموت لكورى والحزن لزوجه . وحينئذ لا يسعه أن يحبس شكه فى العدالة الإلهية فى صدره فيفصح عنه ، ولكنه يعود فيفتش عن مبرر لتلك المأساة إبقاءً على إيمانه . ويهتدى فى النهاية إلى تفسير فلسفى لا يتناقض مع عدالة الله ، تفسير يعيد الطمأنينة إلى قلبه (ولو إلى حين) . وفيما يلى طرف من تأملات سجلها بهذا الصدد :

« . . . أثَّرتْ هذه القصة فى نفسى أثراً قويا ، وأحس أن الجهاد جسَّمته القصة حتى ليكاد يشخص كائنا . وقد وجدتنى بعد مشاهدة الفيلم مدفوعا إلى تأملات فى أمر هذا الإنسان الذى يقضى العمر فى كد وسعى ، وتكون النتيجة الحتمية ـ الاندفاع إلى هوة العدم السحيق . . .

هذه مأساة دامية من مآسى الحياة ، مأساة بلغ فيها عنف القسوة أقصاه ، وتمت الفاجعة فى اللحظة التى يكون الألم فيها فى أقصى درجاته ، فكأن القضاء قد تخير هذه اللحظة التى ينبغى أن يخلد فيها المخلوقان النبيلان إلى الراحة . . . . جعلنى هذا الأمر أشك فى العدالة ، وأفكر فى الحكمة من ابتلاء خير الناس بهذه المصائب . وأخيراً اهتديت إلى ملجأ يحمينى من شك كاد يعصف بى .

فكرت أن وفاة هذا الرجل فى حادثه هذا جعل منه بطلا خالد الذكر فى تاريخ الإنسانية ، وسجل اسمه بحروف من ذهب فى ضمير التاريخ ، وأكسب حياته معنى ساميا . لم يشأ القدر أن يدع حياة هذا الموهوب الفذ تسير كما تسير

حيوات عامة الناس ، بل قصد إلى أن يجعلها تشذ عنها ليعطيها دلالةً أرفع ، وكى يدع الأجيال المتعاقبة تأخذ عنها — فى اهتمام وحماس — عبرةً أكثر نفاذاً وأسطع لألاءً . . .

إذن فقد كانت لهذه الكارثة حكمة سماوية ، وهذه الحكمة لم تكن إلا من أجل الإنسانية عامة . »

وكأنما صاحبنا قد ارتضى هذا التفسير وعاد إلى قلبه الهدوء ، ولكن الشك يعاوده فيتساءل :

« ولكن ، أليس فى ذلك إرهاق وظلم لكورى وزوجه؟ أليس فى هذه الحكمة تضحية بمخلوقين جديرين بكل جزاء عدل وقصاص وفاق ؟ »

ولا يلبث الجواب الشافى أن يوافيه — وكأنما النتيجة النهائية ، الإيمان ، يضمرها منذ البداية ، أو هى نتيجة مع « سبق الإصرار » كما يقولون . وإليك الجواب :

« أجل إنه ظلم فى عرفنا نحن ، ظلم من جهة نظرنا الفردية الضيقة ، ولكن ليس ينبغى أن نطلب من الله أن يعامل مخلوقاته بتلك النظرة الإنسانية القاصرة ، وأن يعالج شئون الكون العظيم حسب أهوائنا التافهة وحكمتنا الفانية . فهو ربّ الجميع ، هو الله القادر على كل شىء ، فلابد أن يحكم ويقضى وينظم ويدبر وفقا لنظرة شاملة كلية ، وبغير هذا لا يستقيم التناسق ولا يتم النظام فى الكون .. »

أجل ، إن المراهق الفيلسوف ليس ساعيا إلى الإيمان بالله فحسب ، وإنما إلى شىء أوسع من ذلك مدىً ، إلى مذهب شامل ينتظم جوانب الكون كله ، إلى رأى نهائى بغيره لا يستقيم التناسق ولا يتم النظام فى الكون . إن المراهق يتطلب من الله أن ينظم العالم كيفما يحلو له ، وإلا فالإيمان به فى خطر .

ثالثا ـ الإلحاد

ونقصد به الإنكار التام لوجود الله، وإحلال إيمان آخر محل الإيمان به، أو اتخاذ موقف إنكارى على الإطلاق. والحالة الأولى يسودها السلام النفسى، أما الثانية فحالة صراع وقلق لا تختلف فى ذلك عن حالات التشكك. والإلحاد بهذا المعنى لا نصادفه لدى المراهقين العاديين قبل سن العشرين، ولو أن كثيراً منهم يصرح بأنه ملحد، وقد لا يفتأ يباهى بإلحاده، ولكن بالتحليل البسيط يتكشف لنا أنه بذلك يعرب عن رغبته فى التحرر والاستقلال، أو عن ميوله العدوانية ضد المجتمع بمهاجمة مقدّساته من العقائد والتقاليد.

بل قد يكون المراهق مصرحاً بإلحاده، لامباهاةً وتظاهراً، ولكنه يكون مخلصا فى ذلك ظانا بحق أنه ملحد، ولكن إلحاده ليس إلا ثورة وتمردا على الله، أو إنكاراً لله انتقاما منه، فهو إذن إقرار ضمنى بوجود الله و بقدرة الله على كل شىء. مثال ذلك مراهق مسلم فى سن السادسة عشرة والنصف، طالب بالسنة الثالثة الثانوية، وهو من فرع فقير فى أسرة غنية، يضيق بأغنيائها لعنجهيتهم التى تشعره بالذلة، وتدفعه منذ الطفوله إلى احتمال ألوان من الهوان والشعور بالانكسار. يجيب هذا المراهق على السؤال : ـ

« ما صفات الله فى نظرك ؟ » (من الاستفتاء) بقوله « ليست له صفات لأنه غير موجود » وعلى السؤال : ـ « ما شعورك نحو الله ؟ »

ـ « هو شعورى نحو أى شىء لا وجود له ». وعلى السؤال :

« هل تعتقد أن الله خلق الخير والشر ؟ أم الخير فقط ؟ »

ـ « الإنسان هو الذى يأتى بالخير والشر إلى حيز الوجود ».

إلى هنا وجميع الأجوبة حاسمة فى التعبير عن إنكاره لوجود الله. بيد أن

الريبة تداخلنا فى صحة هذا الظن بسبب تلك الانفعالية الحادة التى تصاحب إجاباته، والتى تدل على غيبة اليقين الموضوعى الذى لا يحتاج إلى كل ذلك القدر من الانفعال . ولا تلبث ريبتنا أن تتحقق حين يُسأل : – « هل تعتقد أن الله عادل ؟ » فيجيب على الفور : – « لا أعتقد ذلك حتى ولو كان موجودا . »

إذن فصاحبنا لم يتلّخص بعد من إيمانه بوجود الله . ومن هنا كان إنكاره الحازم لوجود الله أكبر دليل على أنه يؤمن بوجوده، ومن هنا كان إلحاده ضرباً من العدوان موجهاً إلى الله، ذلك « الموجود القادر على كل شىء، والمسئول عن الظلم » .

إن توهم الإلحاد ظاهرة شائعة بين المراهقين ، وقد لا يفطن المراهق إلى كونه واهماً إلا بعد أن يصل إلى قرار هادىء رزين . وذلك أمر لا يتم بحال قبل سن العشرين ، بل إنه قد يتم فى هذه السن ثم لا يلبث أن تعتريه تغيرات وتقلبات بعد ذلك بأعوام طوال ، فالدين عرضة للتغير والتطور ما امتد العمر بالإنسان . والمهم أن مَثَل الإلحاد فى المراهقة مثل التحرر الظاهرى من الأب مع التعلق به لا شعوريا – فعن طريق الإلحاد ينكشف بغض المراهق للسلطة التى « استبدت به » ، استبدت بعقله وقلبه زمنا طويلا – (وهى سلطة وثيقة الصلة بالسلطة الوالدية التى يسعى إلى التحرر منها بدورها) ، ذلك البغض الذى يعد عنصراً ضروريا فى تكوين الشعور المزدوج ambivalent نحو الله أو نحو الأب . وانكشاف عنصر البغض يصاحبه تراجع عنصر الحب إلى المؤخرة . والخلاصة أن الإلحاد قبل سن العشرين ليس إلحاداً، ولكنه شك فى عدالة الله، شك هو مظهر لاتجاه تشككى عام فى قيمة الحياة عموما .

أثر الثقافة العلمية :

إذا كنا قد أثبتنا أن للخبرات الطفلية الأليمة، والأحداث الراهنة، أثرها فى تشكيك المؤمن فى عقائده وانحيازه إلى النزعة اللادينية فإن للثقافة العلمية والفلسفية أثراً لا يقل شأناً فى إثارة الشكوك . فهى قد توفر للمراهق من المثل العليا وضروب اليقين ما يستعيض به المراهق عن مُثُل الدين ويقينياته. ولذلك نلاحظ ارتفاع

نسبة المتشككين مع ارتفاع المستوى الثقافى. وإن ثقافات بعينها ترتفع فيها نسبة التشكك والإلحاد . ومن مجموعة المراهقين الذين أجابوا على الاستفتاء، لاحظت أن جميع طلبة القسم الأدبى الذين يدرسون الفلسفة فى المدارس الثانوية عبروا صراحة عن تشككهم ، وإن كان بعضهم يحاول جاهداً قمع قواه النقدية وتعطيل تأملاته . ولست أزعم أن الدراسة الفلسفية قد خلقت عندهم الشكوك من العدم، فإن اختيارهم لهذه الدراسة بالذات قد يكون نتيجة شكوك سابقة يبغون تسويتها على نحو من الأنحاء . فإن كانوا يشكون لأنهم يدرسون الفلسفة ، فهم كذلك يدرسونها لأنهم يشكون .

ولكنا نلاحظ أن التحول عن الدين لا يسير بسرعة التقدم العلمى ، إنما لكل منهما إيقاعه rhythm الخاص : إن الآراء العلمية تغزو — أول ما تغزو — عقل المرء، ولا تتغلغل فى كيانه الانفعالى إلا بعد وقت ليس بالقليل . وحيث أن للشعور الدينى لدى الفرد تاريخ طويل، وحيث أنه متغلغل فى حياته، وجذوره تتشبث بأعماق نفسه ، فلابد له كى يتخلى عن إيمانه من أجل طويل .

وقد يحدث أن مثقفا يتعمق نظرية فلسفية أو علمية منكرة لبعض عقائده ويدين بهذه النظرية، ويبقى مع ذلك على إيمانه بتلك العقائد . وقد يقبل هذا التناقض زمناً حتى تصبح النظرية الجديدة يقيناً وحينئذ ينبذ العقائد المناقضة لها . ونلاحظ فى تاريخ الفكر أن التحرر من الدين لم يكن يأتى مع التحرر الفكرى بل فى أعقابه . وكان على رجال الفكر أن يكافحوا ويناضلوا زمنا طويلا قبل أن تكتب لأفكارهم السيادة على العقائد البالية .

ونضيف أن الفرد لا يتخلى عن عقائده بمجرد أن تغزو الأفكار الحرة ذهنه، لأن دوافعَ فى أعماق نفسه تعرقل تحرره الدينى ، ورغباتٍ فيها تشبعها تلك العقائد ، وليس من اليسير التضحية بها إرضاء لمطالب عقلية على سطح الحياة النفسية، ولأن المسألة ليست استبدال شىء بآخر ، إنما هى تحول كلى للنفس برمتها من اتجاه إلى اتجاه مغاير . وليس يكفى كى يتم هذا التحول أن تدخل

الذهنَ بعضُ أفكار علمية باردة أو معادلات رياضية مجردة .

ويؤثر المرء عادة الإبقاء على القديم على قدمه ، سواء كان ذلك القديم عادات اجتماعية أو عقلية أو معتقدات دينية ، والدافع الحقيقى إلى ذلك – فضلا عما سبق – هو الخوف من المستقبل المجهول . فالتغيير شر على الرغم مما قد يجلبه من خير ، لأنه مثار للخوف والقلق .

ونحن نعلم أن المراهق – برغم إطلاقه العنان لتفكيره واستطلاعه – يرى العالم من خلال مشاعره وتصوراته ، وتفكيره لا يتجه وجهة موضوعية إلا بعد أن يتجاوز تقلبات المراهقة . ولذلك كانت تعوزه المرونة والدقة : إذا استنتج ،أمعن فى الاستنتاج ،وطمع فى الوصول إلى نتيجة مطلقة قاطعة ، وخفى عليه ما قد ينطوى عليه الاستنتاج من شطط أو تناقض . واكتسابه بعض العلم بالعلوم والفنون المختلفة دون أن يتمثلها تمثلا كافيا ، يضع تحت تصرفه مادة يستغلها فى الجدال والمحاجة ، فيتلاعب بالألفاظ الضخمة ،ويكلف بالصيغ والتراكيب ، ويتشدق بالمصطلحات العلمية والفلسفية . ويتوهم المراهق أن فكره معين لا ينضب ، فى حين أن كتاباته تكشف عن الضحالة ، والسطحية ، والافتقار إلى وضوح الفكر ؛ ولكنه لا يفطن إلى ذلك الفقر الفكرى لأنه يستطيع أن يطيل فى نفسه الفكرة فتبدو عميقة مليئة [1] .

ولذلك ما أن يقع على مبدأ علمى أو مذهب فلسفى يُرضى طلعته ونزعته إلى التحرر ، حتى يتحمس له تحمساً هو أقرب إلى التعصب منه إلى الاقتناع العلمى الرزين . فإن كان يفيد من الثقافة العلمية الموضوعية أو الأفكار الفلسفية المتحررة ، فهو لا يفيد اتجاها موضوعيا أو منطقيا فى التفكير ، بل يفيد منها ما يؤيد طموحه إلى عقيدة مطلقة ، ورأى نهائى . وليس بخاف علينا انتشار كتب وآراء بعينها بين جمهور المراهقين فى الشطر الأخير من المراهقة ، من أمثال دارون ونيتشه وماركس ، وليس بخاف كذلك كيف أن كتابات هؤلاء كانت لدى

(١) راجع كتاب « النمو النفسى » . تأليف عبد المنعم المليجى . ص : ٢٦٤ – ٢٦٥ .

بعض المراهقين بمثابة كتب مقدسة تحتل فى نفوسهم ما تحتله الكتب السماوية لدى المؤمنين من مكانة رفيعة .

ونحن نجد الدليل على ذلك من مذكرات رجل مثل « سلامة موسى » الذى استمد فى شبابه هدوء النفس و « طرب الدين » من نظرية التطور ، فهو يقول :

« وليس من السهل أن يكشف الإنسان عن ضميره الدينى ، كيف تكون ثم نما وتبلور فى قليل من الاتجاهات الأخلاقية الرئيسية ، ثم تجوهر فى اتجاه مفرد يجذب إليه كل ما فى الشخصية من نشاط روحى . ولكنى أذكر أنى ، وأنا دون العشرين ، أحسست أن نظرية التطور تأخذ مكانا دينيا فى نفسى ، وأنها قد حملتنى واجبا روحيا ، وقد نما هذا الواجب فى نفسى إلى واجبات . ذلك أن آفاق الحياة لم تتسع فقط بنظرية التطور ، بل زادت فى العدد واللون كما شسع بها تاريخ البشرية شسوعا عظيما ، ذلك أننا قد فهمنا من هذه النظرية ، أن كل حى على هذه الأرض لا يقل عمره عن ألف مليون سنة ، لأن كل إنسان قد كان فى وقت ما طينة نبضت بالحياة ، فإذا به ڤيروس ثم أميبه مفرده ثم أميبات متصلة متعاونة ، ثم حيوان رخو بلا رأس ، ثم سمك ثم زاحفة ، ثم حيوان لبون ، ثم قرد ، ثم إنسان . ثم هذا الإنسان سوف يكون سوپرمانا . »[1]

وقد أسلفنا أن الطفل كلما زاد علمه بالعلل الطبيعية للحوادث الطبيعية ، قل إقحامه لله كتفسير لهذه الحوادث ، واحتفظ به كتفسير أخير (باعتباره علة بعيدة) . وطبيعى أن يمعن المراهق — المثقف ثقافة علمية — فى ذلك الاتجاه ، فكثير من الظاهرات الطبيعية التى لم يدر لها من سبب غير إرادة الله ، أضحى يعرف (معرفة لا ينالها أدنى شك) عللها وتفسيراتها الطبيعية ، الأمر الذى يقلل من التجائه إلى عالم السموات يلتمس فيه تفسيرا روحانيا لهذه الظاهرة أو تلك مما يقع تحت بصره . بل إن المراهق — إن كان ذا اتجاه إلحادى — ليعرض

(١) عن كتاب « تربية سلامة موسى » تأليف سلامة موسى .

إعراضاً تاما عن اللجوء إلى ذلك العالم النائى ، ويقنع بما يقدمه العلم من تفسيرات. وليست هذه بظاهرة فردية فحسب ، بل إن التاريخ الفكرى نفسه يشهد بانكماش التفسيرات الدينية لظواهر الطبيعة أمام تقدم الكشوف العلمية .

وليس غريباً على مراهق مؤمن لمس قوة العلم أن يساوره القلق على العقيدة ، وأن يكون دقيق الحساسية لكل ما يتهددها ، ومن هنا يكون حماسه رد فعل لذلك ، وتكون منازعاته وجدله ضد مهاجمى العقيدة أسلوبا دفاعيا ينم عن إحساسه بتزعزع عقيدته . يقول شاب (١٨ سنة ، مسلم بالسنة الخامسة الثانوية القسم الأدبى) برغم حماسه الدينى :

« ليس إيمانى بالله بقوة واحدة فى جميع الأوقات . فقد يتغير عندما أفكر فى كيفية تكوين الجنين فى بطن أمه ، ثم مولده وتأثير الطبيعة عليه بعد ذلك . وعندما أجد أن هطول المطر ، وهبوب الأعاصير ، ونمو النباتات ، شىء مبنى على العلم والطبيعة ولكل شىء من هذه الأشياء سبب ظاهر » . ولكنه لا يلبث أن يتبين خطر العلم على الدين فيمتلىء جزعا ، ويحدث رد فعل لذلك هو مهاجمة العلم والعلماء فى موضع آخر ، إذ عندما سئل (فى الاستفتاء) عن الموت أهو خير أم شر ، أجاب قائلا :

« إنه خير فى حالة وفاة قائد إذ قد ينجى آلافا من الموت ، وهو خير أيضاً عندما يصيب العالِم ، إذ ربما يصل تفكيره إلى تحدى الخالق – أستغفر الله العظيم » .

وإن كان الفرد الآخذ بنصيب من الفكر العلمى يحارب هذا الفكر خوفاً على عقيدته ، فإن المجتمع بدوره عندما تقوى فيه الاتجاهات العلمية يتعرض لموجات من التزمت والتعصب الدينى ، وكلاهما رد فعل طبيعى لتلك الاتجاهات .

ونذكر على سبيل المثال ما حدث فى نهاية القرون الوسطى من اضطهادات دينية صاحبت طلائع الكشوف العلمية وبوادر التحرر العقلى فى حين نرى الحرية الفكرية تسود إبان عصورٍ كان الدين فيها قويا على الكعب (كالعصر

العباسى الأول مثلا) . فالدين الآمن لا يخشى حرية الفكر ، أما الدين المتداعى فشديد الحساسية لأتفه المخاطر الدابرة . يصدق ذلك على الفرد صدقه على المجتمع سواء بسواء .

ولكن ينبغى ألا نفهم مما سلف أن الاطلاع هو علة التشكك والإلحاد ، وإنما هذا أو ذاك نتيجة عوامل عدة متفاعلة تضافرت على إعداد الانقلاب الدينى . وما اعتناق هذه النظرية العلمية أو تلك إلا عوناً على إظهار النتيجة التى لم يكن مناص من ظهورها . ونستطيع أن نشبه الانقلاب الدينى على أثر تمثُّل نظرية علمية أو فلسفية بتداعى جذع شجرة أخذ السوس ينخر فى أنسجته الداخلية ،ولكنه بقى محافظاً على صورته حتى هبت ريح عاتية فتداعى الجذع وانهار ، وما كان ليحدث ذلك لو لم يكن التكوين العام قد تهيأ لذلك تمام التهيؤ . وإن المراهق الطلعة (الذى انتهى إلى الإلحاد) ليقرأ الكتب المعارضة للدين ، ويختلف إلى الأوساط الثقافية ذات النزعة اللادينية بحجة الاستطلاع ، ولكنه لو تعمقنا نفسيته لوجدناه ساعيا – بجهد خفى – إلى تقوية الدافع اللادينى المتردد ، وإعلاء صوته الخافت المرتجف .

أثر الدافع الجنسى

إذا كنا قد أوضحنا أن المراهق يغالب الدافع الجنسى ، فإن اتصال خذلان (frustration) ذلك الدافع ليشقى المراهق ، ويضفى على حياته غلالةً من الكآبة ، ويشوب حياته بروح تشاؤمية لايدرى لها سببا ؛ وربما يجد فى الفلسفات التشاؤمية الفكرية الانهزامية ما يبرر تشاؤمه ، وبذلك بعد أن كان التشاؤم حالة نفسية تتملكه على الرغم منه ، يتبلور فى اتجاه فكرى يتشبث به المراهق ويدافع عنه . ولا يبعد أن يتولد عن الحرمان الجنسى المتواصل غيظ من التقاليد والمثالية الأخلاقية ، غيظ يبقى عاملا فى الأعماق (خفية عن الشعور) ، آخذاً فى النضج والتبلور حتى يحين ظرف ملائم فينبجس فى صورة اتجاه إباحى على

« الكدح » تمثال من الخشب للفنان الألمانى «جنسين»
(الصورة مهداة إلينا من الفنان نفسه .)

«المراهق فى صراع دائم مع شيطان الدافع الجنسى ، ولا يقتصر على مقاومة ذلك الشيطان فى نفسه فحسب ، بل يتعقبه أينما كان فى العالم الخارجى . »

النقيض تماماً من الاتجاه الأخلاقى القديم .

ونحن نعلم أن المراهق — برغم مغالبته المستمرة للدافع الجنسى — فإنه لا يملك أن يُغلَبَ من حين إلى آخر فيسقط بعض السقطات دون أن يعنى ذلك تخليه عن الاتجاه الأخلاقى العفيف . وقد يعقب كل سقطة من سقطاته أزمة ندم قاسية ، وقد يعقبها حماسة دينية أعنف من أن تكون اتجاها دينيا طبيعيا ، إنما تكون رد فعل لزيادة إحساسه بالمد الغريزى الذى يوشك أن يدهمه . ولكن إنْ تعدد سقوط المراهق واعتاد الهزيمة أمام المد الغريزى ، أو بتعبير أدق ، اعتاد اجتناء لذات هذه الهزيمة ، وأصبح الإشباع الجنسى حقيقة واقعة بعد أن كان خطرا مهولا يتهدده ، حينئذ لا يعود ثمة خوف (وقد وقع المحظور) وتنهار المثالية الأخلاقية ، وتضيع هيبة الدين ، « حامى » تلك المثالية .

إن المراهق الذى يبلو مثل تلك التجربة ، تكون العفة هى الخيط الأخير الذى يربطه بدينه . أما وقد انقطع ذلك الخيط ، فطبيعى أن يحل عدم الاكتراث بالدين محل الاحتفاء به . وقد يسعى المراهق — ولما تزل به بقية من قلق وتردد — إلى أن يتصيد من المبادىء الفلسفية ما يبرر به سلوكه الجديد ، ويدعم به اتجاهه اللادينى المصاحب لتحوله الأخلاقى ، ذلك أنه كلما بعدت به الشقة عن الدين قلّ خوفه من الانطلاق الغريزى . وقد يمضى المراهق (أو الراشد المرتد) فى هذا الاتجاه إلى نهايته ، فيقف من الدين (ورجاله) موقف العداء الصريح ، من حيث هو المسئول عن تضييع العمر السابق فى ذلك الحرمان والاستسلام لأوهام الأخلاق .

وقد أبدع الروائى الفرنسى « أناتول فرانس »[1] تصوير هذه النقطة الأخيرة بتحليله شخصية « بافنوس » ، ذلك الراهب الذى فاق القديسين جميعا فى الزهد وإذلال النفس إلى حد أنه — كى يكون مثلا يحتذى فى الزهادة والتفانى فى الدين — أقام أعواما ، جالساً القرفصاء فوق قمة أحد عمدان المعابد المهجورة .

(١) فى قصته « تاييس » التى ترجمها إلى العربية أحمد الصاوى محمد .

وقد عزم على أن يهدى غانية جميلة طار صيتها فى كل مكان . وبعد كفاح مرير تتحقق المعجزة وتهتدى « تاييس » على يديه ، وتدخل الدير مخلفة وراءها مجداً عريضا ، وكنوزاً أضرمت فيها النيران استجابة لدعوة « الأب بافنوس ». ثم يحضر « تاييس » الوفاة ويصل الخبر إلى « بافنوس » ، فيهرع إليها وقد جن جنونه، وما أن تسلم الروح حتى تثور ثائرته ، وينفجر ضارعاً إليها أن تقبله فلا تجيب ، فيضم جسدها إلى صدره لأول مرة منذ عرفها وينهال عليها تقبيلا ثم يلطم وجهه لطمات جنونية ملقيا اللوم على نفسه ، ويصيح فى ربه « يا أيها الإله ، تعال أبصق فى وجهك » . لقد تكشفت الرغبة التى كانت تستخفى وراء مساعيه الجبارة من أجل هداية تاييس إلى طريق الله (وبتعبير أدق ــ إلى الطريق الذى كان يسلكه هو آنذاك) . وإن امرؤا يناهض ميلا بذلك العنف حفاظا على الدين ، ويعانى حسرات الحرمان ، لا يبعد أن تتراكم فى خبيئة نفسه انفعالات النقمة على الدين ، وما أن تهلك « تاييس » وينقطع الرجاء فى امتلاكها حتى تسفر الرغبة الخافية ، وتنبثق فى اللحظة عينها الدوافع العدوانية المكبوتة حتى لا يقوى على قمع ثورته على نفسه وعلى الله .

وخير ما يمثل أطوار التحول عن الدين فى مسايرتها لأطوار التحول فى السلوك الأخلاقى حياة « المريد » كما صورها « پول بورجيه » . يقول « المريد » (وهو مراهق) عقب اطلاعه على كتب فيها إباحية ، من بينها قصائد بودلير « أزهار الشر » :

« تضاءلت فى نظرى جميع الفضائل التى وعظونى بها فى حداثتى ، وبدت لى مسكينة وضيعة هزيلة إلى جانب جلال وعظمة وجنون بعض الهفوات والأخطاء . . . »

ولكنه إذ يفوه بهذه العبارة لم يكن قد تجاوز بعد حد القول والاقتناع العقلى ، وبقى دون أن يجسر على التنفيذ الفعلى حتى سنحت فرصة لم يكن له دخل فى سنوحها ،

(١) ص ١٧٣ من الترجمة العربية لسليم سعده .

إذ أغوته فتاة فى الثلاثين على ارتكاب الخطيئة، فوقعت الواقعة . وها هو يصف ما حدث : —

« استمرت نوبة الإحساس التصويرى التى كانت تنتابنى على مهاجمة العقيدة الدينية فى نفسى بإغرائى على ارتكاب الخطيئة التافهة والعمل بمذهب التشكك المؤلم ، وكادت نوبة الشهوة البدنية التى نتجت عن ذلك توقظ هذا الإيمان فى قلبى المعتل . وفقدتُ طهارتى فى سن السابعة عشرة وفى ظروف تافهة محزنة . . . وما كدت أنتهى من فعلى حتى هربت من تلك الحجرة يملأنى اشمئزاز لا يوصف ، كان يخيل إلى أن يدى وفمى وكل جسمى قد تدنست بأدران لا تغسلها أية مياه . وأول فكرة طرأت علىّ كانت أن أذهب وأعترف بخطيئتى وأتوسل إلى الله ، الذى كنت لم أزل أعتقد به ، أن يهبنى القوة من لدنه لكى لا أكرر فعلتى . واستمر هذا الاشمئزاز بضعة أيام ، ثم لاحظت فى شىء من الذعر الممتزج بالشهوة أن الرغبة تنساب فى نفسى شيئاً فشيئا . . . » (١)

ولكن المريد يعجز عن صد التيار الجنسى فيقع فى المحظور مرات حتى يستسلم فى النهاية ، ومع ذلك يبقى خيط رفيع يصله بالله حتى يحضر وفاة صديق عزيز عليه فى ظروف أليمة ، فينقطع ذلك الحبل . ولكنه كان فى أثناء مرض صديقه هذا يفتش فى الكتب المتطرفة وكأنما كان يعد العدة لمواجهة خطر الإلحاد . وعندما قضى ذلك الصديق كانت كل نفسه مهيأة لتقبل الاتجاه الجديد فيحسم الصراع العقلى ، ويستبدل بدين الله دين أستاذه المادى الملحد فيكتب إليه قائلا :

« آه . كيف يتسنى لى أن أقص عليك تلك الثورات المحمومة التى شعرت بها عند وقوفى على أسرارك واشتراكى وإياك فيها . فقد كانت أشبه بالحب الأول ، وما فيه من متعة وهناءة وحماسة وحمية . . .

لقد كنت أشعر بلذة عجيبة عميقة طبيعية فى تحطيم صرح العقائد القديمة

(١) ص ١٧٦ — ١٧٧ .

التى نشأت بين جدرانها وأنا أحمل كتبك فى يدى . أجل تلك هى الغبطة الرجولية التى تغنّى بها "لوكريس" ، غبطة الإنكار المحرر من القيود . »[١]

• • •

تبين إذن أن التحرر الجنسى قد يكون السبيل إلى التحرر الدينى ، وتلك صلة لم يغفل عنها الدين ورجاله . فقد حرصوا على إحاطة المرء بسياج تقيد حريته الجنسية لعلمهم أن فى التعبير الجنسى إضعافا للوازع الدينى ، وفى تعطيل الدوافع الجنسية توفيرا لطاقة وجدانية هائلة تستغل فى التقوى والنشاط الدينى . على أن المرء قد يفضى إلى الارتداد الدينى من باب غير باب الإشباع الجنسى ، ولكنه يبقى على الرغم من تحرره الدينى محافظا على مثاليته الأخلاقية ، مقيما على سلوكه العفيف المتزمت ، وبعد أن يتقادم العهد على تدينه وتصبح تعاليم الدين ذكريات بالية ، حينئذ يتحلل من التزاماته قبله ، ومن هنا قد يعدل فى نهاية الأمر عن خطته الأخلاقية ، ويسلك حسبما يهديه اتجاهه الفكرى الجديد . فكأن الدين فى هذه الحالة الأخيرة كان الخيط الذى يربط الشخص بالأخلاق ، فى حين أن الأمر على العكس من ذلك فى الحالة الأولى ، حيث الأخلاق هى الخيط الذى كان يربط الشخص بدينه .

نستطيع أن نقرر إذن أن الانقلاب الدينى ليس حادثا بسيطا طارئا كاهتداء عقلى مفاجىء ، إنما هو تحول عام فى الشخصية ، ونهاية طبيعية لنمو طويل معقد ، فلا يمكن أن يفسره عامل واحد فى حاضر الشخص أو ماضيه .

---

(١) ص ١٨٧

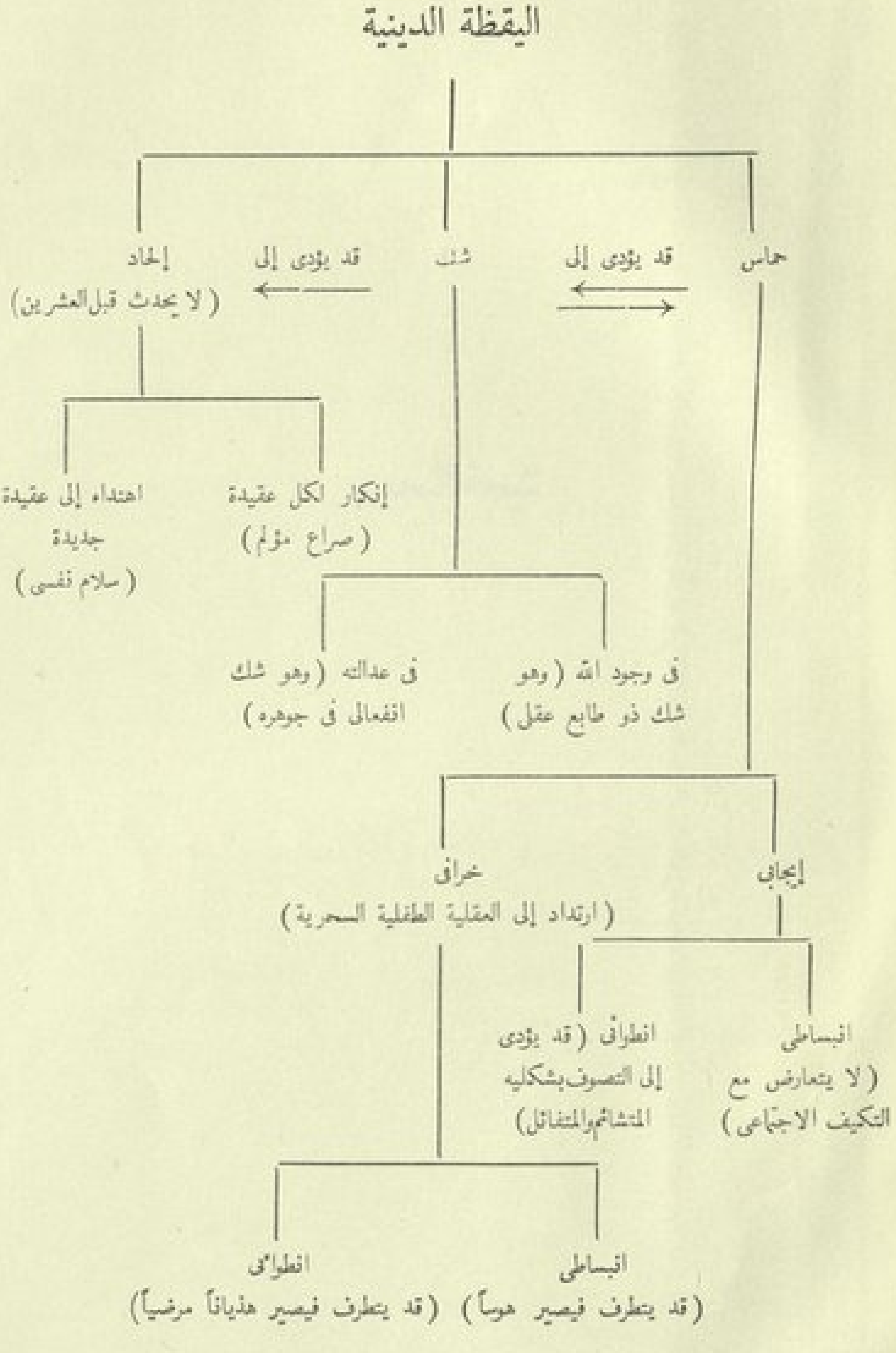

رسم تخطيطى يبين مختلف مظاهر اليقظة الدينية فى المراهقة

نتيجة البحث

فرغنا من عرض الحياة الدينية منذ نشأتها عند الطفل حتى مطلع الشباب ، عرضاً تفصيليا ديناميكيا . وقد راعينا ذلك العرض أن يصور التفاعلات والتشابكات الداخلية والتعقد الذى تنطوى عليه الحياة الدينية فى حركتها الدائبة واندماجها التام بالحياة النفسية عامة . ولكن العلم يحتم علينا فى نهاية بحثنا لظاهرة ما أن نصورها تصويراً إجماليا تخطيطيا تبين فيه المعالم الرئيسية ، ومع افتراضنا سلفا أن تصويرا هذا شأنه سيغفل حتما الحركة الديناميكية ، إلا أنه لا مناص من ذلك التبسيط « المخل » أو – بتعبير أدق – ذلك التبسيط المنهجى ، كى تتضح الظاهرة للأذهان ويسهل تصور العقل لها .

(أولا) الدين والتطور العقلى

١ – بينا أن الدين فى مبدء الأمر إنما هو اتجاه انفعالى فى جوهره ، ولكن لا يمكن أن نغفل عما للطفل من أسلوب فى التفكير لا ينعزل عن حياته الانفعالية بحال من الأحوال . إن تأليه الأب اتجاه نفسى تلقائى لا بد منه ، هو امتداد طبيعى للاعتقاد السحرى فى قدرة الذات المطلقة ، وتمهيد طبيعى أيضا للارتباط الوجدانى بالله .

٢ – ينشأ الدين أول ما ينشأ فى السحر الذى هو اتجاه تلقائى فى التفكير ، ثم يعقب ذلك اعتقاد بالله ، اعتقاد ضمنى هو فى مستوى «التخييل» . فالأفكار الدينية لا تنشأ فى ذهن الطفل على نحو منطقى موجَّه ، إنما الذى يحدث أن اقترانات تُعقد بين بعض الأفكار فى سلسلة الخواطر المتداعية ، وهذه الأخيرة

وثيقة الصلة بالدوافع التى يدركها الطفل إدراكا غامضا ، ولا تعرض لذهنه أبدا فى صورة معنوية واضحة إلا فى مرحلة متأخرة من النمو .

٣ ـ فكرة الله لا تندمج فى التكوين العقلى للطفل إلا عندما يصبح مهيأً ـ إلى حد ما ـ للتخلى عن الاتجاه السحرى فى التفكير ، وحالما يفطن إلى حدود القدرة الأبوية . على أن الفكرة لا تصبح عاملا فعالا فى تكوينه العقلى دفعة واحدة ، إنما تبقى بعض سمات الأبوة غالبة على تصور الله ، ويبقى الله مؤثرا فى الحوادث تأثيراً سحريا (محققاً لرغبات الطفل أو رغبات غيره من الكبار) ، لا بناء على ضرورة يقتضيها نظام الكون .

٤ ـ عندما ينحو الطفل منحىً موضوعيا فى التفكير ، الأمر الذى لا يحدث قبل السابعة من العمر ، يتنبه إلى أن الله ليس ربه فحسب ، بل هو رب العالم الخارجى أيضا . أى أن الدين ينتقل من المرتبة النرجسية الانفعالية إلى المرتبة العقلية .

٥ ـ يبدأ اللاهوت فى حياة الطفل فكرةً واحدةً هى الله ، ثم لا يلبث أن تظهر إلى جانبها مع التطور العقلى أفكار أخرى ، كفكرة الخلق وفكرة العالم الآخر ، وفكرة الملاك أو الشيطان ، وهكذا . . .

وتكون الأفكار الدينية فى بادىء الأمر أفكارا مستقلة بعضها عن بعض ، ولكن التطور العقلى فى أعقاب أزمة المراهقة ، وظهور الاتجاه الفلسفى فى التفكير ، يؤلف بين الأفكار فى مذهب أو تصور شامل موحَّد ، فتصبح الصلة وثيقة بين تصور المرء لله وتصوره للكون ، ولا يعود تصوره لله منفصلا عن اعتقاده بالموت والخلود . حينئذ يصبح للمرء لاهوت مكتمل (وإن كان لاهوتا مؤقتا) ، بعد أن كان اللاهوت فى الطفولة مجموعة من الأفكار المبعثرة ، بعضها لم يرقَ إلى مستوى العقيدة الثابتة ، ولم يزد عن كونه « تخييلا » رهنا بالدوافع التى أنتجته .

٦ ــ دين الطفل الصغير كدين البدائى ملىء بالأطياف والشياطين والملائكة، حتى الله عنده ذو صور متعددة متغيرة. وكذلك كانت الأديان القديمة زاخرة بالآلهة الخيرة والشريرة على حد سواء ــ آلهة الحرب وحماة الزراعة (زوس، مارس، ڤشنو، پلاًس أثينا، سيڤا، إلخ . . .) وقد استطاع الذين شادوا أقدم المدنيات فى فارس وربوع الفرات بمهارتهم أن يبسطوا الميثولوچيا الدينية، فركّزوا الشياطين الشريرة فى روح شريرة واحدة، وركزوا جميع الأرواح الخيرة فى إله واحد خيِّر، حتى أضحت الحياة فى الميثولوچيا الفارسية صراعا بين قوى الظلام التى يتزعمها إله الشر (أهريمان) وبين قوى النور التى يتزعمها إله الخير (أورموزدا). وأبرزت المسيحية وأبرز الإسلام فكرة الله على أنها جماع صفات الخير، أما الشر فهو غيبة الله. هذا الاتجاه نحو التبسيط نشاهده فى النمو الدينى عند الطفل، إذ تتوحد صور الله المتعددة فى صورة واحدة ثابتة مع النمو العقلى، وتأخذ الشياطين فى التلاشى رويدا رويدا حتى تصير مجرد تعبير عن النزعات الشريرة الداخلية. والسر فى أن الدين يتجه نحو البساطة والوحدة كلما تقدم الطفل فى العمر وارتفع مستواه العقلى، هو أنه يبتعد رويدا رويدا عن منابعه الأصلية، أعنى عن الانفعالات. ويقترب فى نفس الآن من المنطق والعقل الذى يسيغ كل شىء وفقا لتكوينه الخاص الذى يتعارض مع الكثرة والتعدد.

٧ ــ تطور فكرة الموت وثيق الصلة بالتطور العقلى. فنشأة الفكرة رهن ببلوغ الطفل مرحلة معينة من الرقى العقلى، وكل طور من أطوار نمو فكرة الموت متوقف على طور مقابل من أطوار النمو العقلى. وفكرة الموت تؤثر بدورها فى النمو العقلى، فهى التى تسهم مساهمة فعالة فى تخلّى الطفل عن الاعتقاد بألوهية الأب، ومن ثمة فى تخليّه عن التفكير السحرى، وإعداده للتفكير المنطقى الذى يستند إلى مبدإ العِلّية العلمية.

(ثانيا) الدين والتطور الأخلاق

١ ـ بروز الحس الأخلاق فى الطفولة المتأخرة يؤثر تأثيراً بينا على تصور الطفل لله ، إذ تبرز صفته الأخلاقية (الله من حيث هو قاض وعون أخلاق) ، وتتراجع صفته الكونية (الله خالق) .

وفى المراهقة يتخلى المرء عن التصور الحسى لله ، ويقترب الله من داخليه النفس حتى ليصبح أقرب ما يكون إلى الضمير عند بعض المراهقين .

٢ ـ تتطور فكرة الحياة الأخرى مع تطور الحس الأخلاق وتقدم التفكير ، فهى فى بادئ الأمر تخيلات لا تختلف عن أحلام اليقظة فى شىء ـ تخيلات يبدعها خيال الطفل تلقائيا وليس فيها من أثر التلقين غير اسم الجنة والنار، ثم تبرز فيها فكرة الجزاء (الثواب والعقاب)، وفى السنوات الأخيرة من الطفولة تمتلىء فكرة الحياة الأخرى بالتفاصيل التقليدية التى تنتقل إلى الطفل عن طريق التلقين . ولكن المراهقة كفيلة بزعزعة الصور الحسية للحياة الآخرة وإبراز الأساس الأخلاق الذى تنطوى عليه حتى ليعلن بعض المراهقين أن الجنةَ هى رضا الضمير ، والنارَ عذابُ الندم .

٣ ـ هذا التطور لفكرة الخلود عند الفرد شبيه بتطور عقائد الخلود فى تاريخ الإنسانية ، إذ كلاهما تطور نحو فكرة خلود مهذبة هى حياة روحية فحسب : فمن الشعوب البدائية من يعتقد أن الحياة بعد الموت ليست إلا تتمةً لأسلوب الحياة الذى ألِفناه على الأرض، من هؤلاء بعض قبائل الهنود الأمريكية الذين يؤمنون بأرض الصيد السعيدة حيث تواصل الأرواح الصيد والقتال وإقامة المآدب ، الأمر الذى يحقق لهم نوعا من السعادة تشبه إلى حد كبير السعادة الأرضية . وتبرز فكرة الحياة الآخرة من حيث هى تعويض عن الحياة الأرضية

على نحو مشوش فى العقيدة البوذية ، وعلى نحو واضح مكتمل فى الإسلام والمسيحية . وفى المرحلة الأخيرة من تطور فكرة الخلود تصبح الحياة فى الجنة حياة روحية خالصة بحيث لا يمكن التعبير عنها باللغة الأرضية . وفى هذه الفكرة النهائية لا تصبح الجنة فى السماء ، ولكن فى أعماق النفس .

(ثالثا) الدين والتطور الاجتماعى

١ ــ الدين فى مبدأ الأمر علاقة نرجسية صرفة بين الطفل والأب (الكامل القادر على كل شىء) . وبرغم ما فى هذه العلاقة من حب وتبجيل يبذلهما الطفل لأبيه ، إلا أن محورها هو الأنانية أو المنفعة .

ولذلك يصدم الطفل حالما يتبين أن ثمة إلهاً غير أبيه . ولكنه لا يلبث أن يرتضى ذلك الإله الجديد ، ضمانا للتوافق مع المجتمع المحدود الذى يعيش فى كنفه .

٢ ــ على الرغم من أن تقبُّل فكرة الله خطوة جديدة فى تكيف الطفل للواقع ، إلا أنه لا يتخلى تواً عن «نرجسيته» ، إذ لا يكون الله فى بادئ الأمر غير أداة سحرية يتوسل بها إلى تحقيق رغباته الطفلية .

٣ ــ عند بزوغ التفكير الموضوعى ، تتسع آفاق الطفل فيرى عالما شاسعا ، ويخرج من حدود ذاته الضيقة ، ثم لا يلبث أن يربط بين الله وبين العالم ، ويصبح الدين من ثمة لا مجرد علاقة بينه وبين الله ، بل وَحدة معقدة تنتظم الله والعالم وذاته فى آن واحد .

٤ ــ يتنبه الطفل فى السنوات الأخيرة من الطفولة إلى أن الله ليس ربه وحده ، بل ربُّ قومه جميعاً ، وإلى أن الدين أمر لا غنى عنه للربط بين أفراد فئة معينة من الناس أوسع من أسرته ، وأنه فى نفس الوقت حد يفصل بين هذه

الفئة وبين فئة أو فئات أخرى . فالدين هنا مظهر ارتقاء فى التكيف الاجتماعى من حيث أنه يزيد علاقات الطفل تشعبا واتساعا ، ولكنه قد يصير مظهر تنافر اجتماعى.

إن للنمو الدينى وظيفة هامة ، هى تحقيق التكيف المتواصل والتوسع المستمر فى الاستيعاب العاطفى للناس . ولكن كما يصاب المرء فى تطوره العقلى أو الانفعالى بالثبوت عند مرحلة بعينها من مراحل النمو ، ثبوتا يعطل نضوج المرء ومواصلته رحلة النمو ، كذلك الحال مع النمو الدينى فقد يبلغ المرء مرحلة الإحساس الملّى، ثم يثبت عندها ، فلا يسعه بعد ذلك أن يتكيف لمن هم خارج دائرة ملّته . ولذلك كان التعصب الدينى أو التحامل الملى مظهراً لنضج ناقص ، أو كان أسلوبا قاصرا فى التكيف ، فانعدام الأمن يفرض على المرء أن يتشبث بعلاقته الوجدانية بقومه ، ويتوجس خيفة من الأقوام الأخرى .

٥ – فى المراهقة نلمس آيات محاولة الطفل التحرر من هذه الروابط الوجدانية الطفلية ، ونرى نزوعا إلى التعامل مع أهل الأديان الأخرى ، بل قد نرى المراهق يدرس الأديان الأخرى ويستعين بعقائدها على محاربة عقائد دينه هو ، يفعل ذلك لا لصالح الأديان الأخرى ، ولكن رد فعل للقيود التى رسف فيها ، ومحاولةً للتحرر من التبعية الطفلية ، والانطلاق الروحى فى رحيب الآفاق . وإنا لا ننكر وجود التعصب والتحامل الدينى فى المراهقة ، ولكنا نؤكد أنه إن وُجد يتخذ صفة مذهبية ، إذ يبرره المراهق بالحجج العقلية ، فيصبح تعصبا مؤيَّدا بالأسانيد بعد أن كان اتجاها وجدانيا لا تبرير فيه .

(رابعا) خصائص التطور الدينى
عند الفرد

١ – تطور الدين يتم فى إطار تطور نفسية الفرد ، ولا ينعزل بأى حالٍ عن تطور الشخصية من حيث هى قوة ديناميكية فى مجتمع ينطوى على مجموعة من القوى الديناميكية المتشابكة .

٢ ــ ينطوي التطور الديني للفرد على الصراع :

(ا) ذات الطفل فى بادىء الأمر مركز الوجود بأسره ، ومن ثمة كانت مركز طاقته الوجدانية . والأب حينئذ من عناصر الواقع البغيض ، ذلك الواقع المعاكس لميوله الأنانية .

(ب) يقتضى النمو مصالحة الأب باعتباره من عناصر الواقع التى لا مناص من التكيف لها ، فتُكبَت الدوافع العدوانية ولا يعود الطفل يتصور أباه فى صور الأعداء الذين يتربصون به الدوائر ، ويصبح الأب مركز الطاقة الوجدانية .

(حـ) ما حدث مع الأب يحدث مع الله ، إذ يرتضيه الطفل مركزا لطاقته الوجدانية بعد مغالبة ومحاولات نبذ جاهدة .

(د) يجد الطفل أمنا ورضى فى اعتقاده بالقدرة السحرية لله بعد انهيار قدرة الأب المطلقة ، ثم يأتى النمو العقلى بتصور العلّية العلمية ، وفى ذلك التصور مناقضة لتصور الله ذا قدرة سحرية لا ضابط لها ولا حدود . هذا صراع عقلى بين التفكير السحرى الطفلى والتفكير الموضوعى الناشىء لا يلبث أن يتولد عنه تصور جديد لله ، أعنى من حيث صلته بالكون ، تصور يحل محل تصور الله « أباً مثالياً » .

(هـ) يهدأ الصراع طوال الطفولة المتأخرة وإن كان يظهر فى الخارج فى شكل معاداة صريحة لأهل الأديان الأخرى . ثم ينكشف الصراع واضحا فى سياق أزمة المراهقة ــ فالحماس الدينى يغالب الميول الجنسية ونزعات الطفولة العدوانية وقد يكون إجراء دفاعيا ضد نزعات التحرر من الإيمان . والتذبذب بين الحماس والشك يخفى صراعا عنيفا بين الرغبة فى الإبقاء على الصلة الطفلية بالوالدين المؤمنين وبين الرغبة فى التحرر والاستقلال الناضج ، ومعاملة المؤمن لكل مقصّر فى الدين أو مخالف للعقيدة معاملةً متزمتة لا تسامح فيها دليل على انقسام

داخلى . وتزمت المراهق موجَّه فى حقيقة الأمر ضد الجزء المتمرد من ذاته . وكذلك الحال عند الفتى الملحد الذى لا يفتأ يوجه العدوان ضد المتدينين ورجال الدين، فإنه بعدوانه هذا إنما يغالب بقايا نزعات إيمانية فى نفسه لم تنهزم بعد . فالتزمت أو عدم التسامح الدينى مع خصومنا مظهر خصومة ميدانها الذات نفسها .

٣ — يتطور الدين من الفردية النرجسية (فى الطفولة الأولى) إلى الروح الجماعية التى تُلاشى الفردية وتجعل الفرد ينسى ذاته فى المجتمع (فى الطفولة المتأخرة) إلى الفردية الواعية الساعية إلى التحرر من قيود المجتمع الراهن والمتطلعة إلى آفاق أرحب (فى المراهقة) . ولو مضى الإنسان فى سبيل النضج الوجدانى لسجل رقيا أبعد من ذلك ، هو التوافق مع الإنسانية جمعاء ، بيد أن نفرا قليلا من الناس يبلغون هذا المستوى مع الاحتفاظ بإيمانهم الدينى .

٤ — ينبت الدين فى الانفعالات، وفكرة الله ليست إلا تبلورا لاتجاهات انفعالية عدة . ويبدأ اللاهوت فكرة واحدة هى فكرة الله التى تكون غارقة فى انفعالات الطفل، ثم تتحدد الفكرة الذهنية وتنبت بالتدريج إلى جانبها أفكار أخرى، ويأخذ اللاهوت الطفلى فى الاتساع رويدا رويدا، ويأخذ فى الابتعاد عن أساسه الانفعالى ويتخذ مع الزمن مظهرا عقليا، فيصبح للمرء فى فترة المراهقة لاهوت مكتمل يتلوّن بالتفكير العقلى حتى ليصير أقرب إلى الفلسفة الدينية منه إلى العاطفة الدينية .

وقد يمضى المرء فى هذا السبيل حتى ليصير الله عنده فكرة أقرب إلى الضمير الداخلى منها إلى إله سماوى ، وتصير العقائد مجموعة من القيم الأخلاقية يقدسها لذاتها لا لكونها موحىً بها فحسب .

• • •

تلك هى النتائج التى وسعنى أن أبلغها ببحثى هذا ، وهى نتائج وإن كانت كشفت لنا عن أركان مظلمة فى تطور نفسية الفرد إلا أنها تزيدنا يقيناً أن

جوانب أخرى فى حياة الفرد الدينية ما زالت خافية عنا، وينبغى أن تتجه إليها البحوث السيكولوجية المقبلة :

(ا) فثم موضوع التعصب الدينى أو الإحساس الذى ألممنا به إلمامة عابرة، ولكنه يحتاج إلى بحث مستقل مستفيض — يتلمس جذوره الأولى، ويتتبع تطوره، ويبين لنا إن كان حتما مقضيا على الجنس البشرى، أو إن كان رهنا بأوضاع ثقافية معينة، ويفحص مظاهره المرضية، وصلته ببعض الاضطرابات النفسية. وإن بحثا هذا شأنه يتطلب دراسة سيكولوجية واجتماعية فى آن واحد، وسيكون دليلا حاسما على استحالة فصل علم النفس التكوينى عن علم النفس الاجتماعى.

(ب) وثم موضوع النزعات التحررية (بالنسبة للدين)، من شك إلى إلحاد. ويحتاج هذا الموضوع إلى جمع أكبر عدد من الحالات تفحص فى ذاتها وفى علاقاتها الخارجية، وتفيدنا الأساليب الإحصائية والتحليل العاملى فى بيان الصلة بين هذه النزعات وبين الذكاء، وبيان تأثير كل من النمو الانفعالى والمستوى العقلى والعوامل البيئيه فى إحداثها.

(ح) وأحس أيضاً أن الصلة بين تصور الطفل للكون وتصوره لله يحتاج إلى تعمق أكثر. ويبدو لى أن نشأة الأفكار الفلسفية فى المراهقة إن درست على نطاق واسع ربما كشفت لنا جوانب كثيرة من التقلبات الدينية فى المراهقة وما بعدها.

وإن الموضوع برغم تعدد الباحثين فيه لا يزال بكرا، وينطوى على احتمالات لا حصر لها. ولكنى أعتقد أن الجهد الفردى إن أجدى فى أى ميدان من ميادين البحث السيكولوجى فهو لن يجدى إلا النزر اليسير فى هذا الميدان. فلابد من تعاون عدد من الباحثين سويا فى هذا الميدان إن أرادوا نتائج مجدية. وقد لمس هذه الضرورة بعض الباحثين بجامعة برمنجهام فما سمعوا عن هذا البحث من مقالين نشرتهما منذ سنوات حتى اتصلوا بى إذ هم بصدد دراسة تطور فكرة الله عند الطفل وأرجو أن أتمكن — وقد فرغت من هذا البحث — من أن أقوم بمعونتهم بدراسة مقارنة فى نفس الموضوع.

خاتمة

لقد بدأت البحث مستنداً إلى أساس فلسفى يجنبنى الشطط الجدلى، وأجد أن أحسن تعبير وأوضحه عن ذلك الأساس، هو قول الأستاذ « سانكتس » De Sanctis :

« ينبغى أن يتجنب علم النفس الدينى إن أردنا الاحتفاظ له بصفة العلم الموضوعى أن يكون سنداً للإيمان، أو موئلا للملحدين . يجب ألاّ نرى فيه هزة الطرب الناجم عن الإيمان ، أو قشعريرة السخرية المنبعثة من التشكك . »

وإن كان هذا المبدأ قد هدانى إلى الطريق التجريبى المستقيم أثناء بحثى إلا أنه لا يستطيع أن يمنعنى – وقد فرغت من البحث – من تسجيل ما عن لى من تأملات فلسفية.

يبدو لى أن الشعور الدينى عملية نمو متصلة ، غايتها تحقيق التوافق بمعناه الواسع ، أعنى التوافق مع الطبيعة والإنسان بل مع العوالم غير المرئية – سواء وجدت أم لم تكن موجودة . فى الاعتقاد بأن الروح كامنة فى الجمادات animism ، وفى الاعتقاد بالقدرة السحرية للأفكار والرغبات ، وفى الاستسلام لدين الآباء ، وفى السعى إلى دين جديد أو فلسفة تكسب حياة المرء معنى وتخلع عليها قيمة ، وفى الإيمان بقوانين العلم والكفر بكل ما عداها من حقائق مطلقة ، فى كل هذه الأمور نلمح كفاح الإنسان كفاحاً تلقائياً متصلا للتكيف مع واقع متجدد تجدداً مستمراً ، وصراعه من أجل تحقيق ذاتيته والتغلب على القدر المحتوم .

وإذا كان الدين أسلوباً من أساليب التكيف ، إلا أنه يختلف عن الأسلوب العلمى فى التكيف فى كونه يحسب حساباً لأمور لا تدخل فى حساب العلم . ومن هنا كان أسلوب التكيف الدينى أشمل وأرحب من أسلوب التكيف العلمى ، إذ لا يتجاهل حقائق الموت والعالم الآخر والله وربما الشياطين والملائكة . قد يرى العلم هذه الأمور أوهاماً أبدعها خيال الإنسان ، ولكن الذى لا شك فيه أنها

أمور تواجه الإنسان، وتثير استجاباته، ومن ثمة لم يكن مناص من أن يسعى إلى التكيف لها على أى نحو من الأنحاء ، والدين يحقق له هذه الغاية .

وفضلاً عن ذلك فليس محاولة للتكيف مع الله فحسب ، بل مع الحياة عموماً : فالدين موقف ثلاثى معقد يضم الإنسان والله والعالم ، ولعل ذلك المعنى هو ما تنطوى عليه آية الإنجيل : « المجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام ، وفى الناس المسرة . »

والدين كأى نشاط يصدر عن النفس الإنسانية ، لا يمكن أن يكون سلبياً ، أى لا يمكن اعتباره رضوخاً ، بل هو — على الرغم مما يظهر عليه من استسلام — ينطوى فى نفس الوقت على محاولة جاهدة لتقرير الذات وإثبات وجود الإنسان كعنصر فعال فى ذلك الكون .

فتطور الدين مثلاً أكبر دليل على عدم اعتراف الإنسان بالموت ؛ حقاً إنه يقبل الحقيقة المرة فى آخر الأمر رضوخاً لحكم الواقع ، ولكنه لا يسلم بها إلا بعد كفاح مرير فى دفعها وتشويهها بحيث لاتعود تحمل معنى الفناء، ثم إنه بعد أن يسلم بها يجد فى عقيدة الخلود ما يعوض هزيمته ويخفف قلقه .

وقد تنبه كثير من الكتاب إلى أن الدين يستند إلى إحساس الإنسان بضعفه ، وحاجته إلى الأمن ، وشعوره بالنقص الخلق ، وحاجته — من ثمة — إلى عون خارجي يظاهره ضد شياطينه الداخلية ؛ وكان هؤلاء محقين عند ما قرروا أن نمو اعتداد الإنسان بنفسه ، وثقته بحريته ، واعتماده على قدرته التى تمكنه من اقتحام المصاعب وتذليل العقبات ، يجعله يطرح الدين جانباً ؛ ولكننى أرى أنهم لم يتنبهوا إلى أن الدين كما يعكس إحساس الإنسان بنقصه ، فهو يعكس أيضاً أنانيته وطموحه — إن الإنسانية بأسرها كما لم تعترف بالموت إلا راغمة وبعد أن اتخذت الأهبة لذلك الاعتراف ، فهى كذلك لا تعترف بالضرورة الحتمية (المعبر عنها بالقدر) إلا راغمة . وهى إزاء ضرورات التكيف تقبل الوضع تقبلاً ليس هو من قبيل التسليم الذليل ، إذ لا يلبث الإنسان أن يقاوم الضرورة

الطبيعية إما بفضح أسرارها (بالعلم والفلسفة) كي يسعه السيطرة عليها أو استغلالها لتحقيق أهدافه، وإما بالاستعانة بمن هو أعلى من هذه الضرورة والارتباط به والتحالف معه . ففي الإيمان بالله إرضاء لطموح الإنسان على نحو ما ، وفي الإيمان بالقيامة (التي بينا أن معناها الأصلي في الطفولة هو انهيار النظام الطبيعي) تعبير عن أمنية عزيزة ، هي الانتصار على « القدر » ، تلك الحتمية الطاغية التي لا يعنيها وجود فردي ، ولا تبالي بإرادة شخصية .

وإذا كان النمو الديني قد بين لنا أن الإنسان لا يصبح متديناً إلا خضوعاً وبعد هزيمة ، فإننا قد رأينا أيضاً أن أمد الهزيمة لا يدوم ، فإما تحرر من الدين بعد حين وتمرد عليه ، وإما أن يجد المرء فيه حريته فلا تصبح به حاجة إلى نبذه . آية ذلك إن الإنسان لا يلبث أن يجد في الدين معاني إنسانية ، فيرى عقائده مجموعة من القيم الإنسانية ، ويقرب الله من داخلية نفسه . فبعد أن كان إلهاً شخصياً ذا صورة معينة متحققة في عالم علوي ، قد يغضي عن هذه الصورة ولا يعود يراه غير انعكاس لمثله الإنسانيه العليا. فمهما كان ثبوت عقائد ذلك الدين واستعصاؤها على التطور ، فإن الإنسان — عن وعي منه أو عن غير وعي — يتقبل هذه العقائد من خلال نفسه المتطورة دونما توقف . وهذا ما يجعلني أقرر أن الدين قد يرضي أنانية الإنسان وطموحه .

وصدق « أوديب جيد » : « ومن ذا الذي لا يذعن مطمئناً إلى قوة مقدسة ترقى به إلى حيث بلغت ؟ ! » .

الشيطان من رسم طفلة فى سن الثامنة : وجه تبرق فى ظلامه عينان محدقتان ، وتبرز من جانبيـه أذنان كبيرتان (وكأن الشيطان رقيب مخيف يبصر ويسمع كل شيء) ؛ جسد شائه ذو زوائد غريبة (!) . تلك صورة تبلورت فيها مخاوف الطفولة فضلا عن مشاعر العدوان .

رسمت الطفلة نفسها (أسفل) الملاك حيواناً ضئيلا وادعاً ومعالم جسده واضحة ، وقد أبرزت الثدى مما يدل على أن مفهوم الملاك وثيق الصلة فى ذهن الطفل بفكرة الأمومة الخيرة .

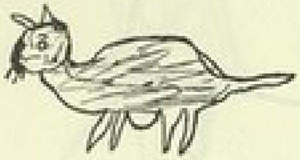

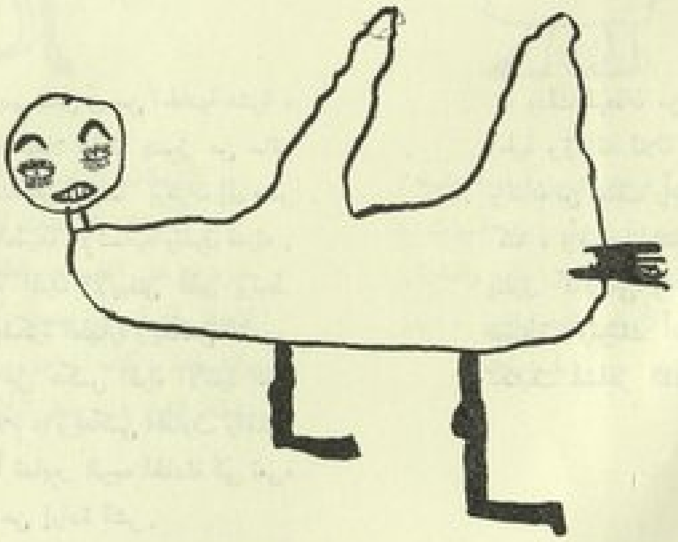

وتلك طفلة أخرى فى سن الثامنة أيضاً ترسم الملاك طائراً لا تشوب بياضه (طهارته وحنوه) شائبة ، ورأسه رأس امرأة رائعة الحسن ، وقد شرع جناحيه فى رشاقة . صورة تركز مشاعر الأمن والحنان . ومن الطريف أن هذه الطفلة لم تشأ أن تعكر صفوها برسم شيطان قائلة إنها لا تعرف له شكلا .

الملاك من رسم طفل فى سن الحادية عشرة ، وقد تصوره طفلا هادئاً يتميز من سائر الأطفال بجناحين لعلهما يرمزان إلى سمو الملاك على الطبيعة الإنسانية وتفوق قدرته . لاحظ غلبة اللون الأبيض الذى يرتبط فى أذهاننا بفكرة الطهارة ويعكس الشعور بالأمن ، على عكس اللون الأسود الذى يرتبط بالظلام ، ويعكس المخاوف والقلق. لاحظ أيضاً تعابير الوجه الهادئة التى تنبيء ببعد الملاك عن إرادة الشر .

وذلك شيطان من رسم الطفل نفسه : الحية وزوائد ثلاثة انبعثت من جبهته ، واثنان من خلف رأسه، وسواد يغمر الجسد كله ، وأصابع استحالت أشواكاً ، وذيل يتلوى كالأفعى (!) ، واليدان تكاد تختطف وتوشك أن تهاجم. ذلك غير تكثيف لمشاعر القلق والعدوان .

الملاك من رسم مراهق فى سن الرابعة عشرة : وقد اتخذ صورة راهب أبوى السمات ، ولا يخلو وجهه من تعابير الحزم والقدرة . وثم الثوب الأبيض الفضفاض ، رمز الطهارة والبعد عن الجسديات .

الشيطان كما تصوره المراهق نفسه : ما الشيطان إلا الموت الحاصد ، وذلك خروج عن المفهوم الطفل للشيطان . لاحظ الفرق فى حجم كل من الملاك والشيطان ، كأن المراهق يريد أن يتضاءل سلطان الشر ، ويعظم شأن الخير والأمن .

الملاك

رسم مراهقة في سن الخامسة عشرة : الأجنحة والبياض الغالب مرة أخرى . يبين الرسم الصلة الوثيقة بين فكرة الملاك وبين الجانب الخير من الأمومة. لاحظ الذراعين الممتدين تبغيان خيراً .

الشيطان

من رسم المراهقة نفسها . لقد تصورت الشيطان رجلا عارياً ، كثيف الشعر فضلا عن أن له ذيلا لا يختلف شكلا عن الحية الرقطاء برأسها الأسود (!) . لاحظ الأظافر في يدين ممتدتين تبغيان أذى .

هكذا تصورت فتاة فى السابعة عشرة من عمرها الشيطان شاباً وسيما عارى الصدر ، أبرزت فيه سمات الرجولة الفضة : الشارب الطويل . . . واللحية المرسلة . . . والشعر فى صدره... وكله فتنة وإغراء ، ولذلك فهو خطر داهم فالمخالب قاطعة ، والذيل كالثعبان المتحفز . صورة تعكس ما بنفس المراهقة من صراع مع شيطان الدافع الجنسى .

المراجع

المراجع الأجنبية

1. Th. Flournoy & E. Claparède, Archives de Psychologie, Tome II, 1903.
2. E. Durkheim, Les Formes Elémentaires de la Vie Religieuse.
3. C.L. Leuba, Introduction to a Psychological Study of Religion; The Monist, vol. XI (January 1901).
4. C.L. Leuba, Psycho-Physiology of the Moral Imperative, American Journal of Psychology, vol. VII.
5. E.D.Starbuck; Contributions to the Psychology of Religion, American Journal of Psychology, 1879.
6. E.D. Starbuck; The Psychology of Religion, An Empirical Study of the Growth of Religious Consciousness, 1899.
7. Stanley Hall, Adolescence — Its Psychology and its Relations to Physiology, Anthropology, Sociology, Sex, Crime, Religion & Education. ch. XIV New York, 1928.
8. Stanley Hall, Jesus The Christ, 1927.
9. W. James, The Varieties of Religious Experience, A Study in Human Nature, Longmans Green & Co., New Impression, 1937.
10. Colvin, The Psychological Necessity of Religion, American Journal of Psychol. Tom. XIII, Jan. 1902.
11. J.M. Baldwin, Handbook of Psychology, Two volumes, 1890-1891.
12. W. James, Principles of Psychology. Two vol. 1890.
13. Stout, A Manual of Psychology, London, 1899.
14. E.B. Titchner, An Outline of Psychology, New York, 1897.
15. P. Bovet, Le Sentiment Religieux et la Psychologie de l'Enfant, Collection d'Actualités Pédagogiques de l'Institut, Neuchatel.
16. Robert H. Thouless, An Introduction to the Psychology of Religion, 2nd ed. Cambridge 1936.

17. E. Claparède, Rapports et Communications, Geneva 1910, ed. Claparède, Tome IV (International Congress of Psychology, 1909.)
18. Sante De Sanctis, Religious Conversion, A Bio-Psychological Study, translated by Helen Augur, London, 1927.
19. Sigmund Freud, An Autobiographical Study, Trans. James Stratchey, Hogarth Press, 1936.
20. Sigmund Freud; The Ego and the Id, 1927, Originally published 1923.
21. Sigmund Freud, Group Psychology and the Analysis of the Ego, (1921) Trans. James Stratchey, London : Hogarth Press, (1922).
22. R. Cattell, Psychology and the Religious Quest, An Account of Religion and a Defence of Individualism, 1939.
23. E. Hurlock, Child Development, New York & London, 1942.
24. J.W.D. Smith, Psychology and Religion in Early Childhood, London 1936.
25. Sylvia Anthony, The Child's Discovery of Death, London 1940.
26. J. Piaget, Le Jugement Moral chez L'Enfant, Librairie Félix Alcan, 1938.
27. J. Piaget, La Représentation du Monde chez l'Enfant, Fél x Alcan, 1936.
28. J. Piaget, La Causalité Physique chez l'Enfant.
29. S. Ferenczi, Further Contributions to Psycho-Analysis.
30. S. Isaacs, Essential Needs of Children, The New Era, Nov., 46.
31. P. Loti, Le Roman D'Enfant.
32. J. Rickman, Man Without God, (a talk delivered from the B.B.C. Home Service on 2nd Nov. 1950).
33. E. Mumford, The Dawn of Religion in the Mind of the Child, 9th Impression, April 1936.
34. Encyclopædia of Modern Education, ed. Harry N. Rivilin, The Philo. Library of New York 1943.
35. J. Piaget, The Language and the Thought of the Child.
36. E. Jones, Papers on Psycho-Analysis, 1938.
37. E. Renan, Souvenirs d'Enfance et de Jeunesse, Collection Nelson, Paris, 1938.

38. P. Bourget, Le Disciple, Paris; Librairie Plon.
39. M. Débesse, La Crise d'Originalité Juvénile, Librairie Félix Alcan, 1936.
40. S. Isaacs, Social Development in Young Children, London 1933.
41. W. Brown, Personality & Religion, University of London Press, 1946.
42. R. Cousinet, L'Idée de la Mort chez les Enfants, Journal de Psychol. (normale et pédagogique), Janv. Mar. 1939.
43. S.J.F. Philpott, Experimental Inquiries in the Psychology of Religion' (a paper delivered in the Annual Meeting of the British Society of Psychology.)
44. Melanie Klein, The Early Development of Conscience in the Child, Psycho-Analysis To-day, London.

مراجع عربية

١ ـ حياتي والتحليل النفسي تأليف فرويد وترجمة الدكتور مصطفى زيور وعبد المنعم المليجي (تحت الطبع) .
٢ ـ الشعور الديني عند الطفل عبد المنعم المليجي ، مجلة علم النفس، عدد يونيو سنة ١٩٤٧ .
٣ ـ الشعور الديني عند المراهق عبد المنعم المليجي ، مجلة علم النفس، عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧ .
٤ ـ المريد تأليف پول بورجيه. ترجمة سليم سعده، دار مجلي .
٥ ـ الباب الضيق تأليف أندريه جيد ، ترجمة نزيه الحكيم ، مجموعة الكاتب المصري .
٦ ـ التصوف الإسلامي تأليف الدكتور زكي مبارك .

٧ ــ روضة المحبين — تأليف ابن الجوزى .
٨ ــ النمو النفسى — تأليف عبد المنعم المليجى، دار النشر للجامعيين، سلسلة « فى علم النفس »، القاهرة ١٩٥١ .
٩ ــ تربية سلامة موسى — تأليف سلامة موسى .
١٠ ــ تاييس — تأليف أناتول فرانس ــ ترجمة أحمد الصاوى محمد، دار مجلى .
١١ ــ أوديب ــ ثيسيوس — تأليف أندريه چيد ــ ترجمة الدكتور طه حسين، دار الكاتب المصرى، أكتوبر سنة ١٩٤٦ .

كتب أخرى للمؤلف

عقدة النقص (ترجمة)	تأليف مكبريد . الناشر المصرى ١٩٤٦ .
أساليب التفكير	نهضة مصر بالفجالة ١٩٤٩ .
النمو النفسى	دار النشر للجامعيين ١٩٥٠ .
حياتى والتحليل النفسى	تأليف فرويد (ترجمة بالاشتراك مع الدكتور مصطفى زيور ــ تحت الطبع) .

136.7:M25A

المليجي ،

تطور الشعور الديني عند الطفل
والمراهق،

136.7
M25A

JAFET LIB.

9 DEC 1972

12 DEC 1990

4 JUN 1973

J. LIB.

1 JAN

JAFET LIB.

1 JAN 1991

136.7:M25A:c.1
المليجي ،عبد المنعم عبد العزيز
تطور الشعور الديني عند الطفل والمر
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01001594